

الحنين إلى بحرى

محمد جبريل

جمال عبدالنبى

الحنين إلى بحرى

محمد جبريـل

دار الهلال

الغلاف للفنان: جمال عبد النبى
مستشار التحرير: محمد رضوان

يعيش، بمعنى حقيقي،
من يدرك قيمة المكان

جاستون باشلار

بحرى..
شبه جزيرة سكندرية

أذكر خريطة لشوارع الإسكندرية ، وضعتها أبى وسط جدار الصالة ، تعلوها ساعة الحائط البندولية . يحدها من جانبين الميناءان الشرقى والغربى ، وتمتد فيها الشوارع والمربعات والمستطيلات ، وتتقاطع . التغيّر - فى ظنى - شهدته الأحياء خارج بحرى . مساحة بحرى المحددة ، والمحدودة ، احتفظت له بطبيعته الجغرافية ، غالبية الشوارع والبنايات والميادين على حالها ، التغيّرات المهمة قليلة - كما فى ميدان أبو العباس مثلاً - لكن القسمات الأساسية للحى لم تتبدل، البحر والكورنيش والجوامع والحدائق والميادين والساحات والشوارع والحوارى والأزقة وغيرها، ظلت فى مواضعها تحتفظ للحى بجغرافيته ، وتستعيد ذاكرته، وإن تغيظنى

بنايات النفوذ والفئات المرفهة، تفصل بين البحر والمدينة. تقصر التطلع إلى الأفق على أهل الحظوة، وغالبيتهم ـ تصورا ـ من الزوار والوافدين، وتشكل حائطاً في وجه أبناء المدينة.

الإسكندرية..

لا أعرف ماذا كانت تعني هذه الكلمة للورانس داريل ولا فورستر ولا كفافيس، ولا لسواهم من الشعراء والروائيين والفنانين الأجانب الذين عبروا عن سني حياتهم في الإسكندرية. أثق أن مشاعرهم لم تكن حميمة ولا أخوية. كانوا مجرد أعين راصدة، تنقل المغاير والمدهش والمثير، وإن تخلل كتاباتهم بعض المواقف الشخصية.

الفنان السكندري، ابن المدينة، أو الوطني الذي انتقل إلى الإسكندرية من مدينته القريبة ، والبعيدة ، لابد أن تختلف مشاعره تماماً . هنا وطنه .

الإسكندرية تسكنني بذكريات لا تغيب . هي جزء من تكويني ، من حصيلتي المعرفية وعاداتي وسلوكيات حياتي .

الإسكندرية درة مدن العالم ..

التسمية ليست من عندي ، لكنها التسمية التي حرص عليها معظم المؤرخين منذ دخلت جيوش المسلمين بقيادة عمرو

ابن العاص مدينة الإسكندرية . يصفها البعض بأنها أوروبية النشـأة ، عـربيـة اللسـان ، بحـرية الموقع ، على أطراف الصحراء ، ومدخل لإفريقية ..

ثمـة الكثـيـر من المدن التى تسـمى الإسكندرية ، لكن إسكندرية مصـر تظل هى المدينة الأم ، أولى المدن التى أمـر الإسكندر المقدونى بإنشائها ، وبأن يطلق عليها اسمه ، سواء كانت المدن التالية من عندياته ، أم محاكاة من أبناء العصور التالية لاسم المدينة الأم . أنشئت المدينة لتكون عاصمة لمصر، واستمرت عاصمة للبلاد حوالى ألف سنة .

وإذا كانت المدن ـ كطبيعة الأمور ـ تنمو بالتدريج ، تكتسب ملامحها الأساسية بالحذف والإضافة والتبديل والتعديل ، فإن الملمح الأهم فى مدينة الإسكندرية قد ظهر واضحاً منذ بداية إنشائها . وكما يقول أميانوس ماركيلنوس (القرن الرابع الميلادى) فإن الإسكندرية لم تستكمل زينتها تدريجياً مثل غيرها من المدن ، بل ازّينت ـ منذ إنشائها الأول ـ بالطرق الفسيحة . وأسهم موقع الإسكندرية فى تعاظم دورها الدينى، فقد كانت معبراً يربط بين المشرق العربى والمغرب العربى . يفد الساعون إلى الحج على ركائبهم ، أو على الأقدام ،

يقيمون فى المدينة فترات ، تطول أو تقصر ، وربما اختاروا الإقامة فيها إلى نهاية العمر . ذلك ما فعله قطب المدينة وسلطانها المرسى أبو العباس ، وذلك ما فعله - فنياً - شيخ قدم من المغرب ، وأقام فى الإسكندرية ، ووجد الناس فى أقواله وتصرفاته ما يدعوهم إلى التتلمذ على يديه .

صارت الفسطاط ، ثم القاهرة - فيما بعد - هى العاصمة الأولى لمصر ، لكن الإسكندرية ظلت هى العاصمة الثقافية للبلاد ، بل إنها فاقت القاهرة فى المنزلة الدينية ، منزلة الفسطاط والقاهرة ، نظراً - كما يقول أصحاب الرأى - «لخصوصيتها كرباط وثغر ، يحمى مصر والمشرق العربى بأسره من العدوان» .

الإسكندرية ليست مدينة واحدة . إنها عدة مدن على المستويات التاريخية والمكانية والبشرية . إنها - تاريخياً - مدينة فوق مدينة . إذا نقبت فى أى موضع من أرضها ، فستجد أثراً فرعونياً أو بطلمياً أو قبطياً أو إسلامياً . وهى - مكانياً - تتمتع بكل مقومات المدينة الكوزموباليتينية ، باحتضان المتوسط لها ، وانتماء عمارتها إلى الحقب التاريخية التى عاشتها ، واتسامها بالقيم والعادات والتقاليد

التى تعبـر عن توالى تلك الحـقب . وهـى ـ بشـرياً ـ تحـتـوى مواطنيها ممن قد تمتد جذورهم إلى أصل المدينة ، بالإضـافة إلى أبناء المدن المجـاورة كـرشـيـد ودمنهـور وكـفـر الدوار وغـيـرهـا . وأيضـاً بقـايا الأجـانب مـن أروام وطلاينة وأتراك وإنجليز وفرنسيين وغيرهم . الإسكندرية مدينة تختصر مدناً، والعديد من الحضـارات . أنت تسـير فى شـوارع المدينة ، لا تطأ مـجـرد شـوارع وحـوارى وأزقـة ، لكنك تطأ التاريخ منذ عصـور سـحيقة. بلغ عدد سكان الإسكندرية فى العام المائتين قبل الميلاد ـ مليون نسمة . كانت ثاني مدينة فـى العالم بعد روما . وكان أهلها يتكلمـون العديد من اللغات ، وهـى ـ الآن ـ واحدة من المدن الخمسين الكبرى فى العالم .

●●●

ثمة اجتهادات أن الإسكندر لم يكن مؤسساً للمدينة ، لكنه قـام بتوسـيـعـها ، وتحـصـينهـا ، وتجـميـلها ، لتصـبح ثغراً للإمـبـراطورية التى كان يحلم بإقـامتـها . وبصـرف النظر عن صحة تلك الاجتهادات أو العكس ، فلعله يمكن القول إن بداية الإسكندرية ، المدينة التى نعـرفـهـا الآن ، فى قـرية راقـودة وجزيرة فـاروس وقرى ومـواضـع أخرى ، لكن قـول الإسـكندر

وهو يشير إلى ما حوله : أريد أن أبني هنا عاصمة ملكى ، ذلك القول كان هو البداية الفعلية لتخلق الإسكندرية ٢٠ يناير ٣٣١ ق . م . صارت - فيما بعد - عاصمة البلاد ، وعاصمة العالم الثقافية ، وبلغت - بدمار الطبيعة - حد المحو ، لكنها بعثت من جديد - هذا هو التعبير الذى يحضرنى - وزاد سكانها ، ومساحتها ، وتأثيرها الإيجابى فى الحياة المصرية، والعالم جميعاً . بدا أن كل شيء ينطلق من الإسكندرية ، صارت أكبر عواصم العالم الهيلينى آنذاك ، فضلاً عن قيمتها المتصدرة كملتقى تجارى عالمى . وكما يقول تيودور الصقلى (٥٩ ق . م .) فقد اعتبرها الكثير من الناس أعظم مدن العالم، ووصفها استرابون بأنها «أكبر سوق تجارية على وجه الأرض» . وروى أنها نافست روما بفخامتها ، وثرائها ، وكثرة سكانها .

شهدت الإسكندرية - منذ إنشائها - الكثير من التجديدات والتعديلات والتوسعات ، واجهت ظروفاً طبيعية وسياسية وتاريخية ، لكن بنيتها ظلت متماسكة . قام تخطيط المدينة على شبكة من الشوارع ، تتقاطع بزوايا قائمة ، وفى مراعاة للأحوال الجغرافية وأحوال المناخ . اتجهت بعض الشوارع

ناحية الشمال الجنوبي ، بما يسهل للهواء تلطيف جو المدينة أشهر الصيف ، وشوارع أخرى اتجهت ناحية الشرق / غرب لتسلم من أنواء (نوات) الشتاء ، وثمة شارعان رئيسان ، عظيمان ، تتفرع منهما بقية الشوارع . وكان من معالم الإسكندرية المهمة فنارها الضخم (أحد عجائب الدنيا السبع)، شيد فوق صخرة عند الحد الشرقي لجزيرة فاروس ، تهتدى بضوئه السفن التي تبعد عن الميناء بأكثر من خمسين كيلو متراً .

توالت الهزات الأرضية، فأحدثت في الفنار تأثيرات مدمرة، حتى تحول ـ في عهد السلطان المملوكي قايتباى ـ إلى أطلال متهاوية، فشُيِّدت ـ بأحجاره ـ قلعة حصينة، هي الآن شخصية رئيسة في العديد من كتاباتي الإبداعية .

●●●

البحر السكندري ليس مجرد أمواج وسفن وصيادين، إنه تاريخ وقصص وحكايات. تعدد الانتماءات الأثرية في قاع البحر السكندري، يشي بتعدد الحضارات. ثمة الآثار الفرعونية والرومانية والهيلينية والقبطية والعربية.

وكما أشرنا ، فثمة اجتهادات تذهب إلى أن الموقع الذي شيدت فوقه إسكندرية الإسكندر، كان يضم ثلاثة موانئ

فرعونية، بما يخالف الروايات التى أجمعت على وصل القرية راقودة وميناء فاروس (سكانهما من الصيادين الغلابة) فى مدينة واحدة. كان الموقع يضم ثلاثة موانى فرعونية سابقة لزمن حملة الإسكندر. العالم الأثرى السكندرى فوزى الفخرانى يرى - مستنداً إلى اكتشافات حديثة - أن المنطقة كانت تضم ١٢ قرية أهلة بالسكان . ما فعله مهندسو الإسكندر أنهم أعادوا تنظيمها ، لتصبح مدينة مؤلفة من ١٤ حياً ، بالإضافة إلى أحياء جديدة لليونانيين والمقدونيين ، وأحاط ذلك كله بسور يحمى المدينة الوليدة من الاعتداءات الخارجية . ما أذهل المهندسين ، وأذهل الشاب الطموح نفسه، أن إنشاء الموانئ الفرعونية مثل تحدياً لطبيعة البحر المتوسط . وكما يقول الفخرانى فإن البحر يمتد من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض تدور حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، مما يتسبب فى تيارات بحرية فى نفس اتجاه دورانها ، وهى ظاهرة لا توجد فى البحار الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مثل البحر الأحمر . لاحظ الفراعنة أن السفن تدخل إلى ذلك المكان ، تحتمى من التيارات البحرية ، فاتخذوه ميناء .

●●●

أسير في شوارع الإسكندرية . يلفني الشعور بأنها الطابق الثالث من مدينة موغلة في القدم . إسكندرية الفرعونية ، إسكندرية البطلمية ، إسكندرية الحالية ، العربية .

ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : «مدينتان من مدائن الجنة ، هما من مدائن العدو . وإنهما ستفتحان على أمتي . إحداهما من مدائن الروم يقال لها الإسكندرية ، والأخرى من مدائن الديلم يقال لها قزوين . فمن رابط في إحداهما ليلة واحدة ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله يقول : الإسكندرية وعسقلان عروستان ، والإسكندرية أفضلهما ، وإنها لتأتي يوم القيامة تزف بأهلها إلى بيت المقدس . فمن رابط بالإسكندرية أربعين يوماً ، كتب الله له براءة من النار ، وأمن من العذاب . وخيار أهلها أفضل من خيار غيرها ، وشرار أهلها أفضل من شرار أهلها . وهي مدينة ذي القرنين، مكتوبة في توراة موسى ، وزبور داود ، والإنجيل والفرقان . موصوفة في الكتب . يعرفها أهل العلم باسم الخضراء ، واسمها في الزبور والتوراة المذهّبة ، وفي القرآن مدينة ذي القرنين . يبعث الله منها سبعين ألف شهيد .

وجوههم على صورة القمر ليلة البدر . يعطى كل واحد منهم نوراً على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم لسبعين ألفاً ، فطوبى لمن رابط فيها. وعن نافع بن عمر أنه استمع إلى الرسول يقول : «أحب الرباط إلى الله عز وجل رباط الإسكندرية ، لأنها تزف على الخلائق يوم القيامة فى صورة مدينة نورها يتلألأ ، مكللة بالدر والياقوت ، وذلك بفضل شهدائها».

يصف ابن جبير الإسكندرية في زيارته لها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى : «ما شهدنا بلداً أوسع مسلكاً منه، ولا أعلى مبنى، ولا أعتق». وهى - فى وصف ابن بطوطة - الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا . «وهى - كما وصفها سليم الأول عقب زيارته الأولى لها» - إقليم لا نظير له . «ويصف ابن عبد المنعم الحميرى منار الإسكندرية - قبيل نهاية الألف الأولى من التاريخ الميلادى» : إن من دخله ، ولم يعرف مسالكه ، تاه فيه وضل ، لأن طرفه تؤدى إلى أسفله ، وإلى البحر . وقد قامت جماعة من المغاربة بالدخول إلى المنار وهم راكبون خيولهم

ليروا ما فيه من العجائب والغرائب ، فتاهوا فى الممرات ، وضلوا طريقهم ، وفقد منهم عدد كبير» . وقيل إن أهل الإسكندرية كانوا يوجهون مرآة المنار - بطريقة معينة - بحيث تعكس أشعة الشمس نحو سفن الأعداء ، وهى على بعد عشرات الكيلو مترات من المدينة ، فتحرقها !..

وفى ١٨٦٦م وضع محمود باشا الفلكى أول خريطة للإسكندرية القديمة ، أسفل بنايات الإسكندرية الحديثة . حدد مواقع الأحياء والقنوات وأماكن الآثار الغارقة في الميناء الشرقى (المينا الشرقية) . الإسكندرية القديمة - معابدها وأحياؤها الملكية والوطنية - تحت قاع البحر ، جزء منها يمتد موقع قلعة قايتباى حتى موقع السلسلة بالشاطبى .

●●●

كانت قوة روما العسكرية فى مواجهة مكانة الإسكندرية العلمية وثروتها المادية . والطبيعى أن تطمع روما فى ثروة الإسكندرية ، وأن تخشى الإسكندرية الغزو الاستعمارى لروما . مع ذلك ، فقد بلغت الإسكندرية من الاستقلالية فى عهد الرومان ، حد تسميتها الإسكندرية الملحقة بمصر ، أى القريبة من مصر ، وليست المتصلة بها .

●●●

بعد أن جلت جيوش الروم عن الإسكندرية ، ودخلتها قوات المسلمين ، كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يقول : «أما بعد ، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها . غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بيت ، بها أربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر»..

كانت الإسكندرية هى دار العلم ومقر الحكمة - والتعبير للمقريزى - إلى أن فتحها عمرو بن العاص ، واختط مدينة الفسطاط ، ليبدأ أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم فى سكناها ، وتصبح «قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا».

ومنذ قدمت جيوش الفاطميين من المغرب ، وتحول مصر إلى مقر خلافة لهم ، توثقت صلة الإسكندرية - تحديداً - بالمغرب . أصبح - منذ الفتح - ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، فكثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر عامة ، وإلى الإسكندرية بنحو خاص . كانت المدينة طريقهم من أراضى الحجاز إليها ، وكانت أعداد كبيرة منهم تؤثر البقاء فى المدينة، تجعل منها وطناً تواصل فيه حياتها . وثمة عشرات

الأسماء لمغاربة انتسبوا إلى الإسكندرية ، علماء وتجاراً وحرفيين وقضاة وغيرهم .

كانت المدينة عامرة - نسبياً - ربما أكثر من زماننا الحالى، بالجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والخوانق والربط والحمامات والأسواق .

●●●

ظل للإسكندرية أهميتها فى العصر المملوكى . كانت تمثل أحد مراكز التجارة العابرة أو المارة بين الشرق والغرب ، حيث كانت التجارة تنتقل إلى أوروبا عن طريقين تقليديين : الخليج العربى والبحر الأحمر . وينتهى الفريقان - بواسطة القوافل - إلى الموانئ المصرية أو الشامية المطلة على البحر المتوسط ، لتنتقل إلى أوروبا على سفن إيطالية تابعة لجنوة أو البندقية . وبالطبع ، فقد كانت الإسكندرية من أهم الموانى التى انتقلت منها تجارة الشرق إلى أوروبا . وحين انتقلت الطرق التجارية بين الشرق والغرب من مصر والشام إلى جنوب إفريقيا - بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح - أصيبت الإسكندرية بأضرار اقتصادية هائلة ، بل إن أهمية البحر

المتوسط بعامة تضاءلت كثيراً بالقياس إلى الأهمية المتزايدة التى صارت للمحيط الأطلسى ..

ولم تسلم الإسكندرية من التأثيرات السلبية للعصر العثمانى . انكمشت رقعتها العمرانية ، وبلغ عدد سكانها - فى أعوام الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ آلاف نسمة فقط . ثم بدأت المدينة تطوراً ملموساً منذ عام ١٨٠٧م. اتسعت مساحتها ، وبدأت فى استعادة ما كان لها من مكانة فى البحر المتوسط . ثم تحققت لها مكانة متفوقة بعد حفر ترعة المحمودية فى١٨٢١م. صارت شرياناً رئيساً للمواصلات مع بقية أنحاء مصر ، ومنفذاً للتجارة مع العالم . ثم أضاف إلى تلك المكانة مد خطوط السكك الحديدية فى ١٨٦٥م ، وتعاظم الدور المدنى للإسكندرية بعامة ، حتى أصبحت المدينة الصناعية المصرية الأولى ، فضلاً عن دورها الثقافى المتمثل فى الإصدارات الصحفية والأدبية ، وعشرات المبدعين فى المجالات المختلفة ..

بدأت صناعة دبغ الجلود على أسس حديثة فى الإسكندرية فى ١٨٨٥م، ونمت فى النصف الأول من القرن العشرين . وعندما فكرت شركة باتا فى إنشاء مصنعها

الكبير ، اختارت له منطقة القبارى ، قريباً من المدابغ . أما صناعة السجاير فهى أساسية فى الإسكندرية . ونصف عمال هذه الصناعة يقيمون في المدينة (فى ١٩٤٩م بلغ عدد المصانع بالمدينة ١٨٫١٦٠ مصنعاً ، مجموع عدد عمالها ٩٥٥٨٧ عاملاً) . وبالإضافة إلى أن سوق الترك تخصص فى صنع الأثاث ، فقد كان - ذات يوم - هو خان خليلى الإسكندرية ، ولكن الغلبة دانت للعطارين . وفى أواخر القرن الماضى ، كانت نسبة الصناعة فى الإسكندرية ٤٠٪ من الصناعة المصرية .

ولاشك أنه كان لدخول الطائرة وسيلة انتقال جديدة إلى جانب الباخرة، تأثيره المباشر على مكانة الإسكندرية (أعنى التعبير) لم تعد الإسكندرية هى الميناء الأول كما كان الحال منذ آلاف السنين، منذ استخدم الإنسان البحر طريقاً لأسفاره بين البلدان، بواسطة السفن. صارت الطائرة وسيلة أهم للتنقل، وشيد لها مكان يقصده المسافرون من مصر، والعائدون إليها، فتخلت الإسكندرية عن مكانتها المستقرة، نتيجة تحول ميناؤها - فى مجال نقل الركاب بخاصة - إلى مرتبة تالية. كما تحولت صادرات وواردات كثيرة من ميناء

المدينة، ولم تعد للميديا مكانتها السابقة (أذكرك بأن النسخة الأولى من الأهرام صدرت فى الإسكندرية)، ومثلت حرب ١٩٥٦م، وما تبعها من خروج الجاليات الأجنبية ، إلى تخلى الإسكندرية عن صفتها كمدينة كوزموباليتينية، وهو ما انعكس فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية، مثل الشاطئ الآخر، زمان الوصل، أهل البحر، وغيرها.

وعلى الرغم من تعدد المطارات والموانى البحرية ، فإن أكثر من ٩٥٪ من تجارة مصر مع الخارج تخرج من الإسكندرية ، وتدخل منها ..

●●●

بلغ عدد سكان الإسكندرية - فى إحصاءات علماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م - ثمانية آلاف نسمة فقط . وكانت المدينة - كما وصفها علماء الحملة - ملئى بالمناطق الخربة ، بينما كان عدد سكان رشيد فى العام نفسه حوالى مائة ألف نسمة. وقد تناقص عدد سكان المدينة عند رحيل الحملة عن البلاد إلى ثمانية آلاف فقط ، لم يكونوا جميعاً من الوطنيين ، وإنما كانت هناك جاليات من المغاربة والسوريين والأروام واليهود . وفى ١٨٢٠م تم حفر قناة المحمودية ، فبدأ ميلاد

الإسكندرية من جديد . كانت - قبل ذلك - محصورة بين الميناءين الشرقية والغربية ، ويقتصر عمل غالبية السكان على الصيد . كان النمو العمراني هو الظاهرة الأساسية بعد إنشاء ترعة المحمودية ، فقد بنيت أرصفة الميناء الغربية ما بين سنتى ١٨٢٨م و١٨٣٣م، واقتصر نشاط المدينة البحرى عليها ، بينما بطل استخدام المينا الشرقية . كما أنشئت الترسانة البحرية، ووفرت قناة المحمودية للسكان مياه الشرب من النيل، وأتاحت زراعة مساحات من الحقول والحدائق على جانبى الترعة . وكما يقول كراوتشلى فمن المؤكد أن النمو التجارى لمصر كان سيعوق ويختنق لولا قناة المحمودية وميناء الإسكندرية (التصنيع والعمران١٠٦).

فى يناير ١٨٩٠ صدر مرسوم (تعدّل فى ١٩٣٥ بتشكيل مجلس بلدى الإسكندرية ، ليضطلع بأعباء تخطيط المدينة ، وتنظيمها ، ورفع مستواها الإدارى والمدنى والصحى والاجتماعي . واللافت أنه لم ينشأ مجلس مماثل فى القاهرة إلاّ فى ١٩٥١م ، أى بعد إنشاء مجلس بلدية الإسكندرية بإحدى وستين عاماً .

كانت المياه تصل إلى ميدان المنشية ، وكانت تغطى

موضع تمثال الجندى المجهول . وفى الفترة من ١٩٠٩م إلى ١٩١٢م أنشئ كورنيش من رأس التين إلى السلسلة . وفى ١٩٢٠م بدأ استكمال الكورنيش من السلسلة إلى المنتزة . وفى ١٩٣٣م تم بناء الكورنيش ، وبدأ انقلاب عمرانى واجتماعي . فقد زحف السكان بمبانيهم نحو البحر بعد أن كانوا يتحاشونه ، وارتفعت أسعار الأراضى المتاخمة للشاطئ إلى حد كبير . وبالطبع فإن البيوت على طريق الكورنيش تحمل أرقاماً فردية وزوجية ، لأن الجانب المقابل هو البحر ..

●●●

ظلت الإسكندرية أكثر المدن المصرية استجابة للمؤثرات التركية التى لم تزل بصماتها ظاهرة حتى الآن . أما اليهود ، فقد ظلوا - إلى قيام دولة إسرائيل فى ١٩٤٨م - أهم الجاليات فى الإسكندرية سواء من حيث العدد ، أو تميزهم فى مجالات الصناعة وتجارة القطن . وأما اليونانيون فقد كان معظم نشاطهم يتجه إلى محال البقالة والحلوى والمقاهى والحانات ، وشراء الأراضى الزراعية من خلال التعامل بالربا . وبالنسبة للإيطاليين فقد كانوا يمارسون أنشطة تجارية وصناعية مختلفة . وكان الدكتور مردروس - الطبيب

الذى كـان يسكن الطابق الأول فى بيـتنا ـ والأرمن الذين أقاموا فى مصر عموماً ، من الناجين من مذابح الأتراك فى بداية القرن العشرين . حتى الألمان كان لهم جالية فى المدينة. وكان رودلف هيس ـ نائب هتلر ـ من مواليد الإسكندرية ..

وتقول الإحصاءات إن عدد الأجانب فى الإسكندرية بلغ ـ عام ١٩٠٧م ـ ٨٦٣٩٤ من مجموع سكانها البالغ ٣٥٣٨٠٧ . أما إحصاءات ١٩١٧ فقد أثبتت أن تعداد سكان الإسكندرية بلغ ٤٥٠ ألف نسمة ، سدسهم من الأجانب : يونانيون وإيطاليون وانجليز وأرمن ، فضلاً عن الشوام . وبلغ عدد الأجانب فى ١٩٢٧م ـ ٩٩٦٠٥ من مجموع عدد السكان البالغ ٥٧٣٠٦٣ . وكان عدد الأجانب فى الإسكندرية يمثل ٦٠٪ تقريباً إلى عددهم فى مصر كلها ..

صاحب تزايد أعداد الأوروبيين فى الإسكندرية ، تغير واضح فى العادات والتقاليد وسلوكيات الحياة اليومية ، انتقلت المدينة ـ على سبيل المثال ـ من التأثر بالعمارة التركية، إلى الأخذ بالأنساق المعمارية الأوروبية بواسطة المهندسين المعماريين الذين استقدمهم محمد على لبناء الشوارع والميادين والأسواق والبنايات التى تشكل مصر التى كان

يريدها . وفى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت الإسكندرية ـ على حد تعبير محمد عوض محمد ـ مدينة نصف أوروبية ، تضاهى ميادينها مثيلاتها من المدن الفرنسية. وامتد التمايز المعمارى إلى الكنائس المتعددة للأقباط الأرثوذكس واليونان الأرثوذكس والموارنة والبروتستانت والروم الكاثوليك ، وغيرها . لكن الإسكندرية تدين بالملامح العصرية للخديو إسماعيل ، بداية من ترميم الأسوار القديمة ، ونهاية بإنشاء الأحياء الجديدة الراقية ، مروراً بالميناء الجديد ، وعمليات التجميل والتشييد والتحديث.

●●●

روايتى «الشاطئ الآخر» تعرض للفترة المفصلية التى تخلت فيها الإسكندرية عن هويتها الكوزموباليتينية . استردت ـ بعودة آلاف الأجانب إلى البلاد التى قدموا منها ـ هويتها الوطنية . أدركت الأم اليونانية أن تصور انتمائها المصرى هو تصور غير صحيح (أذكرك بالمرأة الأخرى ، الفرنسية ، فى قصتى القصيرة الأكسر) وأن العودة إلى وطنها الحقيقى هو ما ينبغى أن تفعله . أقدم على التصرف نفسه عشرات الألوف من أبناء الجاليات الأوروبية ، وجدوا فى تطورات الأحداث ما

يحض على فعل المغادرة . لم يعد في المدينة - إلا نادراً - شخصيات مثل جوستين وكليا وبلثازار وميليسا. غابت الإسكندرية الكوزموباليتينية . حلت محلها ، أو عادت ، الإسكندرية الوطنية ، قوامها الصيادون والبحارة وعمال الميناء وأبناء الطبقة الوسطى ، وغيرهم .

فرضت العربية نفسها لغة وحيدة أو تكاد ، في الرسائل والمخاطبات العادية ، ووجدت اللافتات المكتوبة بالعربية موضعاً بين اللافتات المكتوبة بالفرنسية والإنجليزية .

ظني أنه لو أن أبي ظل على قيد الحياة حتى عام ١٩٥٦م وما بعده ، فإن ظروف عمله كانت ستتأثر إلى حد كبير . كانت مكتبة أبي تضم كتباً بلغات لا أفهمها . عرفت أنها الإيطالية والألمانية واليونانية والتركية ، يتشكل عمله في الترجمة من لغة إلى أخرى . ذلك ما كان يفرضه الواقع الاقتصادي آنذاك . وكان من البديهي - في اقتصار لغة المعاملات على الفرنسية والإنجليزية - بالإضافة إلى العربية - أن يتحدد مجال عمل أبي بالتالي في هذا المجال الضيق .

●●●

ثمة أغنيات تستثير وجداني، فيغيم الدمع في عيني

للائكية صوت فيروز وهي تغنى لشط الإسكندرية ، وأغنية محمد قنديل عن عشق العين لأهل الإسكندرية ، وهتاف على الحجار: مدد يا مرسى .. ألحق لى كرسى . أغنيات تحرك مشاعرى ، تعيدنى إلى البحر والشاطئ والناس والجوامع وحلقات الذكر والجلوات وسوق العيد وزحام شارع الميدان ورحلات السمان والبلانسات والأمطار وتصريف المياه فى جوانب الشوارع والفريسكا والذرة المشوى وصيد العصارى والجرافة والطراحة والسنارة .

إذا كان المكان يغيب برحيلنا عنه، فإننا نستعيده بالحنين. أتأمل الأمطار - من وراء زجاج النافذة - وهى تسقط على القاهرة. ينقلنى الحنين إلى الإسكندرية. أستعيد مشهد الأمطار المتساقطة على شوارع الإسكندرية. الأغنية التى كنا نرددها فى سنى الطفولة: يا مطرة رخّى رخّى.. على قرعة بنت اختى. للشتاء فى الإسكندرية - ولأوقات المطر بخاصة - طبيعة مغايرة..

الأمطار تغسل الإسكندرية أشهر الشتاء، ما بين أولى النوات وآخرها، «نيولوك» تعده لاستقبال الصيف ، ولاستقبال زوارها بخاصة .

فى الشتاء ، وربما منذ الخريف ، تقتصر الإسكندرية على أبنائها ، يعيدون التعرف إلى الأماكن التى كان يخنقها الزحام . لم تمثل الحياة على الشاطئ ـ أشهر الصيف ـ إغراء من أى نوع . أكتفى بالجلوس تحت المظلة ، والتطلع إلى الأفق .

●●●

قلت لأبى ـ ذات عصر ـ أثناء متابعتنا لعملية صيد المياس:

ـ ماذا فى الشاطئ الآخر ؟

ـ أى شاطئ ؟

ـ الضفة المقابلة لهذا البحر ؟

ـ إيطاليا واليونان وفرنسا وتونس والجزائر وبلاد أخرى كثيرة تطل عليه .

ـ هل تختلف عن الإسكندرية ؟

ـ لها مدن على الساحل مثل الإسكندرية ، لكنها تختلف فى أشياء كثيرة .

قاطعنى قبل أن أسترسل فى الأسئلة :

ـ عندما تكبر ، سيتاح لك زيارة كل تلك البلاد ، وتعرف الفرق بنفسك !

الإسكندرية : البحر والبشر والأسواق والشوارع والعادات والتقاليد ، نبض الكثير من اللوحات لفنانين مصريين وعالميين ، هى كذلك نبض الكثير من الأعمال الروائية والقصصية وقصائد الشعراء لمبدعين من أبنائها ، ومن الوافدين إليها . فرض المكان السكندرى نفسه ، بطلاً ، وسيداً ، ومسيطراً . أذكر من الأدباء الأجانب الذين عاشوا فى الإسكندرية ، وحققوا شهرة عالمية : لورنس داريل الأيرلندى ، وأونجريتى الإيطالى ، وأ . إم . فورستر ، وكفافيس اليونانى ، وفشتر السويسرى ، وهنرى تويل الفرنسى ، وغيرهم ..

الإسكندرية ليست مجرد مدينة ساحلية ، ليست مجرد بحر وشاطئ وميناء . إنها حياة متفردة لا تماثلها مدينة أخرى تطل على البحر ، ولها شواطئها وميناؤها ، أبواب مفتوحة على البحر . أنت تجد التفرد فى عبق الروحانية ، وفى احتضان البحر للمدينة بما يشكل منها حدوة حصان، أو شبه جزيرة ، وفى المعتقدات والعادات والسلوكيات التى تسم مظاهر الحياة بالمغايرة والاختلاف ..

الحنين إلى بحرى

«ليس بلد بأحق بك من بلد ، خير البلاد ما حملك»

الإمام علي بن أبي طالب ..

حين خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة ، تطلع إلى البيت الحرام بنظرات حب ، ثم قال مخاطباً مدينته المقدسة : " والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت " . وفى الحديث الشريف " الخروج من الوطن عقوبة " . وقال عمر بن الخطاب " لولا حب الوطن لخرب البلد السوء " . وروى الدينورى عن الأصمعى قوله : قالت الهند : ثلاث خصال فى ثلاثة أصناف من الحيوان .. الإبل تحن إلى

أوطانها وإن كان عهدها بعيداً .. والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدباً .. وإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً . وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : إذا أردت أن تعرف الرجل ، فانظر كيف تحنّنه إلى أوطانه وتشوقه إلى أخوانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه . وقال الشاعر العربي لمحبوبته : " سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا " . والمثل يقول : " لا يعرف القرب إلاّ من ابتعد " . وثمة العديد من الكتب التي جعلت الوطن محوراً لها : حنين الإبل إلى الأوطان لربيعة البصري ، حب الوطن ، والحنين إلى الأوطان للجاحظ ، الشوق إلى الأوطان للسجستاني ، حب الأوطان لأبي الفضل أحمد بن طاهر ، الحنين إلى الأوطان للكسروي ، الحنين إلى الأوطان لابن إسحاق الوشاء ، أدب الغرباء للأصفهاني ، المناهل والأعطاف والحنين إلى الأوطان للرامهرمزي ، الحنين إلى الأوطان للتوحيدي ، النزوع إلى الأوطان للسمعاني ، وغيرها ..

●●●

لفيكتور هوجو مقولة طريفة : «عندما كنت صغيراً ، تمنيت أن أكون كبيراً ، فلما كبرت عاودني الحنين إلى شبابي» .

ويروى عباس خضر في ذكرياته أنه رأى شاباً فى قطار الصعيد يبكي . سأله :

ـ مالك ؟..

ـ الغربة !..

ـ أية غربة ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟..

ـ إلى أسيوط . نقلونى إلى أسيوط . منهم لله ! ..

ويقول الشاعر الإنجليزى وليام وردورث «الطفل أبو الرجل» ، أى أن فترة الطفولة تترك تأثيرات فى فترات عمر الإنسان التالية ، لا تفارقه ، وتظل مخزوناً يفيد منه إذا كان مبدعاً . وفى رائعته القصيرة «على من يقع اللوم» يعتذر بلزاك عن الإسهاب الذى تناول به معالم الشارع الذى تدور فيه أحداث القصة ، فقد كان الحنين إلى الشارع الذى شهد طفولة بلزاك هو الدافع لكل ذلك الإسهاب . المكان الذى أمضى فيه المرء طفولته ـ والقول لبرجسون ـ هو الفردوس المفقود ، وهو يظل فى حياة صاحبه كأنه ماسة فى عنق الأبدية . وقد تتعدد الأماكن التى يقيم فيها الإنسان ، ولكن يظل لمكان الطفولة تفرّده ، وسمته الخاص ، وحميميته المطلقة. ويقول فوكنر: «أستطيع أن أكتب عن قريتى وأنا

خارجها دون توقف على الإطلاق» . وحين سئل جابرييل جارثيا ماركيث : لماذا لا تعيش في وطنك كولومبيا ؟.. أجاب: من قال إني لا أعيش في كولومبيا ؟.. لقد غادرت الوطن ، لكنني مازلت أحيا في كولومبيا ! . بل إن ماركيث يؤكد - في بساطة - إن مائة عام من العزلة ، وخريف البطريرك ، وقصة موت معلن ، والحب في زمن الكوليرا «جميعها جاءت من الحنين» . وكان باعث الرواية الأولى لإيزابيل الليندى بيت الأرواح هو الحنين «الرغبة في استعادة العالم الذى فقدته بعد أن اضطررت لمغادرة وطنى والعيش في المنفى» . وكما يقول ميشيل بوتور ، فعندما يكون المرء بعيداً عن وطنه ، وقد أسرته الأماكن التى كان يحلم بها ، فإنه يحلم بوطنه ، ويشعر بحنين إليه ، ويظهر له بألوان الطيف . ولعلنا نتبين التأثير الإيجابي للحنين إلى المكان ، إلى الموطن والوطن والنشأة ، في إبداع جوجول روايته " النفوس الميتة " فترة إقامته في روما ، وإبداع تورجنيف كل رواياته وهو بعيد عن الوطن ، وإبداع ديستويفسكي أجمل رواياته في مدينة دريسدن . ولعلى لا أجد مبالغة في قول باسترناك - تعبيراً عن الحنين - أنه موجود فى الحياة فقط ، لأنه يأمل برؤية أهله وإخوته الذين هاجروا إلى المنفى ، حتى لقد سمى نفسه

«عضو العائلة بالمراسلة» .

●●●

الحنين إلى الماضى ، إلى الزمان والمكان ، تكوين أساس في طبيعة الإنسان المصرى ، في شخصيته . وتعد قصة سنوحى أول عمل إبداعى عن الحنين إلى الوطن . سنوحى الوزير الأول للفرعون . فر من تهمة ظالمة إلى أرض الشام . تواصلت أيامه هناك في هناءة وسعادة . وكانت الصحراء الشاسعة تردد أغنياته وقصائده وأنغامه العذبة ، حتى وصل صداها إلى شواطئ النيل ، ورددها المصريون فى كل أنحاء الوادى ، لقرون خمسة متوالية . لكن سنوحى ظل على حنينه إلى وطنه وحبيبته تيكاهيت ، يغنى لها الألحان الجميلة على قيثارته ونايه : «أيها الإله العظيم ، يا من أمرتنى بالهروب ، وحميتنى بالغربة . كن رحيماً ، وأعدنى ثانية إلى قصر الملك لأرى المكان الذى يسكن فيه قلبى ، وأن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ، وخرجت منها ، وبقرب من أحببت». وظل سنوحى على حنينه وأمله فى العودة إلى وطنه ، حتى عفا عنه الفرعون سنوسرت ، بعد أن تأكد أن فرار سنوحى من وطنه لم يكن إلاّ للخوف على

حياته من التآمر .

●●●

أثق أن «الحنين» كان هو الباعث لكتابة محمد حسين هيكل روايته زينب ، والأعمال الأولى للحكيم . النظر إلى الوطن من بعيد ، كالنظر إلى الماضى تماماً ، ينبض بالحنين، يتطلع بالمنظار الوردى ، يهمل السلبيات فلا يشغل الصورة إلاّ كل ما هو رائع ومشرق وجميل . وربما التمع الدمع فى العينين لحديث عابر ، وانثالت عشرات الصور والذكريات ..

لو أن محمد حسين هيكل ظل فى مصر ، ولم يسافر إلى باريس للدراسة ، هل كان يكتب روايته الرائدة زينب ؟ .. ولو أن توفيق الحكيم تقدم لنيل الماجستير ، فالدكتوراه ، فى مصر ، ولم يحاول الحصول عليهما فى السوربون ، هل كان يهمل الهدف الذى سافر من أجله ، ويكتب - فى شبه تفرغ - عودة الروح وعصفور من الشرق وزهرة العمر ؟..

زينب - كما يقول هيكل - «ثمرة حنين للوطن وما فيه ، صورها قلم مقيم فى باريس ، مملوء - مع حنينه لمصر - إعجاباً بباريس ، وبالأدب الفرنسى» . ويقول هيكل فى تقديمه للرواية إنه «لولا هذا الحنين ، ما خطّ قلمى فيها حرفاً، ولا

رأت هى نور الوجـود» . اخـتلط فى نفـسـه الولع بالأدب الفرنسي بحنينه العظيم إلى مصـر . وكان من ذلك ـ على حد تعبيره ـ أن همّ بتـصـوير مـا في نفسـه من ذكريات لأمـاكن وحـوادث مـصـرية . ويذكـر أنه بدأ في كـتـابتـهـا بالعـاصـمـة الفرنسية فى إبريل ١٩١٠م، وفرغ منها فى مـارس ١٩١١م ، وإن كـتب أجـزاء منهـا فى لندن وفى جنيف أثناء الإجـازة الصـيفـية . ثم دفع بـهـا إلى المطبـعـة فى ١٩١٢م. أما توفـيق الحكيم فـهو يتسـاءل : «هل من الشـعور الطبيـعى للإنسـان أن يتـوهـج فيـه الحنين لوطنه كلمـا زاد بعـده ؟.. كل الذى أعرفـه أننى لم أعش داخل بلدى بحـرارة وقـوة وحب للوطن مـثلمـا عـشت فى الوقت الذى كنت فـيـه بعـيـداً . هناك فـى باريس ، حـوالى سنة ٣٦ ـ ١٩٣٧م ، أدى بى التـفكيـر إلى اسـتـعـادة أعنف ما مر بى منذ ثمانى سنوات ، أى فكرت فى ثورة مصر سنة ١٩١٩م ، عادت إلىّ وأنا فى الغربة بكل عنف مشاعرها، بكل مـا فـيـهـا من ذكـريات ، بـكل مـا حـاطهـا من ظروف ومـلابسـات . وفى الغربة ـ حيث يصـبح كل شئ مـجـسّـمـاً والمشـاعر أشـد احـتدامـاً ، والحنين فى أعلى درجـة حـرارة ـ هناك بدأت أجسّد هذه المشاعر الوطنية تجسيداً فنياً واقعياً .

وكان هذا هو مبدأ عملى فى عودة الروح ، حمل الحكيم مصر معه إلى باريس ، وكتب فيها عودة الروح التى تعبر ـ رغم تقضى الأعوام ـ عملاً طازجاً وجيداً ، وإن أدار فيها حواراً مصطنعاً بين إنجليزى وفرنسى ، أكد فيه عظمة هذه المعشوقة الغالية ، البعيدة : مصر !. ويتحدث يحيى حقى عن الأعوام التى أمضاها فى السلك السياسى المصرى خارج البلاد : «لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها . كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم» . ومع أن الكاتبة المصرية المولد والنشأة أندريه شديد قد استوطنت فرنسا منذ سنوات ، فإن الحياة المصرية هى نبض غالبية أعمالها ، يدفعها ـ باعترافها ـ ذلك الحنين الشاعرى نحو بيئتها الأولى وناسها الأصليين!..

●●●

الإحساس بالغربة بعيداً عن الوطن ، والحنين ـ فى المقابل ـ إلى الوطن ، ينطلقان من الأمثال الشعبية «الغريب أعمى ولو كان بصير» .. «من خرج من داره اتقل مقداره » .. «الغربة طربة تقل بالأصول» .. «البطيخة ما تكبرش إلا فى لبشتها»

إلخ .. فإذا أثير حديث الرحيل ، قال المثل : «رب هنا رب هناك» ..

اللافت أن معظم الأعمال الإبداعية تصدر عن حنين إلى الزمان أو المكان ، أو إليهما معاً . وإذا راجعت معظم ما كتبت من إبداعات ، فإنها محاولة للسير فوق ذلك الجسر المسمّى الحنين إلى عوالم مكانية وزمانية ..

الحنين إلى المكان حالة يسميها علماء النفس «النوستالجيا» ، بمعنى الافتقاد ، أو الحنين . وكان الشعراء العرب القدامى يكررون ذكر أسماء الأماكن في قصائدهم ، كأنها أسماء من يحبونهم . أذكرك ببيت الشعر القائل :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

الحبيب والمنزل فى بيت شعرى واحد ، لحظة حنين واحدة.

تبدو الشوارع والميادين والحدائق والأبواب أضيق مما تعيه ذاكرتى . أقف أمام البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى . أشعر أنى كنت هنا من قبل ، وأن صداقتى قديمة لهذه البناية . كنت أجلس - فى المدخل - على دكة عم أحمد البواب (كيف كانت هذه المساحة الضيقة تسعنى ؟!) . أصعد

السلالم إلى الطابق الثالث ، أنظر من النوافذ ما بين الطوابق إلى الشارع الخلفى ، أو إلى مئذنة سيدى على تمراز، أدخل الشقة ذات الصالة والحجرات الثلاث ، تطل واجهتها على شارع إسماعيل صبرى ، وتطل ـ من ناحية ـ على شارع فرنسا وشارع رأس التين ، ومن الشرفة الخلفية على ميدان الخمس فوانيس وشارع رأس التين ، يلتقى الميدان بشارع الأباصيرى المفضى إلى ميدان أبى العباس ، وشارع محمد كريم (التتويج) ، ويتجه الشارع ـ من ناحية ـ إلى شارع سراى محسن باشا ، ومنه إلى الكنانى والموازينى ، ومن ناحية ثانية إلى الموازينى والحجارى والمسافرخانة وأبو وردة، وباب الجمرك رقم واحد . .

لا أذكر من كلام أبى عن ساكن الطابق الأول ـ يمين السلم ـ الطبيب الأرمنى مردروس ، أنه كان يعالج نوعاً محدداً من الأمراض ، مرضاه ما بين الأطفال والشيوخ ، إذا مرض أحدنا فإنه يتردد على مردروس ، بصرف النظر إلى سنه . ثم عاد الطبيب الأرمنى إلى بلاده أرمينيا قبل أن أبلغ العاشرة . حاولت أن أخمن البواعث فى روايتى «صيد العصارى»، حصلت أرمينيا على استقلالها ، فعاد المهاجرون

من مدن الشتات إلى بلادهم . استأجرت شقة الطابق الأول أسرة مصطفى أفندى (لا أذكر بقية الاسم) ، وكان موظفاً بديوان محافظة الإسكندرية . ظنى أنه كان وثيق الصلة بأصوله الريفية ، ذلك ما لاحظته فى الزيارات المتوالية لرجال ونساء يرتدون ثياباً ريفية ، ويحملون الأقفاص والقفف . بدأت صداقة أبى ومصطفى أفندى منذ هبط الجار الجديد إلى قهوة المهدى اللبان أسفل البيت ، موقف يشابه نشوء العلاقة بين عبد الله الكاشف فى روايتى «البوصيرى» (رباعية بحرى) وجلساء القهوة . وعرفت ـ بعد وفاة أبى ـ أنه كان يخص جاره وصديقه بأسرار شخصية للغاية . الشقة المقابلة لأسرة الأستاذ سليمان الموظف المهم فى مصلحة البريد (لجأ أبى إليه فى مرات كثيرة ، كى يرسل طروداً إلى عمتى وعمى فى القاهرة ، بنظام «من الباب إلى الباب» ، وهو خدمة بريدية مهمة ، (ألغيت لأسباب غير مفهومة ، وإن سهل فهمها فى السياق المجتمعى العام)! ، وكان الرجل أباً لأربع بنات ، اثنتان تكبراننى فى السن ، واثنتان أصغر منى ، وإن لم تفرق مناوشة هواجس البلوغ فى نفسى بين بنت وأخرى . رحلت أسرة عبده فرج الصبروتى من الشقة المجاورة للسلم ،

إلى شقة فى شارع سيدى منصور خلف فرن حبيب ، ثم رحلت إلى شقة فى شارع الميدان . كان رب الأسرة مقاولاً وتاجراً فى العقارات ، يسكن فى شقة بآخر البنايات التى يشيدها ، ثم ينتقل إلى شقة فى بناية حديثة أخرى ، وهكذا . شقة الصبروتى فى شارع سيدى منصور هى المكان البطل فى روايتى «زمان الوصل» . سكن الشقة أستاذ بكلية الطب اسمه النجار ، لم يكن لديه أبناء ، وكانت زوجه التى تصغره بسنوات منطوية على نفسها ، بعكس شقيقته التى كانت تماثلها فى السن ، لكنها كانت تملك جرأة وقدرة على الاقتحام ، تشجعت ـ بتحريض معلن ـ فحاولت تقبيلها ، وأرجعت تملصها إلى مشروعاتى الجنسية الفاشلة ، الكثيرة . أذكر أن النجار هو الذى تابع الحالة الصحية لأمى بعد أن اشتد عليها مرض القلب ، وهو الذى أنبأ أبى بقرب رحيل أمى ، فلا بأس من أن تشرب كمية الماء التى تطلبها . الشقة المقابلة فى الطابق نفسه ، أشرت إليها فى سيرتى الذاتية الروائية «مد الموج» . أسرة يهودية عزلت نفسها فى «جيتو» حتى فوجئ سكان البيت بخلو الشقة (عرفنا ـ فيما بعد ـ أن

الأسرة رحلت إلى فلسطين) . حلت فى الشقة أسرة أخرى مسلمة ، سيدة وابنان وثلاث بنات ، مثلت صغراهن فى مراهقتى حلماً رومانسياً جميلاً ، أجهضته سذاجتى ، وعبث أصدقاء صباى ، وهو ما شكل لوحة فى «مد الموج» .

لم أتصور أن فى حياة أسرة عم سيد (الطابق الرابع) ما يجاوز المألوف ، أسرة من ولد وابنتين ، تماماً مثل أسر أخرى كثيرة ، فى البيت ، وفى الدنيا كلها . الزمن هو ما لم أفطن إليه فى تلك الأعوام الباكرة من طفولتى ، انتقال عمر المرء - رجل أو امرأة - من الطفولة إلى الصبا ، فالشباب ، فالكهولة ، فالشيخوخة . وكان عم سيد شيخ الأسرة ، وإن اقترب أبناؤه من التسمية بوقوفهم على حافة غروب الكهولة . أزمع الابن الأكبر أن يرجئ زواجه ، حتى تتزوج أختاه ، لكن الأعوام توالت دون أن يطرق الباب خاطب . وتبينت الأسرة - عادة الزمن ! - أن سن الزواج قد فات ، ربما ليس للابن الذى قارب المعاش ، فالرجل - فى بلادنا - يجد الزوجة الصالحة - والتى قد تصغره بعشرات السنين - فى كل الأحيان . أما المرأة التى تجاوز الثلاثين ، فإنها قد توافق على الزواج من أرمل ، له أبناء ، أو عجوز مأربه الأهم

فيها أن تمرضه ، وتحسن رعايته ، حتى تأتي اللحظة التى تغمض فيها عينيه !

اتجه أبي بابتسامته إلى الناحية المقابلة ، حين فسر عم أحمد البواب عزوف الابن الأكبر بسبب غير انتظار زواج الأختين ، عشقته جنية - يرى عم أحمد طيفها الليلى - ومنعته من الزواج !.

فسر لنا أبي - فيما بعد - رواية عم أحمد، بأن الرجل ضاق بتقتير الأسرة، فهي تكتفي بالأجر الشهرى الذى يتقاضاه من صاحب البيت!

أستعيد الآن ظروف الأسرة: هل أثر عدم اجتماعية الابن الموظف بمصلحة الجمارك على مصير الأختين، فلم يزره أحد، يطالع ما يدعوه إلى طلب قراءة الفاتحة؟

ما أذكره أن أولاد البيت وبناته كانوا هم زوار الشقة ، يجدون ترحيباً من الأختين ، يشمل مشاركتهم اللعب ، وترديد الموروث من أغنيات الطفولة ، وتقديم العصائر الباردة من الثلاجة الخشبية .

كان قدوم الطبيب الأرمنى إلى عيادته في الطابق الأول يعنى انصرافنا إلى حيث ألفت . لا أذكر أن أسرة عم سيد

شهدت من الأحداث ما يستدعى إنهاء إقامتنا شبه الدائمة فى الشقة . كانت أسرة منطوية على نفسها بامتياز . لعل هذا هو السبب فى إقامة العنوسة داخل الشقة ، تأكل وتشرب وتنام ، وتحرص على إغلاق الباب والنوافذ والشرفات !

أذكر أن المشكلة نفسها ناقشها أبى وأمى فى دردشاتهما، عن شقة الدخاخنى المقابلة : الزوجين وأبنائهما الثلاثة ، شاب وفتاتين . كانت أمى تهمس بإشفاقها من الزمن الذى يكاد يمضى بعيداً ، فلا تلحق البنتان سن الزواج . ماتت أمى ، ثم مات أبى ، وانتقلت أسرة الدخاخنى - بعد وفاة الأبوين - إلى القاهرة (فى روايتى «زمان الوصل» تأملت ما تصير إليه حياتنا بفعل الزمن) ! ، وعرفت - من أصدقاء - أن البنتين قد تزوجتا ، بعد أن جاوزتا - فى تقديرى - سن الإنجاب !

●●●

ظنى أن موقع البيت - ٥٤ شارع إسماعيل صبرى - كان له دوره المهم فى تخلق وعيى بصورة طيبة، قربه من أبو العباس، وامتداده إلى المنشية ومحطة الرمل وأحياء المدينة الأخرى، أتاح للجلوات أن تخترقه من شارع الأباصيرى، كما كانت المظاهرات السياسية ومواكب المسئولين القادمة من باب

الجمرك رقم واحد تأتى من شارع أبو وردة ، أو شارع رأس التين.

تابعت ـ من شرفة البيت ـ مواكب العودة من أوروبا لمصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين وغيرهما من القادة السياسيين، وأشرت فى روايتى «النظر إلى أسفل» إلى حشود المتظاهرين القادمة من ناحية الجمرك (لا أذكر نقطة البداية على وجه التحديد) تلاقت سواعدهم ، وانتظمت خطواتهم، وعلت أصواتهم بنشيد سيد درويش: بلادى، بلادى، فداك دمى. كما شاهدت انسحاب القوات الإنجليزية من ثكناتها فى رأس التين إلى ثكنات مصطفى باشا (مصطفى كامل) ومنها إلى منطقة القناة. اجتذبتنى حوارات أبى وأصدقائه حول صورة الحياة السياسية فى العالم بعامة، والحياة السياسية فى مصر بخاصة، ومثلت إضافة مهمة لوعى صبى يتشكل بالدهشة والأسئلة والبحث عن المعانى الصحيحة.

●●●

كان الشارع الخلفى، الواصل بين البيت وجامع على تمراز، هادئاً فى معظم أوقات اليوم، لا يصخب إلا عندما

نتخذه ملعباً للكرة (كاوتش أو شراب) أو نجرى فيه سباقات العدو (تقتلنى الحسرة لأنى تخليت عن عادتى فى الفوز بالمركز الأول!). ولم تكن صلتى بالشارع مقصورة على اللعب. كنت أتردد على صديقى الصنايعى فى دكان الترزى أسفل بيتنا، نتبادل القراءات، ونطرح الأسئلة، ونتناقش. وأغرانى هدوء ليل الشارع على ارتكاب حماقات ساذجة، استدعيتها فى «رباعية بحرى».

وفى أيام الأعياد وصلاة الجمعة، كانت الحصر تمتد من الميدان إلى الشوارع الجانبية، والشارع الخلفى من بينها، ثم يعود - بعد أداء الصلاة - إلى هدوئه. ورغم أنه كان متصلاً بشوارع كثيرة، فإن الهدوء ظل ميسماً له حتى تركت الإسكندرية. وفى زياراتى إلى بحرى، لاحظت أن أجيال الحفدة لم تعد تلعب - لا أعرف السبب - فى الشارع الخلفى.

مثّلت وقفة البيت المتفردة بين أربعة شوارع (إسماعيل صبرى ورأس التين وفرنسا والشارع الخلفى)، فضلاً عن إطلالة السطح على شبه جزيرة بحرى، معلماً لا تخطئه العين، ولا تخطئه الملاحظات كذلك، فهو البيت الواقف بمفرده. وظل الموقع الجميل مبعث اعتزازنا، حتى فوجئنا - ذات صباح -

بالبدء فى إزالة مجيرة عم عباس المجاورة (هى المجيرة التى شهدت فى رباعية بحرى علاقة جسدية بين أنسية والشيخ حماد) ووضع أساسات بناية جيدة، ما لبثت أن علت حتى جاوزت بيتنا فى ارتفاعه.

●●●

عندما أكون خارج مصر ، فإن الحنين يدفعنى إلى استحضار الملامح المألوفة ، واللهجة ، إلى الحياة فيها ومعها، تذكّر التفصيلات الصغيرة ، والتافهة . ضغطة الزر فى اللهجات المصرية ، وصوت الناى ، وتلاوة محمد رفعت وأبو العينين شعيشع ، وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وبدارة وعزت عوض الله ، ورقصات سيد حلال عليه ، ولوحات محمود سعيد ، وروايات نجيب محفوظ ، وقراءات فاروق شوشة فى الإذاعة ، والأفلام المصرية فى التليفزيون . وثمة الإسكندرية . إنها ـ عندى ـ ليست مطلقة ، بل تتحدد فى ذكريات شخصية وأماكن وبشر . بالتحديد حى بحرى ، ناسه ومساجده وميادينه وأسواقه وشوارعه وأزقته وتميز الحياة فيه . الإسكندرية فى داخلى أينما ذهبت ، وإن كنت أنتمى ـ بمشاعرى وذكرياتى ـ إلى بحرى ، إلى تلك المنطقة

التى تبدأ من ميدان المنشية ، وتنتهى فى سراى رأس التين ، أو العكس. أشـرت فى «مـد المـوج» إلى النسـائم المحملة بروائح الملح واليود والأعشاب والطحالب ، تلامس أنفى فى مكان ما، فى لحظة ما ، على شاطئ الأطلسى، خور فكان، شاطئ الكورنيش بمطرح، فوق تلال الجزائر، حى البوسعيد التونسى .. أستعيد الرائحة نفسها، على شاطئ الكورنيش، فى الميناء الشرقية، أو فى الأنفوشى. يغلبنى الشوق إلى ملء رئتى من هواء بحرى، تصنعه تيارات من البحر الذى يحيط بمعظم جوانبه.

وصف إدوار الخراط سكندريتى بأنها بحرى ، ظنى أن ما قاله ينطوى على الحقيقة، فإذا كنت أنتسب - بالانتماء القومى - إلى الوطن العربى بتعدد أقطاره، وإذا كنت أنتسب - بالانتماء الوطنى - إلى مصر بتعدد أقاليمها، فإنى أنتسب إلى بحرى، الموطن/الوطن الذى صار فى حياتى تجسيداً للإسكندرية.

سافرت إلى مدن كثيرة داخل مصر وخارجها ، لكن وجدانى لم يترك الإسكندرية - وبحرى بخاصة - فى أى وقت ،

أنا دائم الوجود فيه بالحنين والشوق واستعادة الذكريات والمقارنة والكتابة عن الوقائع والأماكن والشخصيات..

جغرافياً ، قد أكون بعيداً عن بحرى بمئات ، أو آلاف ، الكيلو مترات ، لكننى أعيش فى بحرى ، أسير فى الشوارع والحوارى والأزقة ، أؤدى الصلوات فى المساجد ، أذاكر فى صحن أبى العباس ، أشاهد الموالد ، أزور الأضرحة والمقامات ، وأقرأ الفاتحة ، أندس وسط حلقات الذكر ، أخترق زحام شارع الميدان ، أقف على شاطئ البحر ، أتابع عمليات صيد السنارة والطراحة والجرافة ، أتردد على ورش القزق ، أتابع تحليق الطائرات الورقية الملونة ، أمد النظر إلى نهاية الأفق .

مع كثرة ما استمعت إلى صياح الديكة فى مواضع من العالم ، فإن ترامى الصوت ينقلنى إلى بحرى ، بالتحديد إلى حجرة نومى فى الشقة المطلة على ثلاثة شوارع ، يؤنسنى صياح الديكة ، وتسبيحات ما قبل صلاة الفجر ، والأهازيج التى يعلو بها صوت ألفته ، وإن لم أعرف صاحبه !

رغم انقضاء عشرات السنين على رحيلى من بحرى ، فإنى أصحو - فى الكثير من الأيام - على جلبة الطريق فى

ميدان الخمس فوانيس، ورائحة البحر، وأهازيج السحر، وجلوات الصوفية، وسوق العيد، ومواكب العرائس أسفل بيتنا. تختلط الذكريات والصور القديمة . أستغرق لحظات قبل أن أعود إلى الآني.

لباشلار مصطلح الطوبوفيليا TOPOPHILIA ، ومعناه محبة المكان. ثمة علاقة خاصة تربطني بالكثير من الأماكن في بحرى، أسواق وشوارع وجوامع وحدائق وأضرحة ومقامات ، فضلاً عن البحر الذى يطل عليه بحرى من جوانب ثلاثة . وبالطبع ، فإن بحرى - عندي - ليس مجرد المكان ، إنه النشأة والذكريات واختزان ما يتصل بالحنين ، ما حاولت استعادته ، وتوظيفه ، في كتاباتي السردية .

بحرى هو مدينتي ، هو المدينة التي اختزلها وجداني ، يجاور أحياء أخرى ، أعبرها ، لكن بحرى - حتى لو ابتعدت عنه - يحيا في داخلي . لا مكان يزاحم بحرى فى نفسي، هو مغاير، متفرد، يحمل خصائص ومقومات يصعب أن أجدها في موضع آخر.

حين أخترق الزحام في ميدان أبو العباس، أو في شوارع بحرى، فإن إحساسي بالوحدة يزول، أشعر بانتمائي إلى الأمواج المحيطة بي، أنا قطرة تذوب في مياهه.

أى روح يكمن فى بحرى ؟ ما الذى أحبه فيه ؟ ما الذى يجذبنى إليه ؟

لعلى أجد فى الحى امتداداً لبيتنا المطل على أحد شوارعه، أتبادل السلام والتحية ، أتردد على جوامعه ودكاكينه وساحاته وأسواقه ، أعرف الكثير من ناسه ، الوجوه الطارئة ، أو الحديثة العهد بالإقامة . البيئة ـ رغم اتساع الحى ، بل ورغم كثافته السكانية محدودة ، ومحددة . الطبقات من الوسطى، فأدنى المهن المتصلة بحياة البحر ، فى السيالة والأنفوشى ورأس التين ، الصيادين وغازلى الشباك وصغار الحرفيين والتجار ، ليس فى بحرى شخصية استثنائية، ـو معتزة بخصيصة ما، ناسه عاديون، يمارسون مهناً، يحفظ عائدها حياتهم، تغيب ـ إلى حد الندرة ـ أمراض الانتهازية والوصولية والتقافز فوق أكتاف الآخرين. المسافة من انحناءة الطريق إلى الميناء الشرقية ، وموازاته فى شارع محمد كريم (التتويج) ، والامتدادات حتى المنشية مهن تجارية وحرة ، أو ينتسبون إلى الكادر الوظيفى فى مراتب مختلفة ، الهجرة من الحى وإليه قليلة ، أو أنها معدومة ، فالسحن تبدو مألوفة، حتى السمات المعمارية لبنايات الحى تشهد تغيراً

بطيئاً ، وغير ملموس . ما عدا ميدان أبو العباس الذى تضخمت عمارته بزعم توسيعه ، فإن البيت الذى يلحقه الهدم يبنى على المساحة نفسها ببيت جديد ، حتى الشوارع القديمة: الموازينى والحجارى والمسافرخانة وجودة وأبو وردة وصفر باشا وفرنسا وغيرها، لا تزال على حالها. بل إن تسميات الشوارع لم تتبدل على ألسنة الناس: سمى شارع الميدان تعبيراً عن الزحام الذى تصنعه حركة البيع والشراء، ثم أطلقت الدولة على الشارع اسم محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر الأسبق ، بعد اغتياله فى ١٩٤٨م ، لكن التسمية الأولى ظلت كما هى ، وظل اسم إسماعيل صبرى على الشارع الذى أنشئ فى أوائل الثلاثينيات ، وكان الرجل محافظاً للمدينة، وعلى الرغم من أن الزعيم محمد كريم هو الاسم الذى يطلق الآن - رسمياً - على شارع التتويج (نسبة إلى تتويج الملك فاروق ملكاً على مصر فى ١٩٣٧ ، فإن التسمية القديمة هى التى يحرص عليها الناس. وشارع رأس التين لأنه يمضى إلى سراى رأس التين ، والموازينى لأن جامع ولى الله على يمين الشارع فى الطريق إلى أبو العباس . تحيّرت فى تسمية شارع فرنسا . لم أجد باعثاً لها فى

النوتة الصغيرة التي حدس صديقي الشاعر الراحل عبد الله أبو رواش أني ربما احتجت إليها في كتاباتي التي جعلت من فضاء بحري - بناياته ، ميادينه ، شوارعه - محوراً لها ، ربما جاءت التسمية في مناسبة احتفالية ، تخص فرنسا ، أو أحد زعمائها . أطلق على الشارع - فيما بعد - اسم الشهيد كمال الدين صلاح ، لكن التسمية ظلت - كالعادة - على حالها .

أحرص - في زياراتي إلى بحري - أن أخترق الشوارع الجانبية والأزقة والحارات . أطيل التوقف والتأمل ، أدرس علاقة المكان بالتاريخ السكندري ، بالبشر الذين يعيشون فيه ، أتأمل حتى ما قد يبدو هامشياً . العكس هو ما أفعله حين تدفعني الظروف للتردد على أحياء الإسكندرية الأخرى . أكتفي بالسير في الشوارع الرئيسة ، لا أحاول الميل - إلا لضرورة - في الشوارع الجانبية ، سيري في بحري للتأمل واستعادة الذكريات . أما سيري في الأحياء الأخرى فلعمل ما أسعى لإنجازه .

بحري - في لغة أهل الإسكندرية - هو البلد . يقال : أنا نازل البلد ، المعنى أنه سيذهب إلى بحري . هل لأنه الحي الأقدم في المدينة ؟ هل لأنه الموضع الأصل قبل أن تنشأ

الإسكندرية ، وتتسع ، وتمتد أحياؤها ، وتأخذ صورتها الحالية ؟

إذا نزلت البلد / بحرى فإنك - غالباً - سترحل عنه وفى وجدانك بصمات يصعب أن تزول .

●●●

سيرة بحرى - منذ الطفولة إلى عامى الثانى والعشرين - هى سيرتى الذاتية .

والحق أنى حين أغادر بحرى أعانى ارتباكاً وفقداناً للاتجاه ، أسأل بحثاً عن البناية التى - ربما - علت أمامى ، أو الشارع الذى - ربما - سرت فيه . لم أكن أجاوز بحرى إلا نادراً ، يصحبنى أبى ، أو أحد أقاربنا ، أو أضع تصوراً محدداً للشوارع التى يجب أن أخترقها ، لا أميل إلى شوارع أخرى ، ولو لإرضاء الفضول .

ولأن مدرستى الابتدائية ، فالثانوية ، فى محرم بك ، فقد حفظت الشوارع - بإرشاد أبى - جيداً ، لا أبدل المسار الذى يعيدنى إلى حكاية الحمار ما بين بيت خالتى نبوية (خالة أمى) فى دمنهور ، والزراعات البعيدة . تابعته وهو يمضى فى الشوارع الفسيحة والمدقات والطرق الترابية وفوق

الجسور الصغيرة ، حتى يصل إلى الأرض التى يملكها أبناء خالتى ، فيقف ، نهاية المشوار .

هذا هو حالى - فيما أظن - وأنا أمضى فى شارع فرنسا ، إلى ميدان محمد على ، ومنه إلى شارع شريف ، أميل فى اتجاه ميدان محطة الإسكندرية ، إلى شارع محرم بك ، حتى قرب نهايته . أخترق - يساراً - شارع المأمون ، حيث تقع فى أحد الشوارع المتفرعة منه ، مدرستى الفرنسية الأميرية . المشوار نفسه كنت أقطعه فى التوجه إلى مدرستى ، الإسكندرية الثانوية بشارع منشة . لا أذكر أنى بدّلت المسار لأى سبب ، اللهم إلا للإفادة من مكتبة البلدية الملاصقة لمدرسة الإسكندرية ، فى أوقات الفسح .

●●●

حلمى الدائم - منذ أحببت الكتابة - أن أكتب عن الإسكندرية ، عن حى بحرى بخاصة .

حدثتك فى مقدمة كتابى «حكايات عن جزيرة فاروس» عن المساحة التى تبدأ بقصر رأس التين إلى ميدان المنشية ، اسمها الرسمى حى الجمرك ، أو قسم الجمرك ، أما التسمية التى اعتاد الناس نطقها فهى : بحرى . تشمل الكثير من

الميادين والشوارع والحارات والأزقة ، بالإضافة إلى الروحانية الممثلة فى الجوامع والزوايا وأضرحة أولياء الله ومقاماتهم والطرق الصوفية والموالد والأذكار ، ما يصح انتسابه إلى مدينة واسعة ، فإنها تضم العديد من شركات النقل والشركات الملاحية والمستودعات ، ويعمل غالبية أبناؤها فى الأنشطة المتعلقة بالميناء من نقل وتخزين واستيراد وتصدير وتفريغ ، للسفن ، وثمة فئات يرتبط عملها بالبحر الذى تطل عليه المنطقة من ثلاث جهات ، كالحمالين والصيادين والبحارة والعاملين فى الدائرة الجمركية ، ودكاكين بيع أدوات الصيد ، وتجار الأدوية البحرية .

البحر وصيادى السيالة وحلقة السمك وأولياء الله ، حيلة واحدة ، عائلة واحدة . وأحياناً ، فإن الخاطر يلح - حين يمر الأوتوبيس أو المترو أمام محطة القاهرة - أن أغادر مكانى وأتجه إلى القطار ، فأسافر إلى الإسكندرية ، حبيبة أتوق للقائها كلما لاحت فرصة .

بحرى ليس هو الحى الذى عشت فيه أعوام الطفولة والنشأة ومطالع الشباب . عندى هو الذكريات ، هو الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والميدان الواسع قبالة أبى

العباس ، قبل أن تبتلعه العشوائية التي تعاون في تحقيقها محافظ سابق وعدد من رجال الأعمال . بحرى هو سوق العيد الذي تلاشت ملامحه بعد أن حظرت التعليمات وجوده ، وهو أبواب الجمرك المفتوحة دون تصاريح دخول ، ولا قوائم ممنوعين . وهو ما استقر في داخلي من تعاملات البشر والمعتقدات والعادات والتقاليد والعبارات والمفردات والحواديت الصغيرة التي تركت تأثيرات في النفس ، وربما تركت ندوباً على الجسد . غاب عن بحرى علماء دين وتجار وفتوات وشيوخ صيادين ، هم الذين منحوا بحرى زمنه الجميل . أذكر درس المغرب للشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدى على تمراز ، ووقفة أم البحرية عصمت محسن في شرفة فيللتها المطلة على سراى رأس التين ، والشيخ أحمد صاحب الكتاب في شارع فرنسا ، أمضيت فيه عاماً أو أكثر من طفولتي ، والرشيدى بائع المشروبات ، وعم أحمد الفكهاني ، والطيبين بائع البسبوسة . مع ذلك ، فإن بحرى عندى ليس مجرد البحر والشاطئ والجوامع والميادين والشوارع والبشر . إنه كائن له قسمات وملامح وذكريات وحكايات . حتى الجدران والبيوت والنوافذ تمثل - في داخلي - ذاكرة أحيا معها ، وبها .

أمـام البنايات الجـديدة ، الأسـمنت ، والنوافـذ الزجـاجيـة الضـيقة ، والطوابق القصـيرة ، وغيـاب النقوش والزخـارف والمقـرنصـات ـ حـتى لو تشـوهت ، أو تسـاقطت ! ـ يغـيب إحسـاسى بالألفة والحميمية والدفء . يتناهى رفع الأذان من موضع قريب ، داخل مصر وخارجها . أستعيد صورة المؤذن فى صـعـوده درجـات السلم الحلزونى لجـامع على تمراز ، يستقر فى وقفته على البسطة الأخيرة ، الصغيرة ، ويرفع الأذان . هذه عندى هى صورة المؤذن باختلاف المواضع التى يرفع فيها كلمات الأذان ، يتماهى التذكر ـ التذكر قائم ـ بالحنين إلى الإسكندرية ، وبحرى ، وجامع على تمراز ، بما لكل ذلك فى نفسى من مكانة . لكثرة ما استمعت إلى صوت الأمـواج وهى ترتطم بصـخـور الشاطئ فى امـتـداد الميناء الشرقية ، فقد أصبح الصوت ملازماً لى فى رحلاتى خارج الإسكندرية . أستعيده ، فيعيدنى إلى مدينتى ، وإلى البحر والبلانسات وصيد الجرافة وحلقة السمك والسلسلة ومتحف الأحياء المائية وقايتباى وحاجز الأمواج فى مدى الأفق .

بعيداً عن بحرى ، سواء فى القاهرة أو فى المدن المصرية الأخرى ، أو فى خارج البلاد ، فإنى كنت أجرى ما يشبه

المقارنات بين بحرى وغيره من المناطق التى قد تتسم بخصوصية ، خصوصية بحرى حافلة بالتنوع والخصوبة والثراء ، بيئة ساحلية يختلط فيها البحر واليابسة بحميمية معلنة ، مفرداتها الصيادون والغزل وتجار الأسماك وتجار أدوات الصيد وعمال الميناء وعساكر السواحل وأفراد القوات البحرية والبحارة الأجانب والسياح ، بالإضافة إلى المفردات الروحية المتمثلة فى عشرات الجوامع والزوايا والمقامات والأضرحة ، مشهد غير متماثل ولا متكرر ، يمثل ـ بالنسبة لى فى الأقل ـ حافزاً للتأمل وتوظيف البيئة فى أعمالى الروائية والقصصية .

ألفت رائحة بحرى : البحر واليود والطحالب والأعشاب والأسماك والقواقع والأصداف . أستعيد الرائحة إن ابتعدت عن بحرى ، تقتحم أنفى وكل كيانى . استعدت الرائحة فى سوق السمك بمطرح ، على شاطئ الخليج ، أمام ساحل الأطلسى ، فى شرفة فندق «باب البحر» المطلة على كورنيش طرابلس الغرب ، وأماكن أخرى كثيرة تحمل رائحة بحرى ، وإن كانت لا تحمل ملامحه .

التعبير المتوارث: من يشرب ماء النيل مرة واحدة فلابد أن

يعود إليه. أضيف إليه: من يشم هواء الإسكندرية فلن يسهل عليه نسيانها .

أذكر أبيات مريد البرغوثي :

السمكة

حتى وهي في شباك الصيادين

تظل تحمل

رائحة البحر .

●●●

المثل يقول : «نحن نحمل أوطاننا في غربتنا» . والحنين خاصية مؤكدة القسمات عند المصري الذي تضطره الظروف إلى ترك وطنه . حنين دائم ، ومتصل . يحن إلى وطنه وموطنه - المدينة ، أو القرية ، أو الحي الذي يحيا فيه - وإلى أهله وأصدقائه ، وإلى الذكريات الصغيرة .

في قصتي القصيرة أحمس يلقي السلاح يدندن البطل - دون تدبّر - بمطلع الأغنية :

على بلدي المحبوب ودّيني   زاد وجدي والبعد كاويني

إنه نفس الحنين القديم الذي بلور أمنيات سنوحي في أمنية واحدة : أن يعود إلى بلاده ليموت فيها ! . وحتى الآن ،

فإنى أفضل - رغم انقضاء عشرات الأعوام على مغادرتى الإسكندرية بصورة عملية - أن تكون أعمالى تعبيراً عن الحياة فى بحرى ، هذا الحى الذى ولدت فيه ، وأمضيت أعوام طفولتى وصباى وشبابى الباكر . سرت فى شوارع وميادين وأسواق ، سبقنى إلى السير فيها عبد الله النديم وسلامة حجازى وكامل الخلعى وسيد درويش وبيرم التونسى وعشرات ممن تأثروا بمظاهر الحياة المميزة ، والمتفردة ، فى بحرى ، وانعكست تلك التأثيرات فى إبداعاتهم ..

تبقى حقيقة يجدر بى أن أعترف بها : إذا لم أكن قد عشت معظم أعوام عمرى فى الإسكندرية / بحرى ، فإن الإسكندرية قد عاشت فى داخلى كل عمرى ..

بحرى ، هو المكان الذى أستعيده فى لحظات الفقد والوحشة . كنت - فى صباى وشبابى الباكر - أتعجل مغادرته. بدت القاهرة مجالاً حقيقياً للفرصة التى أطلبها . وحين أقمت فى القاهرة ، صار الحنين إلى بحرى هاجسى ، ودافعى إلى العودة المتكررة إليه .

أحب العيش فى مصر الجديدة ، أقامتى فيها تعود إلى ما قبل أربعين عاماً ، لا أتصور الإقامة فى مكان آخر ، بى ألفة

للبشر والأماكن والأشياء.. ألفت هذا الحي، هذا الشارع، هذا البيت، هذه الشقة، لا أفكر في الانتقال، ولو إلى مكان أكثر ملاءمة. وإذا غادرت القاهرة، فإن الهاجس الذي يتملكني هو العودة إلى مكتبتي، هي خلاصة كل ما يجتذبني إلى مصر الجديدة. مع ذلك، فإن مصر الجديدة تغيب - لا أدرى لم؟ - في كتاباتي، لا أكتب عنها، ولا أشير إليها، ناسها، شوارعها، مؤسساتها، مساجدها، كنائسها، بناياتها (الاستثناء في روايتي «ذاكرة الأشجار»). ربما البداية تطالعني، تناوشني، وأنا أقود سيارتي في شوارع الحي، أو وأنا أجلس - كما اعتدت منذ أعوام كثيرة - جوار نافذة الأوتوبيس، أمسك الكتاب بيد، والقلم باليد الأخرى، تشغلني القراءة، أشرد - بين فترة وأخرى - في زحام الشوارع، حتى أنتبه إلى محطة القللي (عرابي)، أعبر الطريق إلى مبنى «الجمهورية».

لأن العمل الإبداعي - كما قلت لك - يكتب نفسه، فإن ما أكتبه - في سطوره الأولى - يستدعي الحياة في بحري: الشخصيات والأماكن والأحداث، ما أعرفه، وما أتصوره، وإن كانت الومضة في أيامي القاهرية. تتنفس الحياة في

بحرى بمساجده وشوارعه وبناياته وموالده وأذكاره وضرائحه ومقاماته ، والصلة بين البشر واليابسة ، وحلقة السمك ، ومعهد الأحياء المائية ، وقلعة قايتباى ، وسراى رأس التين ، وورش القزق ، ومرسى القوارب فى المينا الشرقية .

لم أكتب في أعمالي التي عرضت للحياة في بحرى عن مكان لم أتردد عليه ، ولا شخصية لم أتعرف إليها ، ولا طقس لم أمارسه ، أو تابعت ممارسته جيداً ، مثلاً : صيد الجرافة والطراحة والذكر والإنشاد الديني والجلوات إلخ .

لعلي أضيف إلى ذلك كله حب دافق للمكان وأهله ، وهو ما ينعكس فى تلمس الجذور والتكوينات والقسمات والملامح والمنمنمات الصغيرة التى تسهم - فى مجموعها - فى رسم اللوحة الكلية.

●●●

ظلت أمنيتى أن أقطن شقة فى وسط البلد ، أقضى فيها ما تبقى من العمر . وسط البلد الذى أعنيه هو بحرى . أنزل - فى أى وقت - إلى الشوارع والأسواق والميادين والمقاهى ، وكل ما ينتسب إلى البيئة التى نشأت فيها . زوجتى تمتلك

شقة في العجمي ، لكنني أضيق بها ، فهي تبتعد عن وسط البلد بالمعنى الذي أفهمه ، تبتعد عن بحري ، فأنا لا أحب الإقامة فيها . تعزلني عن الحياة التي ألفتها ، وإن بدل توالي الأعوام كثيراً من مظاهر الحياة في بحري : الإزالة دائماً ، وتشييد بنايات جديدة ، أو تحويلها إلى مشروعات تجارية ، وربما تحويل الميادين الفسيحة ـ والمثل ميدان أبو العباس ـ إلى مساحات مكتظة بالدكاكين والبنايات التجارية .

واصلت البحث ، فلم أجد ثقب إبرة . العدد كامل ، وحركة البناء توقفت لأن كل الأراضي التي تصلح للبناء قد تم بناؤها بالفعل . ثم عثرت على شقة في عمارة لم يكتمل بناؤها تطل على سيدي على تمراز . بدت غاية المراد من رب العباد ، وإن تقاسم واجهتها ـ مع الميدان ـ حارة صغيرة تفضي إلى شارع محمد كريم .

صاحب البناية في حوالي الخمسين . ينتسب ـ من الخشونة الواضحة في يديه ، ومن اختلاط الألوان في ملابسه ـ إلى فئة الحرفيين . تصورت أني رأيته في ترددي ـ أحياناً ـ على ورش سمكرة السيارات بالعطارين ..

أفزعني الرقم الذي حدده الرجل لامتلاك الشقة :

- ٣٥٠ ألف جنيه ..

استبعدت الرقم ، فأكده ..

لجأت إلى الدعابة :

- لبنايات الميدان أو للبناية وحدها ؟

قال من بين أسنانه :

- لغرفة واحدة إن شئت تملكها !

●●●

قيل إن النظر من بعد يفتح أمام الرائى أفقاً غير محدود. ثمة المدن التى زرتها، وأقمت فيها لفترات قصرت أو طالت . الحنين لا يقتصر على الوطن أو الموطن وحده . إنه - هنا - يأتى مرادفاً للإحساس بالغربة والشوق إلى الأهل والأصدقاء ومواطن الذكريات . الحنين يداخلنا بعد أن نمضى فى بعض الأماكن فترات ، ثم نتركها . فأنا أحن إلى الأردن وعمان والسعودية والإمارات والجزائر وفرنسا ولبنان وتونس وإنجلترا وموريتانيا وسوريا وليبيا وألمانيا وكل البلاد التى زرتها ، وأنشأت فيها صداقات ، وتعرفت إلى أماكن وبشر . ربما خرجت بذكريات سيئة ، لكن الحنين يتحرك بالابتعاد ، ولعله من هنا جاء قول مستر ميلز فى رواية

ديكنز الصغيرة ديترويت : «إن المرء دائماً يسامح المكان متى ابتعد عنه» ..

نحن نحيا المكان - كتجربة - عندما يذكّرنا بأماكننا القديمة، الأليفة ، أو يجعلنا نهرب منه إلى أماكننا القديمة ، الأليفة . يضعنا فى إطار الذكريات . وهو ما يسميه باشلار «تعليق» القراءة ، فالقارئ يتذكر - من خلال العمل الإبداعى - أمكنته الخاصة ، والحميمة .

فى زياراتى المتقاربة ، الأولى ، إلى بحرى ، وإلى الإسكندرية بعامة ، كان يلفنى شعور بالانتماء، أو بالحميمية، وربما بالامتلاك لكل ما حولى، هذا المكان يخصنى ، وأنا أحبه ، هو امتداد لبيتنا فى شارع إسماعيل صبرى ، أعرف ميادينه وساحاته وشوارعه وأزقته وبناياته وجوامعه وزواياه ومقاهيه ، لا أخطئ ملامحها . أعرف الكثير من ملامح البشر أيضاً . تباعدت زياراتى إلى بحرى ، وإلى الإسكندرية جميعاً فيما بعد حدثت تبدلات وتغيرات فى طبيعة المكان ، لكن الصورة الماثلة فى ذهنى - ووجدانى - ظلت قائمة لا يعتورها تبديل ، وهى الصورة التى حققت بطولة المكان - التعبير للنقاد - فى أعمالى الإبداعية . أتذكر المرأة اللحيمة المطلة من نافذة

الطابق الأول بشارع الحجارى ، المتصوفة اللائذين بجدران
جامع أبو العباس ، مرسى القوارب فى الميناء الشرقية ،
الطائرات الورقية الملونة فوق خليج الأنفوشى، العجوز
المستلقى تحت العربة الصندوق على ناصية شارع
الشوربجى، مبنى مقامات الأولياء المفضى إلى السيالة، فلوكة
مقلوبة فوق رمال الأنفوشى ، إيقاع صحن العطارة فى سوق
الترك ، صيادى السنارة فوق مكعبات الإسمنت ما بين
السلسلة وقايتباى ، بائع الصحف يرتب الجرائد والمجلات
على رصيف شارع فرنسا ، لصق صيدلية جاليتى ، الطفل ـ
داخل الترياتون ـ ينفث أنفاسه بخاراً فى الواجهة الزجاجية
المغلقة ، نداء الشحاذ الضرير فى الموازينى : قصدت باب
الكريم ، درويش يفقد الوعى فى استغراق الذكر ، شباك
الصيد الملقاة ـ لتجف ـ على السور الحجرى ، تناثر أضواء
البلانسات فى ظلمة البحر ، الرائحة النفاذة المترامية من حلقة
السمك ، انتشار بحارة السفن الأجنبية ـ جماعات ـ فى
شوارع المدينة . فى الليل ، يتحول البحر ـ بعناق الظلمة ـ إلى
كائن غامض ، تختفى الأمواج والآفاق ، تخف التأثيرات
بأضواء البلانسات المتناثرة فى المدى ، إذا انطبقت الظلمة

تماماً ، فإن الرؤية تغيب ، وتحل الرهبة ، ليس ما يشي بالحياة سوى ارتطام مد الموج بصخور الشاطئ ، وهدير انسحابها - بالجزر - في توال رتيب .

حول جوامع الحي ومساجده وزواياه وأضرحته ومقاماته، تدور حياة أبناء بحرى ، يبيعون ، يشترون ، يعودون من رحلات الصيد ، يؤدون الصلوات ، يقيمون حلقات الذكر والموالد ، يحققون العلاقة المميزة بين البحر واليابسة ، وبملامسة الأمواج للحي في إطار شبه الجزيرة .

قبل أن أغادر الإسكندرية، كنت أحرص على تأمل الأماكن التي أحبها. البحر - من فوق سطح البيت - يحيط ببحرى من جوانب ثلاثة : الميناء الشرقية بصيادي الجرافة والطراحة والسنارة ، وتناثر البلانسات والقوارب داخل نصف الدائرة الهائلة من السلسلة إلى قلعة قايتباى ، ومرسى القوارب في أقصى اليسار. الميناء الغربية وما تشتغي به من حياة ، صنعها عشرات الألوف من البحارة والعمال والبواخر الضخمة والأرصفة والمخازن والحاويات والصافرات المتشابكة . الأنفوشي بزحف ورش القزق على رماله في ما يلي مركز الشباب إلى قرب سراى رأس التين . أذكر وصف أبي، وهو

يشير إلى الساحة الخالية أمام سراى رأس التين، وما يتناثر فيها من بيوت، وصورتها القديمة حين كانت تضم عششاً من الصفيح والأسمنت، مغطاة بالخيش، وترعى أمامها الماعز، ويسرح البط والأوز والدجاج. كانت - في رأيه - صورة قبيحة، تناقض فخامة السراى، وضرورة انسحابها على المنطقة المحيطة بها. مشاهد كثيرة ، أعيد تأملها ، أحاول اختزانها فى الذاكرة ، أعد نفسى باستعادتها حين أحاول الكتابة عن بحرى . ذلك ما حاولته فى رباعية بحرى ، والصهبة ، وقاضى البهار ينزل البحر ، والنظر إلى أسفل ، ومد الموج ، ونجم وحيد فى الأفق ، وحكايات الفصول الأربعة ، ومواسم للحنين ، وزوينة ، والمينا الشرقية ، والخليج ، وزمان الوصل ، والشاطئ الآخر ، وأهل البحر ، والبحر أمامها وصخرة في الأنفوشى بالإضافة إلى العديد من المجموعات القصصية .

ولعل تعدد الأعمال التى أكتبها عن البحر ، مبعثه تعدد الدلالات التى يهبها البحر ، إنه - على حد تعبير الدوس هكسلى - ذلك المتجدد دوماً .

إن مجرد الوقفة على شاطئ «المينا الشرقية»، والنظر إلى أفق ما بعد السلسلة وقلعة قايتباى، والبلانسات المتناثرة،

وحـركـة الأمـواج بين السكون والثـورة، والسـمـاء المتقلبـة، والطائرات الورقـيـة، وصـيـحـات أسـراب طيـور النورس، وصيادى السنارة يختبرون الصبر فوق المصدات الإسمنتية.. ذلك كله يهب النفس المتأملة فيـضـاً لا ينتـهى من المشـاعر، والميل إلى التعبير.

●●●

مـا الوطن ؟ هل هو حـيث الجـذور والأصـول ، أو حـيث أعيش ؟ هل هو الأهل الذين تسافر ، وتعود إليـهم ؟ هل هو الطفولة ، وحكايات الجدات ، واللعب فى الساحات والشوارع الخلفية ؟

طرح السـؤال نفسـه فى العـديد مما كـتبت . الحنين إلى الوطن شاغل الأسرة اليونانية فى الشاطئ الآخر ، والصحفى رءوف العشـرى فى الخليج ، والشـاب الزنجبارى فى زوينة ، وهاشم رمضـان السعدنى فى زمان الوصل ، ونورا والطبيب الأرمنى فى صـيـد العـصـارى ، وغـيـرهم ، تبـدلت آراؤهم ومواقفهم وتصرفاتهم ـ سلباً وإيجاباً ـ من خلال الحنين إلى الوطن . بل إن الحنين قـد يجـاوز اسـتـعـادة المكان ذى الذكريات، إلى المكان الذى ندرك انتماءنا إليه ، بحصيلتنا المعرفية ، وروايات الأهل والمعارف .

خيرت كالبسو الفتى يولسيس بين البقاء معها فى جزيرة الخلود ، وبين عودته إلى أرضه حيث لابد أن يموت يوماً . ورفض يولسيس الخلود ، واختار العودة إلى الأرض ، إلى الوطن . وكان هذا هو اختيار هاشم السعدنى فى زمان الوصل . ولعل ذلك هو ما واجهه الراوى وياسمين فى الشاطئ الآخر ، وما واجهه الراوى وزوينة فى «زوينة» ، وما واجهه صلاح ونورا فى «صيد العصارى» . يفرض القرار نفسه فى مواجهة السؤال الصعب : أينا يتنازل عن وطنه ليقيم فى وطن الآخر ؟

لكى يشعر المرء بالانتماء إلى الوطن ، لكى يشعر بأنه واحد من مواطنيه ، فلابد أن يحيا فى أرضه ، ويعايش مشكلاته وطموحاته . أوافق ميلان كونديراً فى أن الكاتب - تحديداً - ليس بمقدوره أن يحيا فى أى مكان إلاّ فى وطنه ..

والغربة لا تقتصر على البعد عن الوطن ، فقد أعانى الغربة وأنا أحيا فى وطنى . بل إن الظاهرة المقابلة هى إيثار البعض للفرار من الوطن ، والحياة خارجه . ولا يخلو من دلالة قول الكولونيل لورانس - وهو الذى أمضى أعواماً طويلة

فى الصحراء العربية ـ إنه لم يصبح إنجليزياً حتى بعد عودته إلى بلاده ..

●●●

ثمة ما ننساه تماماً ، كأنه لم يكن . قد يختفى المكان ، لكن صورته تظل فى الذاكرة : التفصيلات والمنمنمات والرائحة . حتى الرائحة تظل قريبة من أنوفنا ، يستعيدها بالوقوف فى الموضع نفسه ، أو فى موضع مشابه .

أشرت فى مقدمة كتابى «مصر المكان» إلى المعنى الخاص الذى لا أفهمه ، وأنا أتأمل سقوط أشعة الشمس على المسقط السفلى لسينما ديانا . مجرد التحديق فى المكان ينقلنى إلى عوالم متشابكة ، وغريبة ، وموحية . الأمر نفسه هو ما كنت أشعر به فى وقفتى وراء شرفة شقة الطابق الثالث فى البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى . نظراتى تتجه إلى السماء ، والبنايات المقابلة ، والتقاءات الشوارع ، والدكاكين ، وحركة الطريق الهادئة نسبياً (أخترق الشارع هذه الأيام، فأتحسر على زمن مضى . أنت لا تستطيع ـ فى قلب الشارع ـ إلا أن تكون موجة يحركها توالى الموجات !) ، وأردد أغنيتى عبدالوهاب : الجندول ، وكليوباتره ، تصدران عن قهوة فاروق

تنتقلان إلى الأذن دون شوائب . تتوقف النظرات طويلاً على الشرفة الصغيرة بين شقتى الطابق الأول ، مجرد واجهة بلا منفذ من أى نوع ، ومساحتها من الداخل لا تبلغ المتر. يتقاسم تأملي لها شرود، أتمني لو يتاح لى الجلوس داخلها ، دون أن يشغلنى السؤال : ثم ماذا ؟

لم يكن يراها، ولا يشعر بها أى أحد، كأنها سرى الخاص، أجلس ـ بالتخيل ـ فيها، أطل على الشارع، أرنو إلى نوافذ البيوت المقابلة، ربما أسندت رأسى إلى الجدار المصمت، وانشغلت بقراءة كتاب.

تصورت الشرفة مكاناً مناسباً لعرض البضاعة التى أضعها تحت السرير ، يشتريها ـ بالأجل الذى لا يأتى ! ـ إخوتى وأقاربى. لم تكن المشكلة في استحالة أن أجلس داخل الشرفة الصغيرة ، ولكن فى استحالة صعود الزبائن إليها، فهى معلقة بين شقتين، ولا سلالم لها.

قد نحب المكان بلا سبب، وربما نكرهه بلا سبب أيضاً. الشعور نفسه يتملكنى عندما ألتقى شخصاً للمرة الأولى . الانطباع الأول يتحول ـ بالأخذ والرد والتعامل ـ إلى يقين ، أو يبوخ الشعور لتصرفات سلبية كانت خافية .

لم تفارقنى الشرفة الحجرية طيلة ابتعادى عن الإسكندرية، فإذا عدت إلى المدينة، توقفت - كالعادة - أمام بناية الطفولة والنشأة. أكثر تأملى للشرفة بمقرنصاتها وزينتها الجصية.

حاولت أن تكون العلاقة بين الشرفة الصغيرة وبينى قواماً لعمل ما، لكن المحاولة ظلت - على حالها - مجرد خاطرة لا أبوح بها.

●●●

سرت فى ما لا حصر له من الشوارع والميادين والحوارى والأزقة والساحات والقاعات والردهات والغرف والممرات الضيقة . يملؤنى شعور بالحنين إلى مكان لا أتبينه ، هو أشبه بالمجهول الذى تغيب ملامحه . حين عدت إلى الإسكندرية أدركت أنها هى المكان الذى يتجه حنينى إليه ، ميادينها ، مساجدها ، شوارعها ، أحياؤها ، بناياتها ، قعدات الناس فى الحدائق ، وعلى الشاطئ فى امتداد الساحل .

الإحساس بالسكندرية (سكندرينى هى بحرى) شعور يتملك كل أبناء المدينة ، شعور قوى ، مسيطر ، قد يفرض الجهارة والتقريرية ، ويفرض من المبالغات والأخيلة والتصورات ما قد تغيب عنه الحقيقة أحياناً .

أحب بحرى، لا لأنه الحى الذى ولدت فيه ، ونشأت ، وإنما لأن الناس الذين أحبهم يعيشون فيه (لم أكن أتردد - فى أعوام الصبا - فى النزول إلى الطريق بالجلباب أو البيجامة، وهو ما لم أفعله، فى العمر نفسه، أوقات زيارتى لبيت عمتى بالمنيرة). يؤنسنى زحام الأسواق ، وتلاصق الأكتاف ، ونداءات الباعة ، وتلاغط المساومات ، والفصال ، وأصوات الطيور داخل الأقفاص ، ورائحة الكباب والفلافل ، وصيادى السنارة والطراحة والجرافة وطبالى السمك فى واجهة الدكاكين ، ومرسى القوارب فى يسار الميناء الشرقية ، ورفع الأذان (كم شاهدت - من النافذة الخلفية المطلة على جامع على تمراز - مؤذن الجامع وهو يصعد درجات السلم الحلزونى إلى أعلى المئذنة. يسند جانب وجهه إلى راحته، ويعلو صوته مؤذناً للصلاة)، وتصاعد الأهازيج والأدعية من مئذنة أبوالعباس ، ودروس المغرب فى صحن على تمراز ، ومكتبة حمادة الترن ، وصافرات البواخر فى الميناء الغربية ، وورش «القزق» ، وحلقات الذكر على رصيف البوصيرى ، والموالد ، والجلوات ، وخيام الطرق الصوفية ، والمجاذيب اللائذين بجدران المساجد ، وباعة المصاحف والأوراد والكتب

الدينية والمسابح في ميدان الأئمة ، وتتناهى آيات القرآن والأغنيات من داخل المقاهى ، والبخار المتصاعد من أكواب الشاى ، والحاوى ، ونافخ النار ، وألعاب البلى والنحلة والدوم . حتى العبارات المؤنبة والشتائم والمجاذيب والمتسولين. ولعلى أذكر ما نقله بيرم التونسى عن عالم إنجليزى - لم يسمّه - إن أبناء بحرى - فى القرن التاسع عشر - هم أرذل الناس على وجه الأرض. وفسر التونسى معنى الرذالة بمحاولات الأولاد إيذاء الغرباء عن الحى، وهو تصرف يحدث في كل الأحياء الشعبية، وفي كل مدن العالم.

تؤاخذنى ملاحظات على اقتصار ما أكتب على بحرى ، لا أتحرك - إلا قليلاً - بعيداً عنه ، إلى أحياء أخرى ، فى الإسكندرية ، أو إلى فضاءات أخرى فى مصر والعالم . أنا لا أتعمد اختيار بحرى موضعاً لكتاباتى ، لكنه هو الذى يجعل نفسه سيداً على هذه الكتابات : البحر والشوارع والميادين والأسواق والبنايات والجوامع والزوايا والأضرحة والمقامات والحدائق والمقاهى والقرق وحلقة السمك وقلعة قايتباى ومعهد الأحياء المائية ومرسى القوارب وصيد العصارى وسراى رأس التين ، وغيرها من القسمات التى تشكل الشخصية المميزة لبحرى .

الجمرك هي التسمية الإدارية لبحرى. اسم بحرى يطلق على الحى جميعاً. غربال وكرموز والقبارى والورديان وغيط العنب أحياء أو شياخات مثبتة فى الأوراق الرسمية، بينما تخلو تلك الأوراق من تسمية بحرى. إنه حى الجمرك، يتبعه العديد من الشياخات التى تخلو من تسمية بحرى. يقول ابن محرم بك، أو باكوس، أو كوم الدكة، أنا نازل بحرى، وأحياناً يقال : أنا نازل البلد ، والمعنى هو ذلك الحى ذى الكيلو متر المربع، بما يحويه من خصائص ومقومات.

بحرى ليس مجرد حى يضم نوعيات متمايزة من البشر، ولا أنماط حياة قد تختلف عما يحياه بشر آخرون ، لكنه يمثل عالماً صغيراً ، فضاء يمتزج فيه الواقع والخيال بما يهب خصوصية وتفرداً .

بحرى هو أقرب أحياء الإسكندرية إلى نفسى ، لاعتبارات عاطفية وفنية . أنا أدين له بمراحل الطفولة والنشأة والشباب الباكر ، وأدين له بالملامح التى تركت تأثيراتها فى الذاكرة والوجدان ، وكانت هى الإطار الذى تحركت فيه شخصيات وأحداث أعمالى الإبداعية .

أنا أعرف المكان جيداً . ظنى أنه يعرفنى جيداً كذلك . هذه المدينة، الحى، الميادين ، الشوارع ، الحارات، الجوامع، البيوت، المقاهى، الدكاكين، الحدائق، الساحات .. ذلك كله أنتمى له، وينتمى لى، هو الوطن، البيت ، الأسرة ، الصداقة .

أتنقل بين المدن ومخيلتى تلازم العيش فى بحرى . أحرص على النزول إلى الحى - فى فترات متقاربة - لمجرد أن أشم الرائحة التى تفرض مغايرتها ، مهما تعددت الفضاءات التى أتنقل بينها ، أمنى النفس بكتابات عن البحر الذى أحبه ، أقيم فى القاهرة منذ بداية الستينيات ، لكننى أحرص - فى كل زيارة لى إلى الإسكندرية - أن أجلس إلى الصيادين فى البلانسات ، داخل حلقة السمك ، على رمال قزق الأنفوشى ومقاهى بحرى ، حياتهم فى الأمواج والشباك والعواصف والنوات والخطر ، أمضى إلى شارع إسماعيل صبرى ، أطيل الوقوف أمام البيت رقم ٥٤ ، أرنو إلى الطابق الثالث ، أستعيد ما هو ثابت فى الذاكرة ، وما أدركه الشحوب . أعرف أن محمد كريم وعبد الله النديم وعبد الله دراز وسيد درويش وبيرم التونسى وأم البحرية وسلامة حجازى ومحمود سعيد وعبد الرحمن الرافعى ومحمود كامل

الخلعي ومحمد محمد حسين ومحمد زكي العشماوى وحسين بيكار وغيرهم ، ساروا فى الشوارع نفسها التى أسير فيها ، لا أعرف الجوامع التى ترددوا عليها ، ولا أين كانوا يجلسون ، ولا أين كانوا يلتقون بالناس ، ولا الأماكن التي تحمل تأثيراتهم ، لكننى أكاد أشم رائحة وجودهم فى جولاتى التى لا تنتهي داخل بحرى . أخترق الشوارع والحارات والأزقة ، أطل على شاطئ البحر والمقاهي والخرائب والساحات . أتخيل ما كان.

أذكر أنى سألت أبى :

- لماذا سمي حيِّنا بحرى ؟

قال أبى :

- لأنه يطل على الناحية البحرية .

- أظن أن التسمية من البحر .

- الإسكندرية كلها على البحر ، لماذا التسمية على هذا الحى وحده ؟!

إذا كانت التسمية لأن الحى يقع بحرى الإسكندرية ، أو لأن مصدر بحرى هو البحر . فإن بحرى - كما قلت لك - شبه جزيرة ، فى شبه جزيرة الإسكندرية : بيئة خاصة ، ومتفردة، دنياها البحر ، المهن والمعتقدات والعادات والتقاليد، سلوكيات

الحياة بعامة .

معظم الأسر فى بحرى على صلة بالبحر ، سواء بالعمل فيه ، أو الحياة إلى جانبه ، أو مشاهدته دوماً .

بدأت السيالة - على سبيل المثال - بثلاث عائلات ، مارست مهناً متصلة بالصيد ، وحتى الآن فإن شياختى الصيادين والسيالة هما موطن صائدى الأسماك فى المدينة ..

قد يبين التشابه بين البحر والصحراء فى الآفاق اللانهائية، سواء أمام الواقف ، أو الجالس على شاطئ البحر، أو حول راكب الباخرة فى انطلاقها وسط الأمواج ، لكن الاختلاف ما بين الحركة والسكون ، الصخب والهمس ، التوقع والملل ، المخلوقات التى يعتمد المرء على ما تهبه من تواصل الحياة ، والمخلوقات التى لا تعنى شيئاً ، أو تترصد بالأذى .

كانت أول مرة أركب فيها البحر ، لما أقلتنى - وصديقى عادل الصبروتى - فلوكة صغيرة - للنزهة - من الرصيف الأمامى لباب نمرة واحد ، حتى رصيف باب نمرة ستة ، ثم العودة . اختُصرت الأبواب من اثنين إلى خمسة ، لم نحاول مشاهدتها ، ولا تبين ما إذا كانت مفتوحة أم مغلقة ، تأذن

بالحركة والدخول والخروج . الشعور بالدهشة تغلب على ما عداه ، والفلوكة تكاد تلاصق بواخر البوستة الخديوية الهائلة (هذه البواخر الضخمة ، الراسية على الرصيف ، ستبحر إلى أماكن أخرى ، إلى أرصفة أخرى ، فى موان أخرى ، فى مدن بعيدة) ، وأصابعنا تلامس بقع الزيت فوق المياه الساكنة، ومن حولنا الفلايك والمعدات والمياه المائلة إلى البنى بتأثير الزيوت المتسربة من البواخر والأرصفة والرافعات ، وتلاحق صافرات السفن الداخلة من البوغاز ، والخارجة منه، والطيور المتباينة الأشكال والألوان فى تقافزها على الساكن والمتحرك ، تهبط فتكاد تلامسنا ، والصيحات والنداءات البعيدة ، يمتص الفراغ رجع صداها فلا تبين مفرداتها . غمرني شعور بالسعادة وأنا أعبر هذه المسافة القصيرة (تكررت النزهة !) ، كأنى فى حلم جميل ، أو أنى فى الجنة .

فى داخلى حنين إلى دنيا لم تعد موجودة ، دنيا الموالد والأذكار والجلوات وسوق العيد وحفلات الزفاف والختان والخيام والبيارق والأعلام والدفوف والطبول والأدعية والأناشيد والأهازيج . غابت تلك الدنيا في غابات الأسمنت التى تلاصقت ، حتى فى ميدان أبو العباس الذى لم يبق منه

سوى الاسم .

إسكندريتى ليست البنايات الضخمة على الكورنيش، ولا فى الميادين والشوارع الفسيحة. إنها البيوت الصغيرة، المتلاصقة، والشوارع الضيقة ، المتقاطعة، تتراكم فيها مياه الأمطار، تختلط بالتراب، فتصنع ما يشبه كومات الطين، تعلو فتهبط أبواب البيوت تحت مستوى الطريق. وثمة القهاوى والغرز والأضرحة والزوايا، ومدرسة البوصيرى الأولية، وروضة مصر الفتاة، وكُتاب الشيخ أحمد، والمذاكرة فى صحن أبو العباس، وقلعة قايتباى، والبيت المهجور بشارع سيدى داود، أهرول أمامه لتصور أن الأشباح تسكنه، ونادى مدرسة إبراهيم الأول، وخطب الشيخ عبد الحفيظ، وتياترو المسيرى، وفرقة فوزى منيب، وحديقة سراى رأس التين، وجياد الملك فى جولاتها الصباحية، والمظاهرات الصاخبة لا أعرف من أين جاءت ، ولا إلى أين تنتهى ، تهتف بسقوط الملك وزعماء الأقلية ، وبحياة النحاس ، وصيد العصارى ، وحلقة السمك ورائحة الزفارة والعطن وأريج البخور والكتاتيب والصوفية والموالد وحلقات الذكر والأهازيج ،

والوقفة أسفل بواخر البوستة الخديوية ، ومباريات الكرة فى الأراضى الخلاء ، وقهوة فاروق ، وحلوانى الطيبين ، وسباق البنز والطائرات الورقية والجبب والقفاطين وملاءات اللف .

إذا كان قد خطر لى ـ أحياناً ـ أن أدخل البناية رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى ، أصعد إلى شقة الطابق الثالث المجاورة للسلم ، أستعيد ملامح وذكريات ، فإن الخاطر نفسه راودنى فى أن أدخل واحدة من البنايات المواجهة للميناء الشرقية ، أطل من نافذة على أفق البحر . المحيط الجغرافى ـ على حد تعبير إيزابيل الليندى ـ هو الذى يحدد شخصية الإنسان . لعل البحر فى مقدمة ما أفدت من تأثيره ، ليس البحر فى إطلاقه ، وإنما أفق البحر ، حضه على التأمل بما لا يحضرنى فى موضع آخر .

حلمى الذى لا يتبدل ـ منذ تركت الإسكندرية ، وفرضت الظروف أن تخلى أسرتى شقة إسماعيل صبرى ـ أن أستأجر شقة لها نافذة تطل على البحر مباشرة ، على الميناء الشرقية بخاصة ، أتأمل امتدادات الأفق والأمواج والبلانسات والقوارب وصيادى الجرافة والطراحة وصيادى السنارة

والجالسين على الكورنيش .

ثمة شارعان يفصلان بين شقتنا فى شارع إسماعيل صبرى وشاطئ البحر . الشقة التى تمنيتها هى التى صارت شقة للسيدة نجاة فى روايتى " البحر أمامها " .

سأكون ممتناً لو أتيح لى - وأنا أتهيأ للمجهول - أن أقرأ سورة الرحمن في جلستي أمام البحر ، مثلما فعل عماد حمدى فى الفيلم المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ «ميرامار» :

«الرحمن . علَّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان. ألاّ تطغوا فى الميزان. ... تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام».

●●●

ربما لو أنى لم أترك بحرى، ما لاحظت الاختفاء، التلاشى، الذى ابتلع الكثير من البنايات والشوارع والميادين. حتى الميدان الأشهر الذى يطل عليه جامع السلطان، تبدلت هيئته، فقد توسطه مبنى هائل، تحولت أطراف الميدان من حوله إلى شوارع صغيرة، ضيقة، واتصلت - بالكاد - بما كان

قائماً من الشوارع الجانبية..

أقول: ربما لو أنى لم أترك بحرى، وأعود إليه، على فترات متباعدة، ما لاحظت ذلك التبدل فى قسمات الحى.

أنا أتبين ـ فى كل عودة إلى بحرى ـ ما لم أكن لاحظته من قبل.

وربما لم أكن أكتب عن بحرى كل هذه الصفحات ، بكل هذا الحب ، لو أنى ظللت فى الحى ، لم أبتعد عنه . الابتعاد يتولد عنه الذكريات والشوق والحنين وغيرها من المشاعر التى تستفز المبدع فى داخلى . الصور التى أشاهدها وأنا أجول فى شوارع بحرى وأزقته ، تختلف تماماً عن الصور التى أستعيدها وأنا فى مكتبى .

كيف يحيا سكان المدن والقرى التى لا تطل على البحر، دون هذا العالم الحافل بالمغايرة والسحر ؟!

يا أولياء الله .. مدد !

ولدت فى بيت يطل على جامع . مفردات نشأتى : رفع الأذان من على تمراز ، ترامى التسابيح من أبى العباس ، تواحيش رمضان ، الجلوات المارة أمام بيتنا ، الموالد فى الميادين ، مواكب الطرق الصوفية ما بين ميدان الأئمة إلى جامع القائد إبراهيم ، حلقات الذكر على رصيف البوصيرى ، خطب الشيخ عبد الحفيظ إمام على تمراز ، صلاة الجمعة والعيدين فى ميدان الخمس فوانيس ، معهد المسافرخانة الدينى ، سوق العيد ، درس المغرب ، المذاكرة فى صحن جامع قطب الإسكندرية ، دوران عربات العرائس فى ساحة السلطان ، مقامات الأولياء، وأضرحتهم ، والزوايا ، والمزارات ..

أذكر أنى كتبت عن رؤيتى لمؤذن جامع على تمراز ، وهو يصعد السلم المعدنى ، الحلزونى ، ينظر من توالى الكوات

بعلو المئذنة ، ويلتقط أنفاسه ، حتى يبلغ البسطة الصغيرة أعلى المئذنة . يعتدل في وقفته ، ويحيط وجهه براحتيه ، ويرفع الأذان . مشهد يتكرر خمس مرات في اليوم ، وإن كانت رؤيتي له بالمصادفة ، عندما أكون في الحجرة المطلة على الشارع الخلفي ، أو في المطبخ الملاصق لها .

لتكرر المشهد ، فقد صرت أتوقع التصرف التالي ، منذ يطأ المؤذن قدمه على أول السلم حتى يبلغ درجته الأخيرة ، ويأخذ وضع التأهب لرفع الأذان.

ومع أن ساعة الحائط البندولية كانت تتوسط صالة الشقة، فإن أبي كان يتعرف الوقت من أذان الصلوات الخمس. حتى مواعيد نزوله إلى قهوة فاروق للجلوس إلى أصدقائه، جعله ما بين أذان المغرب والعشاء. في موعد أذان المغرب يرتدي ثياب الخروج ثانية، ربما بعد دقائق من عودته إلى البيت، يظل في القهوة حتى يتناهى أذان العشاء، فيستأذن في العودة إلى البيت، وكان أذان العصر يوقظه من نوم القيلولة، فيتهيأ للتوجه إلى عمل بعد الظهر.

ثبت ذلك كله في ذاكرتي ، صار جزءاً من تكويني المعرفي والوجداني ، نبع ألجأ إليه في كتاباتي .

أطيل الوقوف على الرصيف الفاصل بين ميدان السيدة زينب ومقام رئيسة الديوان . أميل إلى الشوارع والحارات المحيطة بالمكان : شارع السد والناصرية ودرب الجماميز والدرب الجديد والسباعين وشارع قدرى وبركة الفيل وحارة السقايين والمدبح وزينهم وقلعة الكبش وشارع الجأولى والصليبية وشارع خيرت وأبو الريش . عبق الروحية العطرة يسرى فى الأمكنة جميعاً ، كل المقيمين من محاسيب رئيسة الديوان ، يتمسحون قربها ، ويتذكرون مآثرها ، يحملون الأشاير والطبول والزمور والأعلام والكاسات ، يتلون القرآن ، ويقرءون البخارى ، والأذكار .

لا أذكر المناسبة التى أشرت فيها إلى الجوامع المتقاربة فى بحرى ، بين الجامع والآخر زاوية أو ضريح أو مقام ، كأنما الحى قد جُعل للروحانية ، أو أن الروحانية قد جعلت له، لكن المعنى ـ فى ظنى ـ صحيح تماماً . عشت فى أكثر من مدينة ، وزرت مدناً فى داخل مصر وخارجها ، لم أر مكاناً يضم هذا العدد من أولياء الله : المرسى أبو العباس ، البوصيرى ، ياقوت العرش ، نصر الدين ، كظمان ، الست مدوَّرة، عبد الرحمن بن هرمز ، على تمراز ، الموازينى ، شرف الدين ، خضر، وعشرات غيرهم.

الولى العالى المكانة هو قطب ، والقطب ـ غالباً ـ تتبعه طريقة ، لها أوتادها ونقباؤها ومريدوها ، ولها أعلامها وشاراتها وأورادها . وإذا كان الأولياء في بحرى كثر ، فإن الأولياء الأقطاب ـ مع بعض التجاوز ـ لا يبلغون العشرة . حدثنى نجيب محفوظ ـ ذات يوم ـ عن الفتوات ومساعديهم ، الفتوة هو البطل الذى يوجه الضربات ، بينما المساعدين يتلقون الضربات التى توجه إليه .

●●●

طالعت اسم قاضى البهار ـ لأول مرة ـ في أوراق أبى. عرفت أنه اسم جد قديم لعائلتنا، وترك وقفاً يحصل الورثة منه على مبالغ صغيرة قبل أن يحل نهائياً، وتتحول المبالغ الصغيرة إلى ما يحقق الثراء لكل أبناء العائلة.

حدثنى أبى عن ذلك الجد ـ قاضى البهار ـ الذى قدم من المغرب، فاختير قاضياً للبهار، مثلما اختير ابن خلدون قاضياً، واختير علماء آخرون لمهن مختلفة، تنتسب إلى زمانها، وإن كان أولياء الله وأقطاب الطرق الصوفية هم الأعمق تأثراً حتى الآن في البلاد المصرية.

شغلتنى التسمية عما عداها، كأنها تنتسب إلى عوالم ألف ليلة وليلة، وحكايات التراث العربى، وجعلت الاسم بالفعل ـ

فيما بعد - عنواناً روائياً، وتحول انشغالى فى أثناء ذلك إلى محاولة قراءة تاريخ علماء المغرب فى مدن مصر: متى قدموا؟ وكيف؟ ولماذا اختاروا الإقامة فى هذه المدينة، أو تلك؟ وهل كانوا جميعاً من المتصوفة، أو أنهم وجدوا فى الحياة المصرية ما يغريهم بالبقاء؟

وأذكر أنى تناولت فى كتابى «حكايات عن جزيرة فاروس» تاريخ العلاقات المغربية المصرية، من خلال هجرات العلماء المغاربة إلى بلادنا

●●●

إذا كان لبحرى موقعه المتميز، فهو يتصل بالبحر من جهات ثلاث، شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية، فإن الروحانية سمة مهمة فى فضاء الحى. عشرات الجوامع والأضرحة والمقامات والمزارات التى لا تطالعك - ربما - فى المساحة نفسها فى موضع آخر.

أفسر الأمر بأنه يعود إلى فترة ازدهار دولة الأندلس الإسلامية، عشرات العلماء والنساك والزهاد قدموا إلى الإسكندرية من بلاد المغرب، يسعون إلى أداء فريضة الحج، يستخدمون الدواب، أو يسيرون على أقدامهم. تطالعهم

الإسكندرية فيزمعون الإقامة فيها. يلقى ترحيباً من أهلها، ينسبون إلى أقواله وتصرفاته كرامات، يصرون أن يقيم بينهم، في حياته، وبعد الممات. تلك هي الحكاية التي تكررت في سير أبو الحسن الشاذلي والمرسي أبو العباس والعديد من أولياء الله، تصوروا الإسكندرية محطة في طريقهم إلى البيت الحرام، لكن الخصائص المميزة للمدينة وأهلها، دفعتهم إلى الإقامة فيها بعد أداء فريضة الحج. ثمة من أخلص للدعوة الدينية، ومن أنشأ طريقة صوفية، تضخمت أعداد مريديها ـ كما هو الحال في الطريقة الشاذلية ذات القطب الأكبر والأحزاب والأوراد وعشرات الألوف من المريدين ـ وتوزعت في أماكن متقاربة: مقامات وأضرحة يقصدها الناس، يلتمسون البركة والشفاعة والمدد.

المظاهر الدينية ملمح يضاف إلى الروحانية التي اكتسبها بحري بتعدد مساجده وأوليائه. الموالد والجلوات وحلقات الذكر وسرادقات الإنشاد الديني وغيرها مما يشكل تكويناً في ثقافة أبناء الحي، بصرف النظر عن المستويات المعرفية والاجتماعية..

موكب العروسين لابد أن يستأذن أبو العباس ـ أو السلطان كما يسميه السكندريون ـ بالمرور من أمام مسجده،

عادة شحبت، أو ألغيت، بعد أن تقلص الميدان بفعل فاعل، والموالد يشارك فيها، ويسعى إليها الألوف من الإسكندرية وخارجها، تشغى بالخيام والأعلام الملونة والبيارق والأغنيات وأكشاك الختان والنذور وهتافات المجاذيب، ومآذن الحى ترفع الأذان ـ فى الأوقات الخمسة ـ والتواشيح والأدعية، وثبتت ذاكرة الطفولة ما كانت تزخر به الجلوات من مظاهر، بعضها يميل إلى الغرابة والشذوذ، كابتلاع النار، ووخز الوجنات، وانبجاس الدم من الجسد بتأثير ضربات المطاوى والسيوف، والنوم على المسامير، وتلقى الأفواه رءوس الثعابين، إلخ .. لكن اليقين الدينى يستقر فى النفس، يتخلص من التأثيرات السلبية، بعد أن ينفض الوعى مظاهر الخرافة!

أفرز ذلك كله بيئة ثقافية، لها أسلوبها ومفرداتها، سواء فى الطرق التى تنتسب إلى أقطاب الصوفية، أو فى الأذكار التى تنشدها حلقات الذكر، أو فى الإنشاد الدينى، والأغنيات التى تعكس الصلات المتداخلة بين الروحية والبحث عن لقمة العيش، البحر واليابسة، الصحو الذكى والاستغراق فى الغيبوبة، حتى رقصات «سيد حلال عليه» وأغنيات «السدا» والأجيال التالية من فنانى الحى، تعكس الحوار الدائم بين

صيـاد السـمك ومـورد رزقـه، الاتفـاق مع أحـيـاء المدينة فى المظهر، والاختلاف فى الجوهر، بما يهب بحرى خصوصيته وتفرده!

●●●

الإسكندرية هى باب المغرب، فلا فاصل بينها وبين المغرب سوى الصحراء التى تتناثر فيها بلدان المغرب العربى. هى - فى التسميات الحالية -: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا. وثمة روايات تاريخية تؤكد أن العنصر الوطنى فى الإسكندرية يعتمد - فى أصوله القديمة - على الوافدين من المغرب، ربما من قبل أن يقود جوهر الصقلى حملة الفاطميين إلى الأرض المصرية.

كان العالم الإسلامى متصلاً. من يخلّف قطر إلى آخر لا يسأله أحد عن أوراقه الثبوتية، ولا من أين أتى، ولا إلى أين يتجه.

وكما قلت فإن بحرى تحول - فى توالى السنين - إلى مركز استقطاب للباحثين عن اليقين الدينى ، بداية من أداء الفرائض والسنن ، وانتهاء بتلمس البركة والشفاعة والنصفة من الأولياء الذين تشغى بهم جوامع الحى وزواياه وأضرحته ومقاماته .

ربما البداية فى تلك الأعوام القديمة ، توالى قدوم المئات ، وربما الآلاف من متصوفة المغرب العربى ، يسعون إلى الحج، تطول الرحلة على الأقدام ، أو بواسطة الركوبة المجهدة ، يحاولون التقاط الأنفاس فى الإسكندرية ، نية الإقامة أياماً تمتد إلى نهاية العمر . يشيدون ـ أو يشيد له المصريون الطيبون (أليسوا أولياء الله ؟) مساجد وزوايا ، يضاف إليها ـ بعد الرحيل ـ أضرحة ومقامات. حتى مسجد تربانة بشارع فرنسا، أنشأه المغربى إبراهيم عبده المغربى، الشهير بتربانة.

عرضت لتلك الرحلة الجميلة ، القاسية ، فى العديد مما كتبت . ثمة أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وياقوت العرش والطرطوشى وأبو حامد الغزالى وابن خلدون وابن أبى الدنيا وابن عربى وابن عطاء الله وعبد الرحمن بن هرمز وعلى تمراز وعبد الرحيم القنائى ومحمد العطار (ينسب إليه جامع العطارين) وغيرهم ، منهم من اتخذها معبراً إلى مدن مصر الأخرى ـ والقاهرة بخاصة ـ ومنهم من فضل الإقامة فيها ، امتثالاً لإلحاح أبنائها الذين عبّروا عن اعتقادهم فيه .

رحلات علماء الأندلس ومتصوفتها إلى الإسكندرية، ومنها إلى مدن مصر وقراها، أعطت تأثيراً دينياً مهماً فى البيئة

المصرية. ثمة عشرات الجوامع والمساجد والزوايا والمزارات، تتناثر في امتداد الأرض المصرية، تنتسب إلى علماء المغرب، وعلماء الأندلس بخاصة، تعمق اليقين الديني، وتسم معتقدات المصريين وعاداتهم وسلوكيات حياتهم بما قد لا نجده في مجتمع آخر. نحن شعب مذهبه السنة، ونحب آل البيت بما لا يقل عما يعلنه الشيعة، ساعد على ذلك الامتزاج الجميل ما أتى به، وألفه، علماء الأندلس من طرق صوفية، تتجه بطقوسها إلى الذات الإلهية ابتداء، ثم إلى رسول الله، فآل بيته وصحابته والتابعين، ونؤمن بمكاشفات الصالحين وبركاتهم.

هذه هي شخصية الإنسان المصري بعامة، منذ تداخلت ديانات الفراعنة بمراحل تاريخه المتوالية، حتى الفتح الإسلامي، ثم وجدت المعنى الذي يمارس في ضوئه - حتى الآن - معتقداته الدينية.

اخترعت مخيلتي أولياء آخرين: الأنفوشي ، علي الراكشي في «أبو العباس» (رباعية بحري)، الشيخ المغربي في قصة «الإبانة عن واقعة كنز الشيخ المغربي»، الشيخ جابر برغوت في «ياقوت العرش»، الجزء الثاني من «رباعية بحري»، الإمام

الحفناوى فى «إمام آخر الزمان»، أولياء الله فى روايتى «أهل البحر» : إبراهيم سيد أحمد ، صبيحة الدخاخنى ، رافع عبيد، وغيرهم .

●●●

تحدثت فى كتابى «مصر فى قصص كتابها المعاصرين» عن اليقين الدينى فى حياة المصريين ، وما يتصل به من معتقدات وطقوس وتيارات وطرق صوفية ومساجد ومزارات . لعلى أشير إلى عصا موسى وخاتم سليمان ودورهما فى مقاتلة على بن أبى طالب للشيطان ، يظل احتدام المعركة حتى ينزل المهدى المنتظر من السماء على غمامة ، ومعه الملائكة ، فيفر الشيطان ، ويتبعه المهدى ، ويصرعه برمحه .

اخترت لأجزاء رباعيتى عن بحرى أسماء أولياء الله : أبو العباس ، ياقوت العرش ، البوصيرى ، على تمراز . لم تقتصر الرباعية على هؤلاء المتصوفة الكبار ، اكتملت بانورامية اللوحة بشخصيات مهمة أخرى فى دنيا التصوف : الخضر وكظمان ونصر الدين وعبد الرحمن ومنصور وعلى تمراز ، وغيرهم .

وفى روايتى «أهل البحر» أوردت ما لم يسبق لى تناوله فى الرباعية ، كرامات ومكاشفات لأولياء الله ، بعضها من اختراعى ، وإن اتصل السياق . أضفت ـ على سبيل المثال ـ شخصية سيدى الأنفوشى . استمعت إلى أكثر من رواية حول الاسم ، وما إذا كان لشخصية أجنبية ، إيطالية على وجه التحديد ، أم أنه لشخصية دينية غابت عنها الشهرة التى تحققت لأولياء الحى الآخرين ؟

التقطت أذناى ـ فى رحلتى بالقطار من الإسكندرية إلى القاهرة ـ قول شاب لأفراد أسرته :

ـ رافقت أصدقاء إلى سيدى الأنفوشى .

ولأنه ـ فيما يبدو ـ واجه استغراباً فى أعين أفراد الأسرة، فقد استطرد :

ـ الضريح أسفل قلعة قايتباى ، أكد لى أصدقائى أنه لولى الله الأنفوشى !

أعرف أن صديقى الشاعر والمفكر الكبير مهدى بندق يضع زيارة أضرحة أولياء الله ومقاماتهم فى موضع الخرافة، لكنه فاجأنى بموافقته على أن يصحبنى ـ بسيارته الصغيرة ـ إلى قلعة قايتباى : أنت تحتاجه لأحداث روايتك ، لكنك لن تجد شيئاً !

لم أجد إجابة من أى نوع عند المسئولين عن القلعة . استغربوا السؤال ، فالضريح أسفل القلعة لا يضم إلا الفراغ، ما لديهم من معلومات ينفى وجود موتى داخل القلعة .

أنقذنى عسكرى يقف على باب الحجرة الخالية إلا من ضريح يتوسط أرضيتها الترابية . روى لى حكاية الجندى الذى أعدمه السلطان قايتباى بتهمة الخيانة ، فلما عرف براءته أمر أن يدفن فى ضريح داخل القلعة . هذا هو ساكن الضريح ، تصور فيه نسوة الحى ولياً يشفى من العقم (لماذا العقم بالتحديد ؟). يأتين فى موعد صلاة الجمعة ، يتمرغن على الأرضية الترابية ، توسلاً بالخلفة .

أفردت لسيدى الأنفوشى ـ صار ولياً ! ـ فصلاً فى روايتى «أهل البحر». أفدت من حكى العسكرى ، وإن بدلت وحورت بالقدر الذى تتطلبه الحكاية الفنية .

●●●

كيف صار أولياء الله فى بحرى جزءاً فى حياتى ؟

أبو العباس المرسى هو ـ فى تسمية السكندريين ـ سلطان الإسكندرية ، نحن نقسم به : والمرسى ، ونغنى له : اقروا

الفاتحة لابو العباس .. يا اسكندرية يا أجدع ناس ، وحول مقامه نطلب النصفة والمدد ، ونروى عن مكاشفاته وكراماته ما قد يخطئه الحصر .

أول صورة فى ذاكرتى عمال بناء يحملون قطع الحجارة ، ويخلطون الخرسانة المسلحة . كانت تلك - كما عرفت فيما بعد - إعادة بناء الجامع فى أوائل الأربعينيات . الصورة شاحبة . جذبنى أبى ونحن نسير بالقرب منها ، فلم يتح لى أن أستكمل أسئلتى . اتسعت الصورة - فيما بعد - وتوضحت ، ألفت المئذنة والقباب والميدان الفسيح الممتد إلى البحر ، والميدان الآخر المفضى إلى السيالة ، والصحن الهائل الذى يسع مذاكرتنا ، ومصلى السيدات تدل عليه المشربية أعلى المكان ، والمقام بدائرة الزوار من حوله ، يستغيث أصحابها ، ويلتمسون ، ويتذللون ، يطلبون الشفاعة والنصفة والمدد .

أما ذلك الضريح - ولعله مقام - الذى يتوسط الحجرة المستطيلة ، الملاصقة لردهة الطابق الأول فى مدرسة البوصيرى الأولية . فقد أثار انتباهى طيلة العامين ، أو الثلاثة ، التى أمضيتها تلميذاً فى المدرسة ، قبل أن أنتقل إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية ، ثم - بفرمان أبوى صارم - إلى

المدرسة الفرنسية الأميرية .. ذلك الضريح شغلني في سني البوصيري الأولية وبعدها ، وتناثر هذا الانشغال في العديد من أعمالي الروائية والقصصية ، فضلاً عن الكتابات التي تنتسب إلى السيرة الذاتية .

وثمة ميدان الأئمة الذي اختفى بفعل فاعل ، شيدت - في الساحة ما بين مقامات الأولياء وبين جامع المرسي - بناية خرسانية هائلة ، شغلتها مطاعم ودكاكين حلاقة وملابس ومناديل رأس وإيشاربات وأقمشة وأحذية وأدوات تجميل وعطور ومشغولات عاج ، تبرير ما حدث هو توسعة الميدان ، (توسعته بإلغائه) .

قبل أن ترتكب الجريمة ، كنت أتنقل - متباطئاً - بين الشبابيك المعدنية التي تطل على مقام أولياء الله ، أنظر منها إلى مقامات الأولياء الاثني عشر . ينفصل الهدوء والسكينة في الداخل عن الصخب من حولي ، كأن المقامات جزر منعزلة ، لا صلة لها بالحياة الهادرة في الميدان ، الصمت السادر يعزل المبنى الصغير ذي الشبابيك المعدنية عن كل ما حوله .

ذلك ما كان يفعله عبد الله الكاشف في روايتي «البوصيري» ، الجزء الثالث من رباعية بحري ، يمضي في

جولة بين مساجد أولياء الله ومقاماتهم وأضرحتهم ، منذ يغادر بيته أول شارع الأباصيرى من ناحية ميدان أبوالعباس، يطيل التوقف أمام مقامات الأولياء الإثنى عشر ، ويقرأ ما تسعفه به ذاكرته من آيات القرآن والأدعية .

أما سيدى على الموازيني ، فمدفون في ضريح بداخل المسجد هو وابنه . ولعل فى تأخر اكتشافى لمقام سيدى محمد شرف الدين ، أول شارع رأس التين ، مبعثه ازدحام ذاكرتي البصرية بالعشرات من المقامات والأضرحة ، فى داخل بحرى أو خارجه . تعددت المزارات ، فلم أفطن إلى المقام الذى احتل ركناً فى جانب الشارع ، إلا بعد سنوات من رحيلى عن الإسكندرية .

●●●

مثلت الإسكندرية حلقة اتصال بين علماء الأندلس وطريق الحج إلى بيت الله الحرام . ربما مضوا إلى دول القارة الإفريقية التى بلغتها الفتوحات الإسلامية .

كانت «رباعية بحرى» ، ثم اللوحة التى تناولت فيها الشاذلى فى «أهل البحر» دافعاً لا لأقرأ ترجمة حياته فحسب، وإنما قرأت أقواله وأحزابه وأدعيته ، وهى كثيرة ،

مع ملاحظة أنه لم يقدم مؤلفاً كالشعرانى أو ابن عطاء الله على سبيل المثال .

ولعل أهم ما يحرص عليه مريدو الشاذلية، حفظ أحزاب الشاذلى بكل ما تضمه من حكم ومواعظ وابتهالات وصلوات ودعوات. وأهم ما يعتزون بأدائه حزب النصر الذى ألفه الشاذلى تقرباً إلى الله، وهداية لمريديه.

وقرأت أن بردة البوصيرى هى أفضل المدائح النبوية ، بعد قصيدة كعب بن زهير الشهيرة «بانت سعاد» . كنت أحاول تهجيتها - وأنا صبى - على جدران جامعه ، ثم أقبلت على قراءتها بعينى الرضا ، وجدت أنها تستحق الرضا فعلاً ، تستحق الثناء والتقدير على المستويين الإيمانى والفنى. وقرأت للبوصيرى قصائد أخرى تتجه إلى مدح الرسول .

من روايات المتصوفة أن أولياء الله يتولون بأنفسهم - بعد وفاتهم - خدمة مريديهم ، وأن السيد البدوى - فى رواية الشعرانى - كان يدعو لمولده مريدين من العرب والعجم ، وأن إعادته للأسرى كانت بعض كراماته .

ولكل أولياء الله ـ كما يقول النقشبندى ـ خصوصية وهمة فى الحياة والممات .

●●●

اللافت ـ فى حى الحسين القاهرى ـ كثرة اللوكاندات ، يتردد عليها زوار سيد شباب أهل الجنة من أبناء الريف ، أسعارها الزهيدة تجعلها مضرب الأمثال ، فأنت تعاير صديقاً بأنه لاينزل إلا فى لوكاندة المشهد الحسينى ، بمعنى قلة «دخول» المترددين عليها .

وفى المقابل ، فإن بحرى يكاد يخلو من اللوكاندات . ففيما عدا فنادق شارع النصر ، وأول شارع فرنسا ، والشوارع القريبة ، فإن أهل المدن والقرى القادمين إلى الإسكندرية ، طلباً لزيارة السلطان ، أو صاحب البردة ، أو ياقوت العرش ، وغيرهم ، يجدون فى الخيام والأكواخ والسرادقات شبه الثابتة فى الشوارع الصغيرة المتفرعة من ميدان أبو العباس ـ قبل أن ينقلب حاله ـ ملاذاً يريحون فيه أبدانهم ، ويتناولون طعامهم وشرابهم على نفقة شيوخ الطرق الصوفية .

ترام السكة الجديدة

أذكر أني كنت أسأل أبي عن مشوار إلى شارع السكة الجديدة ، مجرد أن أذهب إلى الشارع . أعرف المقصد الوحيد الذي سيطلبه أبي ، هو شوكت أفندي الحلاق ، يريد أبي موعداً كي يحلق عنده . ليس في الأمر استظرافاً ولا مبالغة ، فلم يكن الرجل يستقبل زبائنه إلا بموعد يحدد من قبل . ولأن التليفون المحمول لم يكن - ربما - قد طرأ في ذهن مخترعه ، وكانت التليفونات الأرضية مظهراً للوجاهة ، لا يقوى عليه إلا القلة ، فقد كان أبي يبعث بي إلى الصالون ، كي أحدد موعد زيارة أبي ليسلم له رأسه !

كان الرجل يسكن فيلا أنيقة بالقرب من مدرستي الفرنسية الأميرية بمحرم بك ، على الباب لافتتان : الأولى

باسم صاحب الفيلا، والثانية تحذر من خطر الكلاب. كان - في ذاكرتي - يخطو إلى السبعين ، ممتلئ الجسد ، بشرته البيضاء أميل إلى الحمرة ، وصلعته - التي شملت كل رأسه - تغنيه عن اللجوء إلى مهنته . لعله من بقايا العنصر التركي الذي شهد نهايته في الحياة المصرية ، منذ بدايات الحرب العالمية الأولى .

العرض الذي أقدمه لأبي ، بعيد عن غواية التعريفة التي كنت أتقاضاها مقابلاً للمشاوير إلى شارع الميدان . كان هدفي الذي أحبه ، ولا أعلنه ، هو ركوب الترام ذي العربة الواحدة من أول الشارع إلى نهايته . هي عربة ترام تختلف عن غيرها من العربات التي تقطع شوارع الإسكندرية بصغر الحجم ، وأنها تكتفي بنفسها . ما كان يجذبني إليها كراسيها المتقابلة ، وقلة عدد الركاب ، والمناقشات التلقائية ، كأنها تدور بين أفراد أسرة واحدة ، أشارك بالإنصات ، وأخلي التصور لعشرات الحكايات التي تدخلني عوالم لا أعرفها ، مغايرة لتلك التي أعيشها في شوارع بحري ، حتى زحام شارع الميدان بعمليته وصخبه ، يختلف عن الضبابية الحالمة التي تحيط بالترام الصغير ، وبي ، ما بين أول شارع

السكة الجديدة إلى قرب نهايته . تذكرني بحكايات جدي ، وبما كنت أقرأه فى مكتبة أبى من كتب التراث الحافلة بالسحر والخيال والأسطورة ..

أحببت الصعود إلى العربة العلوية فى ترام الرمل . يلفنى انبساط وأنا أجلس في المقعد المواجه للنافذة الزجاجية المستطيلة ، أرقب الميادين والشوارع الواسعة والبيوت والدكاكين والمقاهى والإعلانات والأسوار ، وقضبان الترام ـ فى استقامتها وانحناءاتها ـ تندفع إلى الخلف ، على جانبيها الخضرة والأعشاب البرية المتناثرة ونبات عباد الشمس بصفرته الوهاجة .

كان ذلك ما يفعله الراوى فى روايتى «غواية الإسكندر» .

وكان الترام وسيلة تنقلى بين بحرى وأحياء الإسكندرية الأخرى . لم أستقل الأوتوبيس إلا لأماكن يغيب عنها الترام . يقلنى الترام من المحطة أمام قهوة فاروق إلى محرم بك ، حيث مدرستى الفرنسية الأميرية والإسكندرية الثانوية ، مشوار يومى ألفته إلى حد الإحساس بالرتابة ، وربما الملل . الطريق هو هو ، شوارعه وميادينه وانحناءاته والدكاكين على الجانبين ، كل شيء يتكرر كأنه مشهد يعاد عرضه . أنشغل

بالعادة التى لا أذكر متى صارت جزءاً فى تكوينى ، فأنا أجعل المواصلات مكاناً للقراءة . أعزل نفسى عما حولى ، وأنغمس فى قراءة كتاب ، لا أرفع رأسى إلا لمتابعة مناقشة حادة بين الكمسارى وأحد الركاب ، أو ما يستدعى الالتفات فى الطريق . حتى لو أغمضت عينى، بتأثير سهر الليلة الفائتة، فإنى أطمئن إلى محطة الوصول . وحين استضافنى البرنامج التليفزيونى «رائحة المكان» الذى أبدعه الفنان سيد شلبى ، فقد حرصت أن أبدو كأنى أهم بركوب الترام .. عشرة قديمة لم أنسها !

أخترق شارع الميدان إلى تقاطعه مع شارع السكة الجديدة . عربة الترام الوحيدة فى وقفتها - غالباً - كأنها تنتظرنى .

الشعور بالنشوة يتملكنى ، ونظرتى تجول بين الركاب (لم يزيدوا مرة عن عدد أصابع اليدين) والمحال على جانبى الشارع حافلة بالبضائع : البقالة وأجولة العطارة وصناديق الفاكهة ومشغولات النحاس وقطع الغيار وورش الحدادة والمطاعم والمقاهى الصغيرة ، وثمة مزيج لروائح البخور والفلافل والكباب والكفتة والمكرونة (لم تفتح محال الكشرى

فى الإسكندرية إلا متأخراً) وقلى الأسماك . يبدو لى كل شيء - ربما للترام ، ولضيق الشارع - مغايراً لشارع الميدان. يضيف إلي ضبابية الصورة - أحياناً - مشيعو جنازة ، أسرعت خطواتهم وراء النعش لإكرام الميت بدفنه قبل أن يحل المساء ، يتداخل المشهد الطارئ ، الصامت ، فى عمومية المشهد ، كأنه حلم .

اختفي الترام - فيما بعد - ورفعت القضبان ، تحول إلى ذكرى ، أستعيدها حين يعرض التليفزيون عربات مماثلة فى مدن العالم .

لم يغب الترام الصغير - وحده - من حياة السكندريين . اختفت مظاهر أخرى كثيرة ، كانت تضيف - بالنسبة لى فى الأقل - مغايرة جميلة ، مثل الجولة الصباحية لخيل الملك ، وجلوات المولد ، وموسيقا الشرطة فى عروضها بشوارع المدينة ، والصواريخ الملونة فوق السلسلة .

الزحام الذى تعانيه الإسكندرية الآن ، جعل أهلها يأملون فحسب أن تسعهم الشوارع - مشاة وراكبين - بما يعينهم على قضاء أعمالهم .



لا أذكر المرة الأولى التي ركبت فيها الترام بمفردى . اعتدت رفقة أبى فى زيارات لأماكن وأصدقاء ، وحدى أو مع أخي الأكبر . زرنا بيت عمتي في شارع ابن طريف بمحرم بك ، وبيت عمى في شارع أمير البحر بالحي نفسه ، وبيت عمتي (ماتت وأنا طفل ، فلا أذكرها) نلتقي وديدة وعدولة ابنتي عمتي الراحلة ، وأباهم عم كمال ، وابنتيه من زوجته الأولى ، الراحلة .

صحبني أبى كذلك إلى الشركات التي كان يعمل بها : الجراية للورق، كورى للأقطان، شركة التأمين الأهلية. تعرفت إلى عدد من مسئولى الشركات الثلاث ، ورافقته إلى سراى الحقانية ، عرفني بالشاعر عبد اللطيف النشار ، وبالمحامى والسياسي أحمد مرسي بدر، زرناه فى مكتبه بشارع شريف باشا، وعرفني بأصدقاء آخرين، يقيمون فى مواضع مختلفة بالإسكندرية ، وكان الترام وسيلة بلوغي أماكن تلك الشخصيات. وأظن أنى أفدت من ذلك كله في العديد مما كتبت، مثلاً : رواية «حكايات الفصول الأربعة»، وقصة «نبوءة عراف مجنون» .

لكن ركوبي الترام - بمفردى - للمرة الأولى ، عندما توجهت إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية فى شارع متفرع

من شارع الإسكندرانى بمحرم بك . أمضيت فيها أياماً قليلة، قبل أن يصدر أبى فرماناً بنقلى إلى المدرسة الفرنسية الأميرية بشارع المأمون، المتفرع من الرصافة. وجد فى الفرنسية لغة للمستقبل، وهو ما ثبت خطؤه فيما بعد - كما نرى - فقد أوشكت الإنجليزية أن تبتلع لغات العالم ، حتى الفرنسية تعانى أزمة معلنة.

ولأنى كنت اعتدت ركوب الترام مع أبى، فقد ظل الشعور بالاعتيادية فى داخلى، حين ركبت الترام للمرة الأولى، وأنا أحفظ الطريق إلى مدرستى الجديدة - آنذاك - الفرنسية الأميرية فى نهاية شارع المأمون بمحرم بك. ثم أصبح ركوب الترام بتذكرة القرش - ذهاب وإياب - تصرفاً يومياً فى ذهابى إلى المدرسة ، وعودتى منها ، أشاهد ، وأستمتع، وأتأمل، وأكتسب معارف وخبرات .

كان الحدث الأهم فى علاقتى بالترام ، عندما واجهت الموت ، بعد أن قفزت على السلم فى أثناء سير الترام، لكن قدمى أخطأت الموضع، وسقطت فى الفراغ، ولولا أنى تمددت فى المساحة بين الرصيف والقضبان، ربما كنت فى خبر كان وهو ما سأرويه فى أسطر تالية.

عرفت ـ فيما بعد ـ أنى نجوت ـ ذلك اليوم ـ من المصير الذى لقيه زميل لى بالمدرسة ، حاول ـ مثلى ـ أن يقفز على سلم الترام، فأخطأ القفزة ، وشطرت عجلات الترام ساقه . ظل ينزف في موضعه ، وحين وصلت سيارة الإسعاف كان قد مات.

●●●

لماذا اختفى الترام من شوارع القاهرة أو كاد ، بينما الترام ملمح رئيس فى وجه الإسكندرية ؟

ظنى أن زحام القاهرة كان له تأثيره ، ليس فى اختفاء الترام فحسب ، وإنما فى اختفاء وسائل نقل أخرى ، مثل عربات الحنطور وعربات الكارو إلخ .. والسبب ـ فى تقديرى ـ هو الزحام الذى شهدته القاهرة خلال العقود الأخيرة ، حتى مترو مصر الجديدة ، اختصرت مسافة النهاية ، فلم يعد يشق شارع الجلاء إلى كورنيش النيل . اقتصرت محطة النهاية ـ أو البداية ـ على ميدان رمسيس . أما ترام الإسكندرية فهو ملمح مهم فى الحياة السكندرية ، قد تمتلك سيارة خاصة ، أو تستقل الأوتوبيس ، أو تفضل السير ماشياً ، لكنك تلجأ ـ فى أوقات ما ـ إلى الترام ، سواء فى داخل المدينة ، أو فى منطقة الرمل ، يقلك من ناحية إلى أخرى.

الشوارع التى يخترقها ترام الرمل ، تأذن له بالسير إلى جانب وسائل المواصلات الأخرى ، بينما معظم شوارع المدينة واسعة نسبياً ، فهى تسمح بمد قضبان الترام دون خشية على حركة المرور ، وثمة شوارع يهمل السكندريون ضيقها ، لأنهم يحتاجون إلى الترام فى معظم تنقلاتهم .

●●●

للترام وجوده فى العديد من أعمالى. أذكر - على سبيل المثال - عندما تملكنى التردد - لثوان - والترام يزيد من سرعته، بعد أن غادر محطة الصينية بمحرم بك إلى محطة الرصافة . كنت قد اخترقت شوارع جانبية من مدرستى - الفرنسية الأميرية - لأركب الترام من أوله . أغرانى قيام الترام قبل أن أصعد إليه بأن أقفز داخله . جاوزت سرعته ترددى . اندفعت أقبض - بيد - على القائم الحديدى ، بينما اليد الأخرى تحمل حقيبة الكتب ، لكن قدمى أخطأت السلم . انحشرت بطولى فى الفجوة التى تخلفت من عمليات صب خرسانة بين قضيب الترام وأسفلت الطريق . حلت لحظة سكون ، لا صلة لها بانطلاق عجلات الترام الحديدية بجوار جسدى المكوم داخل الحفرة الطولية ، ولا بالكتب التى تناثرت

من الحقيبة . غاب التذكر والرؤية والإحساس باللحظة والخوف والأمل، حتى الصراخ خنقته قوة في داخلي لا عهد لي بها. تنبهت - بعد زمن - إلى أن الترام مضى بعيداً ، فعدت إلى نفسي.

أذكر المرأة التي لمحتها في انحناءة الترام من شارع النبي دانيال إلى شارع السلطان حسين . كانت تضع على صدرها أكياساً من الورق ، يطل منها خضار وفاكهة. اجتذبني الوجه الأبيض المشرب بحمرة ، والشعر المسدل في إهمال ، والجبهة المنداة بعرق خفيف ، والعينان الواسعتان الصافيتان ، تظللهما رموش واضحة ، والأنف الدقيق ، والشفتان الرقيقتان . وكانت ترتدي فستاناً واسعاً ، وحذاء بدون كعب . ظلت الملامح في ذهني حين عدت إلى البيت . استعدت الوقفة والأكياس المحتضنة ، وظللت أستعيدها ، تنبثق في رأسي كالومضة ، ثم تختفي ، وتظهر بعد فترة تطول وتقصر ، ثم تختفي. مضت أعوام كثيرة ، ومازلت أستعيد صورة المرأة في انحناءة الترام ، كأني رأيتها أمس .

وفي روايتي «غواية الإسكندر» لم يعد نزول الأستاذ الجامعي وليد شكري إلى الطريق للذهاب إلى مكتبه وحده ،

ولا إلى مواقع التنقيبات . يحرص ، فيغيب عن البيت، يمضى الوقت فى تأمل الأماكن ، والسير بلا هدف . تتفرع أمامه الميادين والشوارع. تختلط المعالم والرؤى والتوقعات. أصعد إلى الدور الثانى من ترام الرمل، أجلس فى المقعد الأمامى، تبين الشوارع باتساعها، البيوت والدكاكين والمقاهى وقضبان الترام فى استقامتها وانحناءاتها. على جانبيها الخضرة ونبات عباد الشمس بصفرته الوهاجة. يستقل ترام الخط الدائرى، والأوتوبيس من بدايته فى ميدان المنشية إلى نهاية الخط، ويعود. لا يشغله المسار الذى يمضى فيه، ولا المحطة النهائية. يظل فى جلسته حتى يعود إلى بداية الخط. يمضى فى الشوارع الضيقة، المنحدرة ، ناحية البحر. ولما أحيل الأب رجب كيرة إلى المعاش، من وظيفته فى شركة الترام (رواية «صخرة فى الأنفوشى ») كان قد خلفه ابنه الأكبر مدحت فى الوظيفة نفسها. وظل الرجل سعيداً بالأبونيه المجانى للترام، حتى أنه كان يستقله فى المسافة القصيرة ما بين قهوة فاروق وجامع أبو العباس.

أودة القعاد

كنا نسميها أودة (حجرة) القعاد . تطل ـ من الواجهة ـ على امتداد شارع إسماعيل صبرى إلى الكورنيش وأفق البحر ، وإلى اليمين امتداد الشارع إلى شارع الميدان وسيدى العدوى والترسانة البحرية . ومن اليسار شارع رأس التين إلى الموازيني وأبو العباس وأبو وردة وباب الجمرك رقم واحد وميدان إبراهيم باشا ومقابر البطالمة وسراى رأس التين .

لم تكن أوسع حجرات الشقة ، لكنها استحقت تسميتها بجلوسنا الدائم فيها ، ننام ، ونأكل ، ونلعب ، ونقرأ . أثاثها كنبة عريضة لصق الجدار المواجه للبحر ، وفي المدخل بوفيه ضخم يمتد إلى نهاية الجدار ، تعلوه رخامة يتداخل فيها الأبيض والبنى ، وله ستة أدراج مستطيلة ، تتجاور فى

صفين . على رخامة البوفيه كتب أبى برقية من كلمتين «خديجة توفيت» . وطالبنى أن أحمل الورقة إلى مكتب التلغراف فى شارع فرنسا . كان موظف المكتب صديقاً لأبى، فأبدى تأثره .

فى مساء اليوم نفسه ، سبق الصوات جدتى وهى تقترب من باب البيت ، عرفت أنها تسلمت البرقية . بعد ظهر اليوم التالى ، بدت الحجرة خالية من الأثاث ، عدا سجادة افترشت الأرضية .

قال أبى فى ضيق :

- ماذا أفعل لجدتك ؟!.. أصرت على المعددة !

روت لى شقيقتى ما جرى فى الحجرة من طقوس العديد .. كلمات منغمة ، حزينة ، تنعى الراحلة - أمى - وإن لم تحسن شقيقتى التقاط عبارة واحدة من كلمات العديد !

كان للحجرة شرفتان ، الأولى تطل - يميناً - على شارع فرنسا ، ويساراً على شارع رأس التين ، وفى المواجهة امتداد إسماعيل صبرى إلى تقاطعه مع التتويج ، فطريق الكورنيش . تحد مساحة البحر المتاحة للرؤية آخر بنايتين فى أول إسماعيل صبرى .

للشرفة الثانية تطل ـ من الوسط واليمين ـ على شارع إسماعيل صبرى ، ومن الوسط واليسار على شارع فرنسا . معظم الأيام مغلقة ، لا نفتحها إلا استجلاباً لتيارات الهواء أوقات الصيف ، أو لمتابعة الفرجة على المواكب القادمة من شارعى الأباصيرى ورأس التين : المظاهرات والجلوات والموالد والعربات المحملة بأثاث العرائس . قد يختار نافخ النار أو الحاوى أن يقف أسفلها لعرض ألعابه . نتلاصق خلف سور الشرفة الحجرى ، نتابع اتساع الدائرة حتى ينتهى العرض .

بعد رحيل أبوى صرت ـ بالطبع ـ أكثر حرية ، أقف وراء كل شرفة بالقدر الذى يتاح لى مشاهدته من صور الحياة حول البيت .

فى الركن ـ ما بين الشرفة المطلة على الميناء الشرقية ، والثانية المطلة على شارع إسماعيل صبرى ـ مكتبة تمتلئ بالكتب ، كانت ـ كما رويت لك ـ هى مدخلى الحقيقى إلى دنيا القراءة .

يعود أبى من عمله ، فيقل ترددنا على الحجرة . ربما لا ندخلها . يجلس أبى على كرسى بالقرب من المكتبة ، يوسد

ساعديه على كرسى آخر ، وإلى جانبه طاولة صغيرة ، فوقها سبرتاية وكنكة وأكواب صغيرة . يصنع لنفسه - بين فترة قصيرة وأخرى - كوباً من القهوة ، ثم يستأنف النوم . ربما تسللت إلى الشرفة ، أطل على حركة الطريق ، وإلى أفق البحر . قد أقلب فى المكتبة ، وأعود بكتاب لأقرأه .

قيمة القراءة أنها تنقلك - دون أن تترك مكانك - بين بلاد ومدن وقرى وصحارى وجبال وسهول ووديان وغابات وبحار ومحيطات ، مالا تعرفه من الأمكنة . أداتك في التنقل - إلى جانب القراءة - حصيلتك المعرفية ، وخيالك .

كانت أيام طه حسين أول ما قرأت من كتب أدبية . كنت فى حوالي الثامنة . أمكننى الفهم فى القراءة الثالثة ، وكانت الرواية / السيرة الذاتية هى الدافع - كما أشرت من قبل - كى أكتب محاولتى الأولى «الملاك» . ثانى كتاب قرأته عن الحياة الجنسية ، مؤلفه فائق الجوهرى المحامى . التقيت بالاسم فى أعمال كثيرة سابقة وتالية . لم أكن أدركت البلوغ، لكن العنوان اجتذبنى . سحبت الكتاب ، وحاولت أن أركز لأفهمه ، وأن أعاود القراءة . نسيت كل ما قرأته ، لكننى أتذكر معلومة وحيدة أشار إليها الكاتب فى سياق السرد .

لأن الرجل في الغابة لا يرتدي ثياباً من أي نوع ، فإن عضوه الذكري لا يطول - في لحظات الإثارة - إلا قليلاً ، هو طويل حتى في أوقات الاسترخاء والبعد عما يثير !

تعددت قراءاتي في الحجرة وتنوعت ، بقدر تعدد الكتب في مكتبة أبي وتنوعها . كانت اقتصادية باعتبار مهنة أبي كمترجم في الاقتصاد ، وإن ضمت كتباً في التراث والأدب والسياسة والتاريخ والجنس ، وخلت تماماً من كتب الأطفال التي كنت سأسعد لو أني عثرت على أي كتاب منها .

منذ تلك الأيام البعيدة ، صارت المكتبة تكويناً مهماً في شخصيتي . أحب التردد على المكتبات ، والوقوف داخلها ، وتقليب الكتب ، وقضاء الساعات في القراءة وتسجيل الملاحظات . مجرد أن أكون في داخل مكتبة ، يشعرني بالأسرية ، بالحميمية ، أني في مكان يخصني .

أذكر قول محمود الشنيطي وأنا أبحث عن قراءات في مكتبة بهيئة الكتاب : أثق أنك أحببت القراءة قبل المراهقة ، المراهقة تثبت ما نحبه ، الرياضة ، القراءة ، العادات اليومية، إلخ ، هذه الفترة ما بين الرابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين تشكل الشخصية بما يصعب تغييره .

أحببت القراءة بالفعل منذ الطفولة : في مكتبة أبي المطلة على الميناء الشرقية ، وفي بيوت الأصدقاء والجيران ، وفي دكان حمادة الفن بائع الصحف بشارع إسماعيل صبري ، ومكتبة فارس بالقرب من فرن حبيب وانحناءة الترام في تقاطع صفر باشا ورأس التين . أقسو على نفسي لكي أواصل القراءة . يغلبني النوم ، وقد يسقط الكتاب من يدي ، ألتقطه ، وأنفض رأسي ، وأفتح عيني على اتساعهما ، وأقرأ . لا أقرأ وفق خطة محددة ، ما تصادفه يداي ، كتب في الدين والسياسة والتاريخ والاقتصاد والطب والتجارة والأدب والفن .

في أثناء القراءة ، أضع خطوطاً تحت العبارات التي تستوقفني - وهو ما أفعله حتى الآن - أو أضع الخطوط إلى جانب الأسطر إن طال التعبير الذي اجتذبني . ربما سجلت ملاحظات تعينني - في قراءة تالية - على فهم المعنى الذي توصلت إليه . ربما اكتفيت بالقراءة السريعة أو بالتصفح ، لكن دواوين الشعر والروايات والمجموعات القصصية تشدني ، فأطيل القراءة ، أستعيد الفقرات والتعبيرات والمواقف ، أشعر أنها دنياي المفضلة .

مع أن أبى كان قارئاً جيداً ، فإنه كان يرفض أن أقرأ ما لا يتصل بالمواد الدراسية . يخشى أن تشغلنى عنها كتب أجدها فى مكتبته للمنفلوطى وطه حسين والعقاد والمازنى وفائق الجوهرى وغيرهم .

صدر أول أعداد الرسالة فى ١٩٣٣ ، وصدر عددها الأخير يوم الاثنين ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . رغم صغر سنى - نسبياً - آنذاك ، فإنى أذكر مقال طه حسين ذى العنوان المفعم بالدلالات ، عقب إغلاق الرسالة أبوابها نهائياً . وأذكر مقال الزيات الذى يفيض شجناً وحسرة «وأى بأس»؟. وقد نشر المقالان فى الأهرام ، أهم ما كان أبى يحرص على اقتنائه - بالإضافة إلى " المصرى " - من الصحف اليومية .

وعلى الرغم من أن سلسلة روايات الهلال قصرت إصداراتها من الروايات العالمية على الملخصات، فإنها أتاحت لى آفاقاً غير محدودة من الوعى، وملامسة الخيال الجميل . كانت هى المدخل الحقيقى لقراءة الروايات الكاملة، أدت الدور نفسه الذى قامت به مسامرات عمر عبد العزيز أمين وكتاب حلمى مراد.

كنت أقف - أحياناً - على باب الحجرة ، أو أجلس على الأرض بين أصحاب أبى ، يتناثرون على الكنبة وكراسى المائدة المنقولة من الصالة ، يخوضون في مناقشات عن الجو ومواعيد النوات وغلاء الأسعار ومباريات كرة القدم وحزب الأغلبية وأحزاب الأقلية والملك وأفعال اليهود في فلسطين . ألتقط ما يسهل فهمه ، وأحاول - بيني وبين نفسى فهم ما قد يكون غامضاً .

أذكر - على سبيل المثال - أنى لم أكن أعرف الفرق بين روسيا وسوريا ، وأنطق القدس بفتحة على القاف ، والحمل بسكون على الميم ، لكننى - على نحو ما - كنت أعى الأسماء والأحداث والتطورات ، والصلات بينها ، ولماذا يؤيد أبى وأصدقاؤه هذا التصرف من هذا الزعيم السياسى ، وينتقدون التصرف نفسه من زعيم آخر ، والمأساة التى تهدد بابتلاع أرض فلسطين ، وهجمات البدو على قوافل الحجاج المتجهة إلى الحجاز ، والفرق بين أداء الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت ، ومعنى فوز فريق كرة السلة المصرى ببطولة أوروبا ، ويجيبون عن السؤال : ما صحة الشائعة التى تذهب إلى أن محمود شكوكو يتقاضى مبلغاً شهرياً من

إسماعيل يس حتى يتيح الأول للثانى فرصة العمل فى ظل انتشار شكوكو المفاجئ ، الكاسح ، حتى بيعت تماثيل حلوى فى هيئته على عربات اليد ، شكوكو بتعريفة !

كنت أتجاسر ، فلا أكتفى بالسؤال ، وإنما أحاول التعبير عن رأى فى المناقشات المحتدمة . يكتفى أبى بدلائل إعجاب صامتة ، ويثنى أصدقاء له على وجهة نظرى ، ويرى آخرون أن المشاركة بالسماع هى الدور الذى يجب ألا أجاوزه .

إذا كان أبى خارج البيت فإن جلساتنا فى الحجرة تطول، ننشغل بالكلام والمذاكرة والقراءة وتناول الطعام ، وننام - أحياناً - متجاورين على المكتبة العريضة .

أجمل المشاهد حركة القوارب فى المينا الشرقية لصيد المياس ، صيد العصارى . ظنى أن التسمية لأن الصيد فى ذلك الوقت من النهار . وسيلة الصيد الوحيدة - كما كنت أراها - هى الطراحة ، يقذف بها الصياد من فوق قاربه الصغير ، فى دائرة صغيرة ، ثم يسحبها بما يكون داخلها من سمك المياس . بالمناسبة ، فإن السمك ليس من أكلاتى المفضلة . أستبدل بالسمك المشوى أو المقلى الذى تعده أمى ، طبق فول بالزيت - بمليمين - من الطنطاوى فى شارع التتويج

.. لكنني أحببت المياس ، منذ أوقات صيده حتى تحوله إلى طبق شهي بين طبقات من شرائح البطاطس .

أذكر أني كنت أتساءل : كيف يعيش أبناء المدن الداخلية في مصر دون أن يشاهدوا البحر ، بل كيف يعيش سكان أحياء الإسكندرية البعيدة عن البحر (وهي - في الحقيقة - أحياء قليلة) دون أن يكون البحر في مرمى أنظارهم .

البحر ، الأفق ، البرتقالة الهائلة التي تغوص في البحر ، دائرة من الألوان المتداخلة ، وإن غلبت الحمرة ، تشحب وتتقلص ، وتغيب ، فتحل الظلمة ، يأتي الليل ، وتتجه عيناك إلى حيث القمر ، يواصل رحلة النهار والليل .

●●●

.. رحلت أمي ، ثم لحق بها أبي . اختزلنا الشقة في حجرة القعاد ، لا نكاد نتركها . ظل كل شيء في مكانه ، وإن وضعت مكتباً صغيراً إلى جوار الكنبة ، وضعت فوقه ما يهمني من مكتبة أبي ، وقصرت أوقات القراءة والكتابة فوقه . صار تنقلي في حرية بين الشرفتين . وحين تناوشتني رغبات المراهقة ، أكثرت من التطلع إلى ما بداخل الشقق المواجهة ، وإلى عابرات الطريق ، ربما تمازج الخيال واليد الصاخبة في صنع النشوة .

لم أكن أعرف أن الفعلة التى ألتذ بها هي العادة السرية ، لم أحاول حتى أن أربط بينها وبين ما قرأته لفائق الجوهرى فى مكتبة أبى عن العادة السرية . ثم قرأت ـ فى صحيفة الحائط بمدرسة الإسكندرية الثانوية ـ حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) يحذر فيه من يمارس الاستمناء بأنه سيدخل النار ويده حبلى .

سألت ، ففطنت إلى أني ـ إن لم أتب حالاً ـ فسأكون أحد هؤلاء الذين يدخلون النار بأيديهم الحبلى !..

كنت أطل من شرفة حجرة القعاد ، البحر يمتد بلا أفق ، وخيالاتى تمتد فى الأفق اللا محدود كذلك ، يساعدنى على الاختلاء بنفسى أني كنت أدّعي التفرغ للمذاكرة ، وأغلق باب الحجرة من الداخل ، وأواجه البحر ، وخيالاتى، لحظات . تختلف عن كل ما عشته من قبل.

بدت لى عالماً غريباً، حافلاً بالرؤى والأخيلة والأسرار المتجددة.

كانت وقفتنا تطول وراء الشرفة فى متابعتنا للمناسبات الدينية : صلاة الجمعة التى تجتذب خطب الشيخ عبد الحفيظ

ناسـها ، يمتلئ بهم ميدان الخمس فوانيس أسفل البيت ، ويمتد الحصير إلى عمق الشوارع الجانبية ، صلاة العيد ، سوق العيد ، الجلوات القادمة من مولد أبو العباس ، مواكب الطرق الصوفية بالبيارق والأعلام والدفوف والطبول والرفاعية والحواة والمنشدين ، استقبالات الزعماء والرجال المهمين من باب رقم واحد عبر شارع أبو وردة ، وشارعى رأس التين وفرنسا وميدان المنشية وشارع شريف ، إلى ميدان محطة الإسكندرية .

أدركت - في لحظة لا أذكرها - أن الحجرة هي صلتى الحقيقية بالعالم الخارجي . أطل منها على الجيران فى البيوت المقابلة والجانبية ، وعلى أحوال البحر فى تقلباتها المختلفة ، والباعة أمام الدكاكين ، وعلى الأرصفة ، وحركة الطريق . اختزلت العالم فى مساحة الحجرة المحددة ، والمحدودة . أشاهد ، وأستمع ، وأتأمل ، وأقرأ ، وأكتب ، وأمنى النفس بمصادقة المستحيل .

حجرة القعاد شخصية رئيسة في العديد من أعمالى الروائية والقصصية . رواية " صيد العصارى " - على سبيل المثال - التى استعدت فيها الصلة بين البحر وبينى . أطل من

الشرفة - في أوقات العصر - على قوارب الصيد الصغيرة ، وهي تصيد المياس .

لماذا وقت العصر ؟ ولماذا سمى المياس صيد العصارى ؟

لم يشغلنى المعنى ، وإن خلّفت فى وجدانى تلك العلاقة المحددة بوقت محدد ، تأثيرات يصعب إهمالها ، وانعكست - فى كتاباتى - على العديد من الشخصيات والمواقف والأحداث .

●●●

بعد أن تركت البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى ، تبينت - آسفاً - غياب صورة واحدة لى فى أودة القعاد ، وفى الشقة جميعاً . ليس إلا صورة واحدة التقطها مصور أتى به أبى . وقفت إلى جانب سميرة وعلى فى جانب الطريق ، أمام البيت ، من حولنا جيران ومارة

تمنيت لو أنى صحبت معى إلى القاهرة صورة لى فى داخل الشقة ، أعود إليها فأتذكر أجمل سنى العمر ..

رباعية بحرى:
..تجربة شخصية

إذا الإنسان طاف حول الإسكندرية في الصباح
فإن الله سوف يصنع له تاجاً ذهبياً
مرصعاً باللآلئ
ومعطراً بالمسك والكافور
يشع الضوء شرقاً وغرباً
«ابن دقماق»

بداية ، أنا لم أكتب عن البحر ، ولا عن الصلة بين البحر واليابسة ، وهو ما يبين فى الكثير من إبداعاتى الروائية والقصصية ، لم أكتب لطرافة الموضوع ، وإنما لأنه لم يكن بمقدورى سوى الكتابة عن البحر . لم يكن فى صلتى بالبحر أول مرة ، لأنى ولدت ، ونشأت ، على شاطئه . البحر يحتضن

الإسكندرية من معظم جوانبها ، ويحيط بحى بحرى من ثلاث جهات ، كان هو المكان الذى تطل عليه شرفة بيتنا ، ويطل السطح على امتداد آفاقه . كنت أسير على شاطئه ، وأتابع التعامل اليومى معه فى صيد السنارة والطراحة والجرافة ، وعمليات الشحن فى الميناء الغربية ، وركوب البحر نفسه فى قوارب صغيرة تعبر المسافة من باب واحد إلى باب رقم ستة، أو فى لنشات تمضى إلى قرب البوغاز . حتى فى الظلام ، كنت أستمع إلى البحر ، وإن كنت لا أراه . أتذكر قول رامبو: إنه البحر وقد رحل مع الشمس .

البحر ليس موضوعاً طارئاً فى حياتى . إنه الحياة نفسها - والموت أيضاً . كما سأحدثك حالاً - وعلى الرغم من انقضاء عشرات الأعوام على ابتعادى - بصورة عملية - عن الإسكندرية ، فإنى أفضل - حتى الآن - أن تدور أحداث أعمالى فى بحرى ، لأنى أشعر أن الحى تحت تصرفى . أعرف تاريخه وأسواقه وشوارعه ومساجده وبناياته وسلوكيات حياته اليومية . أعرف المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد . حتى مسميات الأشياء واللهجة هى وسيلة التعبير

عندى . حتى مستطيلات البازلت التى تتفق فيها مع المدن الساحلية الأخرى ..

البحر عند الشخصيات الأدبية بعامة ، مبعث للتأمل الرومانسى ، ولقضاء إجازة الصيف . البحر عند شخصياتى مصدر للرزق . يحصلون على قوت أيامهم بالعمل فيه ، والإفادة من تنوع خيراته ، وتشقيهم أحواله من نوات وعواصف ورياح ، حتى أنه يختطف البحارة والصيادين - أحياناً - من فوق بلانساتهم (البلانس هو سفينة الصيد الكبيرة) ويغيبهم فى أعماقه ، ويعطى الموروث الشعبى تأثيراته التى تدين - غالباً - للخرافة . البحر مرادف للحياة بعامة فى الأعمال الإبداعية ، فهو يتسربل بالسحر والخرافة والأسطورة . أما البحر فى أعمالى ، فهو مرادف للحياة والموت فى آن . قد يكون حصيرة - بلغة أهل الإسكندرية ، فيتاح ركوبه ، والحصول على الرزق من أعماقه . وقد يعانى النوات والعواصف والرياح ، فتنعكس معاناته على من يركبونه ، أو يقفون على شاطئه ، بحثاً عن الرزق . ولعلى أذكر قول سان جون بيرس : «ليكن مشهد البحر دافعاً لوعود بأعمال جديدة ، أعمال حية وجميلة ، لا تكون إلا جميلة وحية،

أعمال متمردة مندفعة ، تخلق لنا ـ من جديد ـ طموح الحياة الإنسانية» .

●●●

كنت أتحدث فى المركز الثقافى الإيطالى عن الإسكندرية ، وحى بحرى بخاصة . لاحظت ـ بدا لى الأمر كأنى أكتشفه للمرة الأولى ! ـ أن أبناء بحرى ينتمون إلى الطبقات ما بين الدنيا ، وما فوق المتوسطة ، فهم يعملون فى صناعة المراكب والصيد وبيع السمك وأعمال البحر وشركات التصدير والاستيراد ، وهم حرفيون وتجار ومهنيون .. لكن أصحاب رءوس الأموال الكبرى ـ وكبار الاقتصاديين بعامة ـ يفضلون السكنى فى منطقة الرمل . لذلك فإن بحرى يخلو إلا من قصرين متقابلين ، أحدهما سراى رأس التين الذى بناه الخديو إسماعيل فى أواسط القرن التاسع عشر ، وهو الآن أحد قصور الدولة . وفى مواجهته قصر آخر ، صغير ، للسيدة عصمت محسن حفيدة حسن باشا الإسكندرانى ، والتى كان يطلق عليها ـ لا أدرى من كان وراء التسمية ـ لقب أم البحرية . فيما عدا قصرى رأس التين وأم البحرية (أزيل القصر الثانى ـ فيما بعد ـ وشيدت فى موضعه بناية سكنية)

فإن ملامح بحرى المعمارية قوامها بيوت قصيرة ، متآكلة ، متلاصقة ، وبنايات متوسطة ، وما فوق المتوسطة . ثمة الأقل من البنايات الفاخرة ، لكن النسق المعمارى لحى بحرى ينتمى - فى معظمه - إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا ..

●●●

أحب كامى البحر ، ولا أعتقد أن أحداً من الأدباء الفرنسيين عبر عن مشاهد طبيعة البحر المتوسط مثل كامى - وثمة ملفيل فى عمله الضخم «موبى ديك» ، وجوزيف كونراد الذى اتخذ البحر موضوعاً للعديد من رواياته ، وأشهرها رائعته «قلب الظلام» .. وثمة من الأدباء العرب صالح مرسى وحنا مينا وغيرهم ..

وحي بحرى بالإسكندرية هو الأرضية لمعظم ما كتبت من إبداعات . وقد أردت فى رباعية بحرى بأجزائها : أبو العباس - ياقوت العرش - البوصيرى - على تمراز ، أن أكتب فصولاً مستقلة ، تتكامل فى تصوير حى بحرى الذى أحببته ، وامتداده الطبيعى إلى المكس ، أو إلى الرمل ..

قوام الرباعية هو الحنين إلى الماضى، إلى الزمان الماضى،

والمكان الماضى . الجو حافل بالأسطورة والصوفية والرموز والخوارق والتأملات الميتافيزيقية والتطلع والخنوع وطلب المدد..

أقدمت على الكتابة ، وفى داخلى أصداء من جسر على نهر درينا لإيفو أندريتش ، ذلك الجسر هو البطل فى رواية أندريتش . أزمعت أن يكون حى بحرى بالإسكندرية هو البطل فى الرباعية ، أن أكتب فصولاً مستقلة ، لوحات ، تصور الحياة فى الحى عقب الحرب العالمية الثانية . لا صلة بين الكثير من اللوحات ، فلا يكاد القارئ يتبين ما يربط بينها . عنيت بالوحدة الداخلية ، سواء على مستوى المكان ، أو الشخصيات ، أو الجو العام ، بحيث تتكامل الفصول ـ أو اللوحات ـ فى بناء روائى يهبنا لوحة متسعة الأبعاد والتفصيلات لهذا الحى الذى عشت فيه طفولتى وصباى وشبابى الباكر . ومازلت أحيا فيه ـ رغم البعد ـ ويحيا فىّ ، حتى الآن .

حين بدأت فى كتابة أجزاء رباعية بحرى ، كان همى أن أصف الأشخاص القريبين منى ، والذين ألفت رؤيتهم فى جوامع بحرى ومياديه وشوارعه وأزقته ، وصيادى الجرافة

بين الكورنيش وشاطئ البحر ، والأماكن المرتبطة فى وجدانى بذكريات باقية . ولعلى أعترف أنى حاولت أن أضمّن الرواية - فى سياق السرد - الكثير من المعارف البحرية (اكتشفت - وأنا أراجع البوصيرى - أنى كررت اسمى لوحتين كتبتهما فى ياقوت العرش . فكرت فى استبدالهما ، لكننى شعرت أنه من الصعب أن أختار غيرهما للوحتى البوصيرى).

الرباعية فصول مستقلة ، فى أجزاء منفصلة ، لكن الفصول ، والأجزاء ، متصلة بشكل وثيق . إنها تمثل - فى مشهدها الكلى - صورة للحياة فى بحرى ، فى الفترة ما بين نهايات الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة يوليو . ولأن بعض الفصول جاء ت أقرب إلى القصة القصيرة ، فقد نشرها «الأهرام» باعتبارها كذلك .

أضيف أنه لم يكن وارداً حتى مجرد الإفادة من التجربة المحفوظية فى ثلاثية بين القصرين . قرأت أجزاء الثلاثية ، فأحببتها ، وهى - حتى الآن - من أهم الإبداعات " العالمية " التى تمثل امتداداً أشد تفوقاً لإبداعات بلزاك وزولا وستندال وغيرهم من روائيى الواقعية الطبيعية . بحرى فى روايتى هو البطل ، السيد . أما ثلاثية محفوظ فإن المكان يظل فى خلفية

المشـهد الذى يمثل تكويناته أفراد أسرة أحمد عبد الجواد ، بداية بالأبوين ، وانتهاء بالحفدة ، مروراً بالأسر التى ارتبطت بها بالقرابة والمصاهرة .

●●●

ما كدت أستعيد بعض الشخصيات التى تصورتها سدى روايتى ، حـتى تبـدى أمـامى الحى بأكـمله : الميـادين ، الشوارع، الحوارى ، الأزقة ، المقاهى ، البنايات ، الأسـواق ، الجوامع ، المقامات ، الأضـرحة ، الزوايا . اسـتعدت بحرى الذى فـارقـتـه ، وإن لم يفـارقنى ، الجـزئيـات والمنمنمـات والتفصيلات ، ما غاب عن الذاكرة فتصورت أنى نسيته ، تشوش - للأسف - بزياراتى المتقاربة أو المتباعدة إلى الحى ، عمليات الهدم والبناء والمحو والتعديل . حين بدأت الكتابة ، وتركت العمل يكتب نفسه - عادة ألفتها - قوضت الملامح القديمة ما طرأ على الحياة ، كأنها لم تتأثر بما لحقها من تبديل . حتى الشـخصـيات التى رحلت منذ سنوات بعيدة ، نفـضت عنها غبار النسيان ، وعادت إلى الأوراق تتحرك ، وتتكلم ، وتفعل الخير والشر ، وتقدم على الخطر ، وتؤثر السلامة ، تشكل مشـهداً بانوراميـاً ، فرضت ظروف النشر

تقسيمه إلى أربعة أجزاء .

أنسية ليست مومساً على أى نحو ، ليست حتى مومساً فاضلة ، وليست - بلغة علم الاجتماع - ضحية بريئة ، لكنها فتاة من الطبقة الأدنى ، واجهت مأزقاً صعباً ، بذلت أعواماً من حياتها للتغلب عليه . وعندما تصورت أن ذلك ما حدث ، واجهت مأزقاً أشد قسوة ، وهو أنها قد تعود إلى ما كانت فيه لو لم تنجب ، لو لم تهب الرجل مطلبه فى الولد والامتداد والخلود . وقد تطلع سيد الفران إلى الولد والامتداد لأنه - على حد تعبيره - كان مقطوعاً من شجرة . وربما لامس المرء الوهم للخلاص من الواقع ، كما فعل حمدى رخا . وحين يعجز المرء عن مواجهة الخطر أو الظالم ، فإنه قد يلجأ إلى قوة عليا يجد فيها الحماية والأمان ، وهى الصوفية . وهو ما فعله على الراكشى عندما أجاد الحاج قنديل حصاره ، فوجد الملاذ فى كلمات يوسف بدوى ، وفى قراءة كتب الصوفية وممارسة طقوسها . وحين ضاقت السبل بجابر برغوت ، فإنه لجأ للسفر إلى القاهرة ، يضع بين أيدى سادة الديوان الذى ترأسه السيدة زينب مشكلات الناس وما يعانون . وكما يقول ايفانز ريتشارد فإن «مواجهة الإنسان للأزمات والكوارث

يؤدى إلى شعوره بالخوف والقلق ، وانه لا يستطيع أن يسيطر على مشاعره ، ويقضى على يأسه ، إلاّ عن طريق تكوين الشعائر الدينية» . واللافت أن عدد أعضاء الطرق الصوفية فى مصر قد تزايد بعد نكسة ١٩٦٧ بنسبة ٢٥٪ (البناء الاجتماعى للطريقة الشاذلية فى مصر ـ فاروق أحمد مصطفى ـ ١٩٨٠) . ولاشك أن الصوفية والأولياء والموالد والأذكار وغيرها من المظاهر الدينية أبعاد ثابتة فى حى بحرى . ثمة أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش وكظمان ونصر الدين وعشرات من الأولياء الذين يحظى بحرى بوجود أضرحتهم ومقاماتهم ، وبملايين المريدين والزوار من طالبى البركة والمكاشفة والنصفة والمدد . ويربط حسن الساعاتى بين وجود عدد كبير من المساجد فى بحرى وبين استقرار الحياة فى الحى ، وزيادة كثافته السكانية ، لأن أضرحة الأولياء تكون مراكز جذب للسكان ، باعتبار أن الأهالى ينزلونهم من أنفسهم منزلة عظيمة ، لأنهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكان ذلك ما حدث فى رائعة يحيى حقى قنديل أم هاشم ، حين حرص الجد ـ محسوب السيدة زينب ـ على الإقامة بجوار مسجدها . سيدى

الأنفوشى له ـ فى قلعة قايتباى ، فى الطرف الشمالى لمدخل الميناء الشرقية ـ مسجد وضريح ومقام ، لكنه ـ دوناً عن جميع الأولياء ـ بلا أتباع ولا مريدين ، بلا دعوات وابتهالات وتهدجات واحتفالات مولد ونذور وأذكار . حياته لا يذكرها أحد : من هو ؟ أصله ؟ فصله ؟ كراماته ؟ سيرته ؟ . الرواية ـ أصلاً ـ غير مؤكدة . ربما الأنفوشى حقيقة ، وربما رفاته فى الضريح الذى يتوسط فناء مدرسة البوصيرى الإلزامية بالموازينى . لكن مسجد قايتباى الصغير بلا اسم ـ معلن ـ لولى . ثمة رأى أن اسم الأنفوشى هو «الكهنفوشى» ، وهو اسم فارسى لشيخ عجمى . والاسم موجود فى كتاب «الضوء اللامع» للسخاوى . الهوية المجهولة حياة سيدى الأنفوشى . البداية منبعها الغموض ، مصبها الغموض كذلك ، وربما لم يكن فى حياة الإسكندرية ولى بهذا الاسم . أبو العباس المرسى ، حارس الإسكندرية ، وسلطانها ، وكبير أوليائها ، وحبيب الغلابة والمنكسرين والمظلومين والتائبين ، والباحثين عن الذرية الصالحة والبرء من العلة والسقم . نسيج القصة رائق ، متماسك ، لا ينقص خيطاً : رحلة الزهد والتصوف من مرسيه إلى الإسكندرية : «فو الله ما رأيت العز إلا رفع الهمة

عن الخلق ، ولا السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين» . انتشار الدعوة ، تكاثر المريدين والاتباع . القسم بياقوت العرش لا يمتد إلى خواء ، وإنما يمتد إلى حياة طيبة، متكاملة . صديق المرسى ونديمه وصفيه وتلميذه . لم يكن يؤذن لأية صلاة إلا إذا تناهى الأذان من العرش الإلهى . بردة البوصيرى الشهيرة تحيط بصحن جامعه . على تمراز مجذوب ، وله كرامات ، لا يدرى أحد من أين جاء ، ولا كيف سارت حياته إلى الموت . حتى سيدى جابر الذى ترقد رفاته فى الجانب الآخر من المدينة ، له أصل ، وإن كان يصعب تحديده . اجتهادات تؤكد أنه الرحالة ابن جبير . اجتهادات مقابلة ، واثقة ، ترى أنه سيدى جابر الأنصارى . بل إن بعض هؤلاء الأولياء ترتبط مكاشفاته بالبحر . كان الشيخ على الصياد ـ على سبيل المثال ـ صياداً موفقاً . وكان يحب أن يخلو إلى نفسه بعيداً عن الناس حتى ألفته طيور البحر ، فكان يخاطبها بلسانها . وذات يوم أدركه المرض ، فتبارت الطيور فى إحضار الأعشاب الشافية من الجزر البعيدة عبر الأفق ، وراحت تنثرها بين يديه متوسلة إليه أن يجرب علاجه بها ، فقال لها : إذا كان قد حان أوان الشفاء ، فسأشفى

بدونها ، وإن لم يكن قد حان ، فما الفائدة ؟. وظل على مرضه حتى لفظ آخر أنفاسه عند الشاطئ . وبكته الطيور البحرية ، ودعت الله أن يجعل مثواه فى مملكتها ، فاحتضنته مياه البحر ، وصار الولى الوحيد الذى تغمر المياه ضريحه . ويحرم الصيادون على أنفسهم محاولة صيد آلاف الطيور التى تحج إلى حرم الضريح ..

●●●

ما أوجه الاتفاق - والاختلاف - بين رباعية الإسكندرية ورباعية بحرى ؟..

صدمنى السؤال فى البداية ، وربما تضايقت منه ، ثم ألفته بالمعاودة . أصارحك أنى تعمدت ألاّ أقرأ رباعية الإسكندرية حتى لا أقع فى شبهة تأثر - قرارى بكتابة رباعية بحرى يعود إلى مطالع حياتى الأدبية - وبالذات فى ضوء الحفاوة النقدية الواضحة ،التى اعتبرت رباعية داريل من أعظم إبداعات القرن العشرين .

ثم حاولت - بعد أن صدرت رباعية بحرى - أن أفتش عن جوانب الاتفاق والاختلاف ، لا كناقد ، فقد مللت التأكيد أنه

حتى فوزى بجائزة الدولة فى النقد لا يلغى تفهمى لقدراتى النقدية ، وأنى سأظل دوماً خارج أسوار النقد !

يقول جون فويلز: «إن المدن المنفتحة هى أمهات للمجتمعات المستنيرة ، ووجود مثل هذه المدن هام بشكل خاص للأدب . ولهذا فإننى أعتقد أننا نتعشق أوهامنا عنها ، ونغفر لها الكثير من خطاياها». يضيف فورستر: نحن حين نفعل ذلك مع الإسكندرية، فإننا لا نلام، لأنها النموذج الأصلى للكوزموبوليس وانصهار المتناقضات (الإسكندرية تاريخ ودليل ـ ١١)

واللافت أن كل المقيمين فى بنسيون ميرامار : ماريانا ، وعامر وجدى ، وطلبة مرزوق ، ومنصور باهى ، وحسنى علام، أقاموا فى البنسيون لهدف شخصى ، لا صلة له بالجماعة ولا مشكلاتها ، لا صلة له بما يجرى خارج البنسيون. دعك من زهرة، فهى قد جاء ت إلى البنسيون لتؤدى الدور الذى رسمه لها الفنان، أو رسمته لها تطورات الأحداث. إنها ضحية فى كل الأحوال. حتى بائع الصحف محمود أبو العباس ، اتخذ من الإسكندرية موضعاً للحصول

على مكاسب شخصية بطرق غير شريفة .

وإذا كانت صلة شخصيات ميرامار نجيب محفوظ بالإسكندرية هي صلة هامشية، حيث اختاروا الإقامة في الإسكندرية كمنفى ، لا تشغلهم حياة ناسها اليومية ، ولا مشكلاتهم . فالبنسيون بالنسبة لمن يقيمون فيه - على حد تعبير سيزا قاسم - مكان سلبي أقرب إلى محطة السكة الحديد ، حيث يتقابل - للحظات معدودات - المسافرون ، كل يلهث في طريقه (روايات عربية - روايات مقارنة - ١٦١) .
إذا كان ذلك كذلك ، فإنه من الصعب إهمال التأثيرات الأجنبية في حياة الإسكندرية . وعلى سبيل المثال ، فإن يوم الأحد في الإسكندرية يختلف عن اليوم نفسه في بقية المدن المصرية . الشوارع خالية نسبياً ، والكثير من المتاجر يغلق أبوابه ، ذلك لأن التأثيرات الأجنبية التي تحققت من خلال «مواطنة» أعداد هائلة من الجاليات الأوروبية لم تندثر من المدينة بصورة كاملة بعد . لكن الصورة التي رسمها داريل في رباعية الإسكندرية - على حد تعبير صلاح عبد الصبور - تنتمي إلى داريل أكثر مما تنتمي إلى الإسكندرية «فالإسكندرية ليست هي مدينة هذه الحفنة من الأجانب

والمتمصرين . وليس هي مخادع اللذة وأندية الشواذ والمغامرين ، بل هي مدينة ممتدة مليئة بالرجال والنساء الذين يصنعون الحياة ، ويأكلون العيش بعرق الجبين» (عالم القصة - العدد الرابع) . ويقول صديقي الكاتب المسرحي الكبير ألفريد فرج ، إن انتباه داريل - قبل أن يكتب رباعية الإسكندرية كان متجها إلى مجتمع الأجانب والمتمصرين دون المصريين. المعنى نفسه يورده إدوار الخراط ، فإسكندرية داريل هي أسطورته الشخصية أولاً وأخيراً ، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية ، ومشاهد وأخيلة تخلقت في نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها ، بانحيازات رازحة وراسخة . داريل لم يعرف من الإسكندرية إلاّ سطحها الخارجي ، قشرتها السطحية : بيوت ومكاتب الديبلوماسيين والموظفين والملاك . الفئة الفوقية من المتمصرين الذين لم يعرفوا من مصر سوى أنها البقرة الحلوب ، يطفون على عباب مدينة تمور بالحياة ، كالزبد أو الرغوة . الشوارع والبيوت - والأحياء أحياناً - التي كانت محرّمة على أولاد البلد. ما كتبه عن الإسكندرية هو موقع أو حالات نفسية للأجانب ولأشباه المصريين ، أو مجرد استعارات وأقنعة

مصنوعة وزائفة للمصريين أو المتمصرين ، الذين لم يعرفوا من مصر إلاّ كيف يستغلونها . أما الوطنيون، فهم الخدم والبقايا وغيرهم ممن يحيون في الهامش ، وينظر إليهم الكاتب بنفور ، وبعدم مبالاة في الوقت نفسه (الأهرام ١٩٩٦/٧/١٦). ويضيف إبراهيم فتحي أن رباعية داريل «تموج بأنماط عجيبة من البشر لا تجد بينها وجهاً واحداً نتعاطف معه ، أو يعكس صورتنا الحقيقية . لقد كان داريل يصور الإسكندرية المستلقية في حلمها الأزرق كأنها إحدى الزواحف القديمة ، يغمرها الضوء البرونزي الذي تلقيه البحيرة» (العالم الروائي عند نجيب محفوظ -) . لقد اختار داريل شخصياته كلها من جو الأقليات الوافدة إلى الإسكندرية : اليهود واليونان والإيطاليين والفرنسيين والأرمن والإنجليز وغيرهم ، ومع ذلك فإن اختياره اقتصر على فئة من الوافدين انغلقت على نفسها تماماً ، فهي تجد في الإسكندرية مكاناً ، محل إقامة ، دون أن تحاول التفاعل معها كشعب أو كمدينة (أحمد بها الدين :أفكار معاصرة- ٢٤٢، ٢٤٣) . ولعل التعبير «ما قل ودل» يصدق على ما كتبه الكاتب الصحفي عمرو عبد السميع بأن معظم شخصيات رباعية

داريل من الأرمن والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من أبناء الجاليات ، وأن الرواية قد امتلأت بإساءات بالغة للمصرين ، وبدت مترعة بنظرة شديدة السوداوية للبلد ، ولقاطنيه ، واخترعت أحداثاً عجيبة عن معاونة الأقباط للعصابات الصهيونية في فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨م (الأهرام ٢٠٠٦/٢/٢١).

وعموماً ، فإن داريل كتب عن الإسكندرية ، مستمداً من ثقافته لا من تجاربه ، ومن ثم فقد جعل الإسكندرية مدينة إغريقية أو متأغرقة !. إنها - على لسان كليا - تتراوح بين الوهم والحقيقة ، بين الواقع والصور الشعرية التي يثيرها اسمها بذاته في الأعماق (كليا -١١).

ولعلنا نجد تعبيراً عن شخصية لورنس داريل، في حديثه عن نفسه بأنه إنما يكتب «من أجل الشيكات التي تسد متطلبات الغاز والنور والتدفئة، إنني أكتب لأعيش».

●●●

والحق أنه من الصعب أن أجرى – شخصياً– مقارنة بين ما كتبته وما كتبه مبدعون آخرون ، لكن الذى أستطيع تأكيده أن الكتابة عن الإسكندرية - وبحرى تحديداً - حلمى القديم ،

الجميل ، الذى يرافق محاولاتي الإبداعية منذ بداياتها .
السؤال : لماذا ، لم أناقشه - بيني وبين نفسي - على الإطلاق .
فقد كانت الكتابة عن حي الطفولة والنشأة والسمات المميزة والبيئة التي تختلف عن مثيلاتها فى أحياء الإسكندرية الأخرى .. كانت شيئاً أشبه بالقدر .. لكنني أملك - فيما أقدر - طرح بعض الآراء التي تناولت رباعيــة داريل ، ثم أترك للقارئ - قارئ أجزاء الرباعية وقارئ هذا المقال - أن يتعرف إلى ما ينشده من أوجه الاتفاق والاختلاف ..

يقول الناقد الإنجليزى جلبرت فيلبس : " إن داريل يبذل قدراً كبيراً من الطاقة فى رباعية الإسكندرية ، لكنها أقرب تماماً إلى أن تكون طاقة ذهنية ، ناشئة من الذهن ، وموجهة إليه ، ولا يمكن مقارنتها بذلك التعاطف الخيالى العميق الواسع المدى الذى يميز القصة العظيمة فى أى عصر ، والقيم الإنسانية فى رواياته هزيلة ومهتزة ، فالروايات توهم بأنها تحلل الحب ، ولكن أين هذه الأمثلة للعلاقات الإنسانية التي يمكن وحدها أن تدعم الدعوى وتؤيدها ؟.. إن المهارة هنا مهارة ذهنية ، أو متعلقة بالسلوك الجنسى المطلق فى الحب . إنه جنس فى الرأس إن صح التعبير (مجلة " نادى

القصة " ـ نوفمبر ١٩٧٠) .

في تقديم داريل لكتاب أ.م . فورستر " الإسكندرية تاريخ ودليل " يؤكد أن المدينة العريقة هوت إلى قاع النسيان بقدوم العرب " مع وصول عمرو بن العاص وفرسانه " . قدم داريل الإسكندرية المدينة ، التي لا هي باليونانية ولا السورية ولا المصرية ، لكنها خليط ، شيء مشترك من كل هؤلاء ، بل إن بعض شخصياته الأجنبية ـ ومعظم شخصيات الرواية من الأجانب ! ـ كانوا يجدون في فلسطين ملاذاً مرتقباً لليهود ، وللجاليات الأجنبية في مصر " لو استطاع اليهود أن يكسبوا حريتهم ، فإننا جميعاً سنكون في يسر وهناء . إنها أملنا الوحيد " (ماونت أوليف ـ ٢٥١) . لكن مدينتي هي الإسكندرية السكندرية ، الإسكندرية المصرية التي ينتمي أهلها إليها بتعاقب الأجداد ، وبالميلاد والطفولة والنشأة وأفق المستقبل .

نحن نجد الإسكندرية السكندرية ، الحقيقية ، في أعمال إدوار الخراط ومصطفى نصر ومحمد الصاوي ومحمد حافظ رجب وصالح مرسي وأحمد حميدة وإبراهيم عبد المجيد ورجب سعد السيد ومحمود عوض عبد العال وعبد الفتاح

مرسي ومنير عتيبة وحنان سعيد وعبد الفتاح رزق ومحمد عباس علي وغيرهم . أنت تتعرف - في أعمال هؤلاء الأدباء - إلى الإسكندرية الموظفين والصيادين وباعة السمك والتجار والحرفيين وفرق الصوفية والباعة السريحة وعمال الميناء وكتبة المحاكم ورواد المقاهي إلخ ..

وبالنسبة لي ، فقد وهبني البحر رحابة الأفق . أرفض أن تقيد حركتي ولا آرائي ، ولا أن تحد انطلاق مخيلتي محظورات من أي نوع . أنا أكتب حتى ما قد يرفضه الرقيب في داخلي ، انعكاساً لمطالب الرقيب المجتمعي . لا يشغلني إن وجد سبيله إلى النشر ، أم أودعته أدراج مكتبي . وما أكثر ما تحتفظ به هذه الأدراج من أوراق .

●●●

ينقل جبرا إبراهيم جبرا عن دبلوماسي من أوروبا الشرقية قوله : " كلما اقترب الإنسان من البحر المتوسط ، ازداد تشبثه بالحياة ، وكلما ابتعد عنه ، هان عليه الموت " . والحق أنه إذا كان البحر المتوسط صغيراً للغاية ، فإن عظمته وامتداد تاريخه - والقول للورانس داريل - يجعلاننا نتخيله أكبر مما هو عليه حقاً «بلثازار» . وقد تحققت العظمة وامتداد

التاريخ على أيدى هؤلاء الذين يحيون على سواحل المتوسط ، والسكندريون - كما تعلم - يحيون على سواحل المتوسط . أنا أحب البحر المتوسط لأنه البحر الذى تطل عليه الإسكندرية . أحب أفقه اللامتناهى . أقرأ عن مدنه وجزره وأسماكه . أقرأ حتى عن النفايات التى تقذف بها ناقلات البترول فى مياهه ، وعن التلوث البيئى ، والمستقبل المحفوف بالخطر ، وهو ما استفز الفنان - حسب اجتهادى الشخصى - فى روايتى «غواية الإسكندر».

يتحدث داريل عن الإسكندرية فى «جوستين» بأنها مدينة تم بناؤها كقلعة حصينة تصد طوفان السود الأفارقة ، لكن هؤلاء السود - بأقدامهم الناعمة - بدءوا فى التسرب إلى الأحياء الأوروبية . ولأن «المسلمين» تمكنوا من مقاليد الأمور، عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد صارت المدينة أقل شأناً عن ذى قبل . أعاد داريل النغمة التى عزفها - قبل عشرات الأعوام - مفكرون وكتاب أوروبيون ، وأنهم شعب من العبيد «لا توجد لديهم ذمة أو حياء بشرى» ، وأنهم «جنس بائس» (بيير سوليه : مصر ولع فرنسى - ٢٢٠) . بل لقد وجد هؤلاء الكتاب فى البنية الهيكلية للمصريين ، تماثلاً مع البنية

الهيكلية للحيوانات التى تعيش معهم ! (المرجع السابق - ٢٢١) . وفى الصفحات الأولى من «جوستين» يصف داريل الإسكندرية بأنها قد أصبحت معذبة بالتراب ، وأنها صارت ملكاً للمتسولين ، وأنها «بركة من المياه الآسنة» و «مجرد مرحاض عمومى كبير» . مقولة رجل مخابرات استعمارى ، تحزنه الرؤية التى تستند إلى شواهد كثيرة ، بقرب غروب شمس الاحتلال الأجنبى ، لتصبح الإسكندرية - ومصر كلها - ملكاً لأبنائها ، وهو ما تحقق على المستويين العسكرى والمدنى، عقب العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ .

الإسكندرية البعيدة عن الأحياء الوطنية - فى رواية داريل - ليست مدينة مصرية ، لكنها مدينة متأغرقة ، هى ليست إسكندرية القرن العشرين ، ولكنها إسكندرية القرون الوسطى . فحين انهارت دولة الإسكندر المقدونى ، واقتسمها أتباعه ، ازدهرت عواصمهم الصغرى ، مثل انطاكية وإسكندرية وغيرهما من مدن الشرق الأوسط القديم . وكانت هذه المدن تحاول أن تتمسك بطابع سادتها الإغريقى ، وتحاول أن تتمثل الثقافة الإغريقية وتعيد بعثها فى أثواب جديدة ومظهر جديد . وحين انتشرت المسيحية فى هذه المدن

تصالحت المسيحية مع النزعة الإغريقية ، ومن ذلك كله ولدت نزعتان دافقتان قويتان ، كانت أولاهما عطاء مسيحياً فى أصله ، مختلطاً بالوثنية القديمة ، وذلك هو فلسفة الأفلاطونية الجديدة التى ابتدعها إغريقى سكندرى هو أفلوطين . وكانت ثانيتهما عطاء وثنياً فى جوهره ، محتكاً بالمسيحية الناشئة ، وهى النزعة الحسية المسرفة ، حين تتوزع بين صبوات الجسد، ثم تتلذذ بعد ذلك بالندم على الخطيئة . ومن استشراف الأفلاطونية الجديدة وتصوفها وإيمانها بالروح ، ومن إيمان الوثنية القديمة بالحس والشهوة والخطيئة ولدت الروح الهلنستية أو المحاكاة للهيلينية ، والمتأغرقة أو المحاكية للإغريقية . ولأن داريل كان يكتب عن الإسكندرية مستمداً من ثقافته لا من تجاربه ، فقد جعلها مدينة هلنسنية أو متأغرقة .. الإسكندرية ـ فى تقدير لورنس ـ عاصمة أوروبا الآسيوية ، حيث تهيمن الفرنسية والإيطالية واليونانية على المشهد كله ، وكل شىء مصبوب فى قالب أوروبى (مانت أوليف ـ ١٨١) . بل إن جوستين تتشابه مع الإسكندرية فى أن لكل منهما نكهة قوية ، دون أن يكون لها شخصية حقيقية (جوستين ـ ١٥٤). يصف داريل إسكندرية الحرب العالمية الثانية بأنها عاصمة

أوروبا الآسيوية . إذا كانت القاهرة تصب حياتها كلها فى قالب مصرى ، حيث العربية هى لغة الجميع ، فإن الأحاديث فى الإسكندرية يهيمن عليها الفرنسية والإيطالية واليونانية «الجو المحيط هنا ، والسلوك الاجتماعى ، وكل شيء مختلف. إنه مصبوب فى قالب أوروبى ، حيث تعيش الإبل وأشجار النخيل وأهل البلد المتلفعون بالعباءات ، يعيشون فقط ، وعلى نحو ما ، كحاشية وضاءة ملونة . كخلفية وضاءة ملونة ، كخلفية قماشية لحياة مقسّمة إلى أصولها المختلفة» (مانت أوليف ـ ١٨١) . إنها «خمسة أجناس ، وخمس لغات ، ودستة من المذاهب : خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء . إلاّ أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليونانى الشعبى متميزاً فيما بينها» (جوستين ـ ١٢) . ويقول : «إن عقل مصر هو مجتمعها الأجنبى» (مانت أوليف ـ ١٣٠) . ويتحدث الراوى فى «كليا» عن نسيم الذى بدأ «المصريون» فى تجريده من ممتلكاته ، فانشغلت الإسكندرية كلها فى الدفاع عن عزيزها (كليا ـ ١٤٢) ، ومن الواضح أنه عنى بكل الإسكندرية ،الوافدين إليها من أبناء الجاليات الأجنبية . وإذا كان اليهود ـ فى ثنايا الرواية ـ

يتطلعـون إلى أرض الميـعـاد ، فـإن الأقـبـاط يمثلون أقليـة مستضعفة ومقهورة . الرواية تحفل بعبارات التكريس للعداء المخـتلق بين المسلمين والمسـيـجـيين . والكاتب يرى أن الإسكندرية التي تبـدو مـسـالمة في ظاهرها ، لم تكن ـ في الحقيقة ـ مكاناً مأموناً للمسيحيين» (جوستين ـ ١٦٩) . يقول على لسان قبطي مصري: «إننا الأخوة المسيحيين طابوركم ـ الأجـانب ـ الخـامس في مـصـر» (مـانت أوليف ـ ١٤٣). ويتـحدث عن حركة سرية ينظمـها الأقبـاط للاستيلاء على الحكم، وتحرير البلاد من المسلمين ، تستعين في ذلك بتسليح البدو (مانت أوليف ـ ٢٧٥) .

عاش داريل في الإسكندرية فعلاً لوقت قليل خلال الحرب العالمية الثانية حين كان يعمل في المخابرات البريطانية، ولكن هذه الحياة المعزولة بطبيعتها، الضائعة في صمت التكتم والتآمر لم تتح له الفرصة لمعرفة الإسكندرية بناسها الخلص، ونبضها الصادق، فقد كان كل من يراهم فلولاً من المتمصرين والأجانب والمغامرين والجواسيس المزدوجين، وكل أولئك البشر حين ينتظم خيط فني لا يصنعون إلاّ عملاً وثنياً مليئاً بالخطيئة والندم مثل رباعية الإسكندرية» (مجلة «عالم القصة»

ـ العدد الرابع). يضيف أحمد بهاء الدين ـ وأعتذر لأنى سأنقل نصاً مطولاً، لكنه مهم للغاية ـ أن داريل يرسم للإسكندرية صورة بنفسجية بديعة ، بكل ما فيها من تفصيلات وضواح وأسماء : محطة الرمل وشوارع سعد زغلول وصفية زغلول والسبع بنات والنبى دانيال وفندق سيسل ومطاعم المكس المطلة على البحر ورمال العجمى البيضاء ، ولكنه يرسم للمجتمع الوطنى صورة تنزف بالصديد ،لا يكاد المرء يعثر فى رواية على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف . كل البشر عنده تقريباً مشوهون من الداخل ، مستسلمون تماماً للضعف والنقائص بدون أية مقاومة أو صراع ، واستكمالاً لهذا الإحساس حشد الكاتب فى قصته عدداً لا مثيل له من ذوى العاهات : ليزا الجميلة الفاتنة عمياء ، وسميرة عذراء الإسكندرية بدون أنف ، نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين ، نسيم نفسه يفقد إحدى عينيه خلال الغارات ، وتنتهى القصة وهو بعين واحدة ، و «كليا» الرسامة تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة (أفكار معاصرة ـ ٢٤٨ : ٢٤٩) . وانطلاقاً من ذلك كله ، فإن أحمد بهاء الدين يعلن ثقته فى أن التاريخ الأدبى لن يضع داريل

فى مصاف الأدباء العظام ، لأن كاتب القصة العظيم - فى تقدير بهاء - لابد أن تكون فيه صفة مهمة جداً، وهى الإحساس بأنه يتعاطف مع الإنسانية الممثلة فى أبطال قصصه، كلهم، أو بعضهم. داريل لا يروى قصة الحياة، لكنه يروى فضيحتها ، وهو يحاول أن يدس فى نفس القارئ إحساساً بالشماتة لا بالعطف (المرجع السابق).

من ناحيتى ، فقد أدهشنى أن داريل جعل السيالة حياً للبغاء، وهو حى له عاداته وتقاليده ومعتقداته الدينية. برر داريل ذلك الخطأ المعيب فى حوار مع صديقى فتحى الإبيارى بأنه اقتبس «الصورة» من حى كلوت بك القاهرى!.. وكانت ميليسا فى رباعية داريل مومساً محترفة، فاضلة، ولم تكن أنسية - كما تعرف - كذلك. لم تكن أنسية مومساً، إنما هى فتاة مصرية عانت مأزقاً، وأمضت الكثير من سنى عمرها فى محاولة اجتيازه.

تبقى ملاحظة مهمة يجدر بى أن أشير إليها: إن رباعية بحرى تختلف عن رباعية داريل وميرامار نجيب محفوظ ورجل فتحى غانم الذى فقد ظله ، فى أن الفصول / اللوحات منفصلة ، متصلة ، وأن الرواية لا تتكرر عبر تعدد الأصوات ،

فـالصـوت واحـد سـواء أكـان الراوى العليم ، أو الراوى المشارك، أو من خلال التداعى ، والمونولوج الداخلى . روايتى بوح الأسرار هى ما ينتسب - بالفعل - إلى تعدد الأصوات . الحادثة الواحدة يتعدد رواتها ، كل من وجهة نظره . لذلك فإنى أسمح لنفسى بأن أختلف مع صديقى الناقد شوقى بدر يوسف فى أن رباعية بحرى تحتفى بالشكل نفسه الذى سبق أن ظهرت عليه رباعية داريل (*الرافد* - ديسمبر ٢٠٠١).

●●●

أصـارحك أنى لم أفـهم قـول ا . م . فـورسـتـر إن السكندريين لم يكونوا أبداً مصريين حقيقيين (الإسكندرية تاريخ ودليل - ٤٨) . دعك من حكاية الموقع الفريد ، وغيرها من التعبيرات التى تحاول أن تنزع عن الإسكندرية صفتها الوطنيـة لا يخلو من دلالة وصف ا . م . فـورسـتـر الرياح الشمالية الباردة بأنها القديس - الولى - الحقيقى الحارس للإسكندرية . وبالتأكيد فإن أهل الإسكندرية - أو غالبيتهم - ليسـوا امـتداداً خـالصـاً لأبناء الإسكندرية القديمة . ثمة القـادمـون من الصـعـيـد ومـدن الدلتـا . ومع اعـتـزازى بسكندريتى، وأنها كانت هى بداية تعرفى إلى كلمة وطن ،

فإنه من الصعب أن أهمل انتماء أبي إلى عائلة من بركة غطاس بأبو حمص ، ومولد أمي في دمنهور.

كم حزنت عندما قرأت في الصحف عن بركة غطاس، باعتبارها من القرى المنسية في جغرافيا مصر. لم يشفع لها تصديها لقوات الفرنسيين، بحيث أقدموا على محوها من الخريطة، لتبنى من جديد، ولا زكتها عمليات التطوير التي شملت مدينة دمنهور بخاصة، ومدن وقرى البحيرة بعامة. ظلت ـ فيما يبدو ـ على حال التخلف، حتى تذكرها مسئولو الميديا، والباحثون عن إنجازات تنسب إليهم، نظمت المواكب السياسية إليها. وجرى تطوير ما بها من منشآت البنية التحتية: المدارس ومكتب البريد والمساكن وغيرها، مما تباهى المسئولون بافتقاده قبل أن تمتد إليه أيديهم ـ أيدى الخير! ـ بالإصلاح والتعمير وإعادة البناء!

والحق أني ـ قبل نشر هذه الأنباء ـ لم أكن أعرف شيئاً عن أحوال بركة غطاس، صورتها الجميلة كونتها من أحاديث أبي التي تعود إلى أكثر من نصف قرن وانسقت وراء الصورة الجميلة، فجعلت عبدالله أفندي الكاشف بطل روايتي «البوصيري» رباعية بحري يحن للعودة إلى بركة غطاس،

وقضاء أيامه الأخيرة بين خضرتها وناسها الطيبين وهنائها!

●●●

أذكر قول صياد حلقة السمك في ثقة ، إن السكندري الحقيقي أصله من رشيد. لا يخلو التعبير - بالطبع - من مبالغة، لكن المعنى الذي يهمني إظهاره أن الكوزموباليتينية التي كانت لإسكندرية ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما إلى حرب ١٩٥٦، قد انتهت إلى أهلها الوطنيين أذكرك بروايتي الشاطئ الآخر . وأعداد كبيرة منهم ليست من مواليد المدينة، أو أن آباءهم ليسوا كذلك. الإسكندرية تكوين في الجغرافية المصرية ، قطعة من الزمكانية المصرية. المواطن السكندري هو ابن راقودة وفاروس والصعيد والدلتا والبحر والبادية. هو تلاقي ذلك كله، واختلاط ذلك كله. قال داريل إن الإسكندرية لن تتغير أبداً طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر في دن من الدنان (كليا - ٧٧). وقد تغيرت الإسكندرية. نزحت الأجناس التي كانت تموج فيها، ولم يعد إلا أهلها.

بالتأكيد فإني أنتمي إلى موطني الإسكندرية ، وإلى وطني مصر ، وإلى قوميتي في امتداد الأقطار العربية بهمومها

ومشكلاتها وتطلعاتها ، وإلى انتمائى إلى المجتمع الإنسانى فى إطلاقه . ولعل فورستر يدحض رأيه الغريب فى تأكيده - هو نفسه - بأن الأجانب لم يختلطوا بأبناء الإسكندرية الأصليين إلا نادراً ! (الإسكندرية تاريخ ودليل - ت . حسن بيومى - المجلس الأعلى للثقافة).

●●●

الصورة لى وأنا أضع ابنتى أمل على صدرى ، ومياه حمام السباحة تصل إلى ما فوق ركبتى . أعتز بأنى فزت بجائزة «السير» فى الحمام . الحمام ليس جزءاً من قصر أو فندق أو فيلا ، لكنه جزء من شاطئ سان استيفانو ، شيدته إدارة الفندق المقام على الناحية المقابلة من الشاطئ ، يسبح فيه الأطفال ، فلا يواجهون خطر الغرق . هو حمام سباحة عادى ، لكنه أقيم داخل مساحة البحر ، على الرمال الموصلة بينه وبين اليابسة .

كانت تلك آخر قدراتى للسباحة فى البحر : وكانت ابنتى هى الحجة التى استندت إليها ، حتى أنزل حوض السباحة المخصص للصغار . نزعت ثياب الوقار ، وارتديت لباس الشاطئ ، وتكفل من لا أذكره بالتقاط هذه الصورة التى

تعكس فوزى بجائزة عبور ما بين ضفتي حمام السباحة !

أنا لم أسبح فى البحر أبداً ، البحر الذى أعنيه هو الميناء الشرقية ، أو الأنفوشى ، أو أحد الشواطئ الممتدة حتى المنتزة ، معلومة أذكرها وأنا أعانى ارتباكاً حقيقياً . فليس من المتصور أن الكاتب الذى جعل من البحر شخصية رئيسة فى العديد من أعماله ، تقتصر صلته بالبحر على تأمل أحواله من الشاطئ .

عدم تعلم السباحة ، وعدم النزول إلى البحر أصلاً ، نتيجة من نتائج . قدت السيارة دون أن أقود الدراجة . لم أركب الدراجة يوماً ، ولم أمارس رياضات كثيرة مما يمارسه الأطفال رضوخاً لأوامر أمى . كانت تخشى علينا نسمة الهواء ، تجد فى لعبنا مع الأولاد فى الشارع الخلفى ما يكفى وزيادة ، تطل علينا من نافذة المطبخ على فترات متقاربة ، ثم تطمئن إلى أننا لم نخترق الأسوار غير المرئية ، المتمثلة فى تقاطعات الشارع الخلفى مع الشوارع الأخرى . هذه هى المساحة المتاحة للعب ، وقائمة الألعاب الخطرة تبدأ بركوب الدراجة " تقع على جدور رقبتك» ، وتنتهى بلعب الكرة «تيجى الكورة فى وشك تضيع لك عينيك» !. وكانت طفولتى الشقية

تتمرد - في معظم الأحيان - على أوامر أمي الصارمة، وأخرج على النص ، بل إني خضت - في المساحة المحددة ، والمحدودة - مغامرات خطيرة ، منها - كما أشرت في كتابي حكايات عن جزيرة فاروس - لعبة شكل للبيع التي أقفز فيها على عابر سبيل ، يسقط بالمفاجأة ، يواجه - في اللحظة التالية - ضربات الأولاد بالعصي التي يحملونها !

لأن القراءة صارت تكويناً في حياتي في سن باكرة، فقد غابت عني أهمية تعلم السباحة، واقتصرت صلتي بالبحر - فيما بعد - على مشاهدته في وقفتي على الكورنيش الحجري للمينا الشرقية وخليج الأنفوشي، أو فلوكة صغيرة داخل المينا الغربية.

لا أذكر أني ارتديت لباس البحر، فضلاً عن السباحة في مياهه. غاية اقترابي منه حيث أجلس على الشاطئ، أقرأ، وأحتفظ بثياب أخي وأصدقائه أثناء نزولهم المياه. إذا كان في شخصية محمد قاضي البهار بضعة مني، فقد كان نزول الشاب البحر فعلاً روائياً، وليس حقيقة. أكتفي - هذا ما أفعله حتى الآن - بالجلوس على الشاطئ- تحت شمسية في الأغلب

- لا أبدل القميص والبنطلون، أرقب البحر والحياة من حولى، وأتأمل، وأقرأ، ربما سجلت ملاحظات صغيرة فى الغلاف الذى أودع فيه الكتاب، فهو يغنى عن نوتة أو أوراق زائدة، ويحول دون اتساخ غلاف الكتاب من عرق اليدين.

لكن البحر ظل صديقاً مهماً، صيادوه وصناع سفنه وأمواجه وأفقه وقواربه وطيوره وأنواؤه، وما تشفى به أعماقه من حكايات مثيرة.

أحببت البحر مطلقاً، وحاولت أن أعبر عن هذا الحب فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية.

●●●

الإسكندرية - مثل كل مدن الساحل التى أتيح لى زيارتها - تنحدر فى اتجاه البحر. كانت تلك صورة الخرائط الأولى التى وضعها علماء البطالمة، ولم تتغير كثيراً عما كانت عليه. ثمة انحناءات والتواءات، لكن الصورة الكلية لقطع الشطرنج تظل قائمة، وانفراجات نهاياتها تفضى إلى البحر.

فى أى موضع فى بحرى تستطيع أن ترى البحر .

أقرأ تعبيراً مجازياً عن المدينة التى تستحم فى البحر. بحرى يستحم فى البحر فعلاً، شواطؤه تتداخل مع البحر،

تستحم، من جهات ثلاث، فهو شبه جزيرة تستحم فى البحر.
البحر عندى امتداد لليابسة، وبالتحديد هو امتداد لبحرى "الصيادين والحلقة والبحارة وعمال الميناء والجوامع وأضرحة الأولياء والمقاهى وحكايات الموروث الشعبى. البحر امتداد للبيئة الساحلية ، للأنشطة التى تعتمد على ركوب البحر والصيد. فضلاً عن رائحة الملح واليود والطحالب والأعشاب. الرائحة التى لا تخطئها أنفى حين أقترب من بحرى. تبدو كأصوات هامسة فى الميناء الشرقية، ثم تعلو الأصوات، وتتضوع الرائحة فى الاقتراب من امتداد الطريق إلى معهد الأحياء المائية وقلعة قايتباى، وانحناءة الطريق إلى الأنفوشى.

مفردات البحر هى: الأمواج، الرمال، الأسماك، الطيور، الصخور، الطحالب، الأعشاب، السماء، الشمس، القمر، النجوم، الأفق، السفن، الصيادون، البحارة، عمال الميناء، الموانى، البواغيز، الفنارات، الحاويات، الأوناش..

البحر مكان وزمان وأحداث وموروث وواقع يومى ودلالات. إنه الرزق والمغامرة والحرية والآفاق اللامتناهية والجمال والخوف والجو المتمايز، المعتدل، والنافذة التى تطل على العالم، تناقضاته هى تناقضات الحياة نفسها.

البحر في أعمالي كيان، شخصية، محور، مكان، سيد، يهب تأثيراته في البيئة من حوله، ويحرك الأحداث.

تحضرني ملاحظة ذكية أبداها أستاذنا على الراعي حول مسرحية «مهاجر بريسبان» للكاتب اللبناني جورج شحادة. تقدير الراعي أن " الأدب العالمي كان يكسب كثيراً لو أن شحادة استخدم قدراته الكبيرة في ترجمة لبنان إلى العالم (الهلال - فبراير ١٩٦٩) . تقدير الراعي كذلك أن «العالم محتاج إلى أن يتعرف على أجزائه الكثيرة المترامية . وهذه الحاجة ثقافية وفنية قبل أن تكون سياسية . فإذا جاء الممتازون من كتاب البلاد الصغيرة - أبادر فأنفي انتسابي إليهم ! - وكتبوا بلغة غير مميزة تسلكهم في أي عداد شئنا ، فالخسارة خسارة الأدب العالمي مثلما هي خسارة الأدب المحلي» (المرجع السابق) .

البحر عندي هو الموطن ، هو بحري ، والطفولة ، والنشأة، والذكريات الملتصقة بلحم جسدي ..

أتذكر قول فورستر - ثاني ! - «إن الطريقة المثلى لرؤية الإسكندرية هي أن تتجول فيها في هدوء ، وبلا هدف» . أواصل السير - الآن - في شوارع بحري وميادينه وحواريه

وأزقته . أتأمل البيوت والدكاكين والجوامع والزوايا والمقامات والأضرحة والمقاهي والأسواق والساحات . كل ما انطبع في ذاكرتي وألفت رؤيته ، تغير . اختلط بما لم يكن موجوداً ، أو اختفى .

●●●

أتمنى أن أظل أكتب ، وأكتب ، بينما نظراتي تتجه إلى البحر .

الموروث الشعبى
فى كتاباتى الروائية

نشأت فى بيئة تحض على عشق الموروث الشعبى . حى بحرى شبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية . إلى اليمين الميناء الشرقى ، أو الميناء الشرقية فى تسمية السكندريين . وإلى اليسار الميناء الغربى ، أو الميناء الغربية ، وفى المواجهة خليج الأنفوشى ، ما بين انحناءة الطريق من نقطة الأنفوشى إلى سراى رأس التين ..

هذه البيئة تتميز بخصوصية مؤكدة ، فالبنية السكانية تتألف من العاملين فى مهنة الصيد وما يتصل بها ، ومن العاملين فى الميناء وصغار الموظفين وأعداد من الحرفيين والمترددين على الجوامع والزوايا والأضرحة ، فضلاً عن الآلاف من طلبة المعهد الدينى بالمسافرخانة ..

وإذا كان لبيئة البحر وما يتصل بها ، انعكاسها فى العديد من أعمالى الإبداعية ، فإن البيئة الروحية لها انعكاسها كذلك في تلك الأعمال ..

ثمة جوامع أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى ونصر الدين وعبد الرحمن بن هرمز وعلى تمراز ، وثمة أضرحة كظمان والسيدة رقية وكشك وعشرات غيرها من جوامع أولياء الله الصالحين ومساجدهم وزواياهم وأضرحتهم . وثمة الموالد وليالى الذكر والأهازيج والأسحار والتواشيح ، وليالى رمضان وتياترو فوزى منيب وسرادق أحمد المسيرى وتلاوة القرآن عقب صلاة التراويح فى سراى رأس التين والتواحيش، واحتفالات الأعياد : سوق العيد وما يشتمل عليه من المراجيح وصندوق الدنيا والأراجوز والساحر والمرأة الكهربائية وألعاب النشان والقوة وركوب البنز والحنطور من ميدان المنشية إلى مدرسة إبراهيم الأول ، وتلاقى الأذان من المآذن المتقاربة ، والبخور والمجاذيب والمساليب ، والباحثين عن النصفة والبرء من العلل والمدد ، بالإضافة إلى المعتقدات والعادات والتقاليد التى تمثل - فى مجموعها - موروثاً يحفل بالخصوصية والتميز ..

حين أراجع أعمالى الإبداعية بدءاً من قصتى القصيرة الأولى إلى الآن فإن تأثير ذلك كله يبين فى العديد من المواقف والشخصيات ، وفى تنامى الأحداث ..

بل إن مراجعتى لكتاباتى التى وظفت - أو استلهمت - الموروث الشعبى ، أجد أنها وليدة العفوية ومحاولة التعبير عن الواقع . هذا هو ما أفرزته تجربة الحياة والمشاهدة والقراءة والتعرف إلى الخبرات . لم أتعمد الإفادة من الموروث الشعبى، بل هو الذى فرض معطياته فى مجموع ما كتبت .

لقد وعيت على جلسات السمر ، أو الثرثرة ، فى بيتنا ، قوامها أفراد عائلة أمى أو أبى ، وأصدقاء أبى ، يتحدثون عن وقائع يوقنون بحدوثها ، عاشوها أو رواها آخرون ، لقاءات فى المقابر ، وفى الطرق الخالية والخرائب ، وربما على شاطئ البحر ، بأرواح وأطياف وأشباح ، وعفاريت تظهر فى هيئة إنسية ، وتتحول بعد صحبة خطوات فى الخلاء ، وأولياء خاطبوا قاصديهم من داخل مقاماتهم ، أو أضرحتهم .

بالطبع ، فإن ما وعيت عليه ، واستمر فى حياتى إلى الآن، ليس استثناء ، إنما هو يقين غالبية المصريين ، بصرف النظر عن مستوياتهم الاجتماعية والمعرفية .إنهم يؤمنون

بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم ، ومخاطبة الموتى ، والسحر ، ومعرفة الغيب ، والتنجيم ، والفأل ، والطيرة ، ووجود الجن والعفاريت والأشباح والأطياف .

ظنى أن ذلك كله قد انعكس فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية ، تعبيراً عن الواقع ، وليس مجرد تقديم العجائبية والغرائبية . هذه هى حياة الشعب المصرى ، يخالط تدينه نزوع إلى الخرافة ، والإيمان بقوى خيّرة وشريرة ، قد لا نراها ، لكنها تعيش فى صميم وجودنا .

الحكايات والحواديت ليست تزجية فراغ ، ولا هى لمجرد التسلية ، أو الرغبة فى الإدهاش ، لكنها تعبر عن معان حاضرة ، وتحاول التعبير عن معان غائبة . ما قد ينتسب إلى الخيال يتلقاه الوجدان الشعبى باعتباره حقيقة ، سواء من حيث الحكاية ، أو الدلالة التى نحاول - فى إطار من الفنية - تقديمها . إنه الخيال نفسه الذى أطال فى عمر عنترة ، فعاش مئات الأعوام ، حتى تظهر الدعوة المحمدية ، فيدرأ عنها خطر الأعداء . وثمة الظاهر بيبرس الذى غفر له الوجدان الشعبى إقدامه على فعل الخيانة ، فقتل قائده المنتصر ، وجد الناس فى إنجازاته العسكرية والسياسية والاجتماعية ما ينسيهم

فعل الخيانة التى يكرهها المصريون ! وجعلوا من بيبرس بطلاً قومياً . ومع أن عروس البحر تبدو ـ فى مدخل متحف الأحياء المائية ـ دميمة إطلاقاً ، مجرد كتلة غير متناسقة من اللحم ، فإن الوجدان الشعبى أقرب إلى تلقى حكايات الجسد الفارع، والشعر الذهبى المنسدل ، والعينين الزرقاوين ، والأغنيات التى تجتذب راكبى البحر ، تغوص بهم فى عوالمها السحرية .

●●●

الغريب أن بعض نقادنا ينكر أن تكون لإبداعاتنا صلة بالواقعية السحرية ، رغم أن معظم مبدعى الواقعية السحرية فى أمريكا اللاتينية أكدوا تأثرهم بحكايات ألف ليلة وليلة ، حتى أن الأرجنتينى بورخيس كان يضع كتاب الليالى فى الحقيبة التى ترافقه فى رحلاته .

وبالنسبة لى ، فأنا أبدأ الكتابة الإبداعية ، وأتمها ، فى ما يشبه الكتابة الآلية ، وإن كان من الصعب أن أنسب هذه الأعمال إلى السوريالية .

لعل الواقعية الروحية ، هى التسمية التى تصح على إبداعاتنا التى تنطلق من تمازج الواقعى واللاواقعى ،

الحقيقى وما يجنح إلى الخرافة . ما نعيشه وأحلامنا . المكاشفات والكرامات ومخاطبة الموتى ، وغيرها مما قد لا يرتبط بالواقع ، أو حتى يرفضه العقل ، إنما هو عند الغالبية العظمى من المصريين جزء من حياتهم العادية . نجده فى حواديت الجدات ، وطقوس الموت ، والإيمان بالأرواح ، وبخوارق أولياء الله ، وهو ما تناولته بخاصة في رباعية بحرى وأهل البحر ، وتناولته بعامة فى الكثير من أعمالى الروائية والقصصية .

قد تعكس طقوس الموروث الشعبى ما يرفضه العقل ، لكنها تتحرك على أرضية من المعتقدات التى تبلغ - بدرجة كبيرة - حد اليقين . نحن نلجأ - على سبيل المثال - إلى أضرحة الأولياء ومقاماتهم ، سعياً لحل مشكلاتنا ، ولطلب النصفة والمدد . بل إننا ننسب إلى كل ولى كرامات محددة ، يختص بها لا أدرى من أوجد ذلك التقسيم ؟ فثمة من يعيد الأولاد التائهين ، ومن يبرئ المرضى ، ومن يعالج عقم المرأة . وثمة الديوان الذى يعقد ظهر كل خميس لتدارس المشكلات التى توضع فى نذور أولياء الله ، ترأسه السيدة زينب ،

ويضم إلى عضويته السيد البدوى ، والرفاعى ، والدسوقى ، والشافعى الجيلانى فى روايات أخرى .

الوجدان الشعبى ، أو الضمير الجمعى ، هو الذى يهب الواقعية الروحية أبعادها . إنها موروث وتراث ، ننشأ على فهمه وتفهمه وممارسته : السير والتراجم والحكايات وقصص التاريخ والحواديت . الواقعية السحرية فعل الفنان . أما الواقعية الروحية فهى فعل الجماعة . إنها لا تستند إلى الخيال ، ولا تنطلق منه ، فهى المعنى الذى نؤمن به ، ونعيشه، ونمارسه ، باعتبار أن تلك هى حياتنا . الغرائبية - أو العجائبية - هى الإطار الذى تتحرك الواقعية السحرية فى إطاره ، إنها مضاهاة الواقع ، التوازى - أو لنقل التماهى - معه ، لكن تظل الواقعية السحرية تعبيراً عن مخيلة الفنان ، بعكس الواقعية الروحية التى تقارب اليقين الدينى ، والممارسات المجتمعية .

العالم الآخر ليس تخميناً ولا خيالاً ، إنه حقيقة ، يقين ، نؤمن بوجوده ، وبكل ما يحويه من تجليات . نحن نعيش اليقين الدينى ، والحياة الآخرة ، شفاعات أولياء الله ومكاشفاتهم وبركاتهم ، والصراط والحساب والعقاب والجنة

والنار . نثق أن أعزاءنا فارقونا بأجسادهم ، لكن أرواحهم تظل في حياتنا ، إن لم يكن أثناء الصحو ، ففي أثناء النوم .

وفي قصص القصار ، تتناثر لمحات من الموروث الشعبي، متمثلة في العديد من سلوكيات الحياة ، والمفردات ، والتعبيرات ، وغيرها مما يعبّر عن التميز الذي تتسم به منطقة بحري في حدودها الجغرافية ، المحددة ، والمحدودة : الزي الوطني ، الطب الشعبي ، ألعاب الأطفال وأغنياتهم ، نداءات الباعة ، الكناية ، النكتة ، المعايرة ، القَسَم ، الطرفة ، المثل ، الحلم ، وغيرها ..

●●●

رباعية بحري ، عمل روائي من أربعة أجزاء : أبو العباس، ياقوت العرش ، البوصيري ، علي تمراز . تعرض للحياة في بحري ، منذ أواخر الحرب العالمية الثانية إلى مطالع ثورة يوليو ١٩٥٢ . لوحات منفصلة من حيث تكامل اللحظة القصصية ، ومتصلة من حيث اتصال الأحداث ، وتناغم المواقف ، وتكرار الشخصيات ..

أنسية التي طالعتنا في بداية الجزء الأول من الرباعية ، هي أنسية التي انتهت بها أحداث الجزء الرابع والأخير . وما

بين البداية والنهاية نتعرف إلى دورة الحياة من ميلاد وطفولة وختان وخطبة وزواج وإنجاب وشيخوخة ووفاة ، فضلاً عن الحياة في المعهد الديني بالمسافرخانة ، وحلقة السمك ، وحياة الفتوات ، والعوالم ، وما يتسم به ذلك كله من اختلاف وتميز ، بقدر اختلاف البيئة وتميزها ..

على سبيل المثال ، فإن الحياة في البحر ، وصلة البحر واليابسة ، والمؤمنين بطهارة الماء ، وقدرة البحر على أعمال السحر ، والحكايات والمعتقدات عن عرائس البحر والعوالم الغريبة وكنوز الأعماق ، والخرافة ، والأسطورة ، والزى التقليدى ، والمواويل ، والأغنيات ، والأمثال ، والحكايات ، وخاتم سليمان ، والمهن المتصلة بمهنة الصيد كالصيد بالسنارة والطراحة والجرافة ، وأسرار الغوص فى أعماق البحر ، وغزل الشباك ، وصناعة البلانسات والفلايك والدناجل وغيرها ، وركوب البحر ، وبيع الجملة فى حلقة السمك ، وبائعى الشروات .. ذلك كله يتوضح فى الشخصيات التى كانت الحياة فى البحر مورد الرزق الأهم - أو الوحيد - لها ..

أما الروحية التي تمثل بعداً مهما في حي بحري ، فهي تبين عن ملامحها في كثرة الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة ، ورفع أولياء الله عن الغلابة والمنكسرين ما يحيق بهم من ظلم ، وكرامات الأولياء من اطلاع على الكائنات ، وطي الأرض ، والسير على الماء ، والطيران في الهواء ، وإتيان بالثمار في غير أوانها ، وتحويل ماء البحر إلى ماء عذب ، وتواصل الكرامات حتى بعد أن يرحل الولي ، والمكاشفة التي تحققت على يد أبي الدرداء حين أنقذ الإسكندرية من طوربيد ألماني في غارات الحرب العالمية الثانية ، والخضر الذي يظهر للمراكب حين يهددها خطر النوات ، فينقذها ، وتجليات الصوفية في الإشارات والأسرار والرموز ، وارتقاء الدرجات من المريد إلى المقدم فالنقيب فالخليفة خاتمة الدرجات الروحية ، ودروس المغرب ، وتصورات مشاهد الجنة والنار ، والخوف من الجن والمردة والعفاريت ، وإيقاد الشموع على أضرحة الأولياء ، وتقديم النذور ، وكنس النساء للأرض بالملاءات ، أو التمرغ عليها ، يطلبن الخلفة والمصلحة والشفاعة والمدد ، والوصفات الشعبية، وأعمال السحر ، والتربيط ، والأعمال السفلية ،

والوسائل التى بلا حصر لعلاج الإجهاض ، أى سقوط الجنين قبل أن يكتمل نموه : وَصْفات غريبة ، وقاسية ، وتجارب لابد أن تخوضها المرأة الحامل لتحتفظ بالجنين ، ودلالات ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب ورياح وعواصف ونوات ومناطق وفرة - وجدب - السمك . الشمس تجاوز صفتها الظاهرة ، فتتحول إلى صديق للجد السخاوى ، يعرض عليها مشكلاته ، ويأخذ منها ويعطى ، وحين يحس بدنو الأجل فإنه يتطلع إليها ويخاطبها بما لم يتبينه أحد ..

وتطالعنا رواية «أهل البحر» بالكثير من الأخبار والوقائع والحكايات الأسطورية والخرافية ، والكثير من الموروث الشعبى . وكما أشرت فى مقدمة الرواية ، فإن بحرى يحتضن العشرات من الأضرحة والمقامات والمساجد والزوايا ، أسماؤها بأسماء أولياء الله الصالحين وأقطاب الصوفية .. مارس أبناؤه الحياة بصورها الرتيبة والمغايرة .. عرفوا الواقع والخيال والسحر ، وبركات أولياء الله ومكاشفاتهم .

وفى روايتى القصيرة «الصهبة» تناول لطقس شعبى ، تغلب عليه الأسطورة . المرأة المنقبة التى تخضع لمزاد وهمى ، من يرسو عليه ، يرفع عن وجهها النقاب ، فيتجدد أملها فى

الإنجاب . ويختلط الواقع بالحلم في أحداث الرواية ، فتغيب الملامح . لا يدرى إن زارته في الصحو أو في المنام ، ولا يبين ناس الصهبة عن هويتهم حتى يهمس صوت الأم وهي ترى ابنها ينزل درجات البيت إلى حيث يتجمعون : هل انجذب ؟!

أما روايتي زهرة الصباح فهي محاولة لتوظيف حكايات ألف ليلة وليلة في عمل أدبي حديث . زهرة الصباح هي الفتاة التي تلي شهرزاد في قائمة الفتيات اللائي ينتظرهن سيف «مسرور» . كانت تحيا في ظل الخوف من أن يمل شهريار ، أو تخفق شهرزاد في الحكي ، فيحل دورها . وحاول أبوها - وهو من المقربين إلى شهريار - أن يفيد من تلك الفترة في رواية الكثير من الحكايات والطرائف والنوادر والأخبار والعبر والنوادر والسير والمواويل ، تنصت إليها زهرة الصباح ، وتحفظها . تحيلها مخزوناً حكائياً ليعينها على مواصلة الحكي ..

كانت قدرة شهرزاد على استدعاء الحكايات ، أو اختراعها ، وروايتها ، هي وسيلتها للإبقاء على حياتها ، فهي إما أن تصل الحكايات ، كل حكاية بأخرى ، أو تموت . فإذا

نفـد مـا بحـوزتهـا من الحكايات ، أو فـقـدت القـدرة على الإدهاش، وفقد شـهـريار بالتـالى فـعل المتـابعـة والدهشـة ، واصل السياف مسرور حلقات سلسلة الإعدام .. ذلك كله كان يعلمه عبد النبى المتبولى ، فشغل معظم وقته بتحويل ذاكرة زهرة الصباح إلى خزانة تستوعب كل ما استطاع حفظه فيها من الحكايات والحواديت والعظات والعبر ..

تضمن السرد الروائى الكثير من جوانب الموروث الإبداعى العربى . ضُفّر فى نسيج العمل الروائى ، لا لانتساب الرواية إلى عالم ألف ليلة وليلة باعتبارها تراثاً إبداعياً فحسب ، وإنما لأن أحداث الرواية تدور فى أجواء شعبية ، ففيما عدا الشخصيات الرئيسة القليلة ، فإن غالبية الشخصيات من الطبقات الأدنى والمهمشين ..

●●

نحن نسـتطيع التـعـرف إلى البـدايات الأولى للمـوروث الشـعـبى فى حـيـاتنا الآنيـة ، من خـلال توالى الإجـابة عن الأسـئلة الاثنين والأربعين التى أعادت تقديم سيرة حياة المواطن زاو مـخـو فى صـورتها الصـحـيـحـة ، فى روايتى اعتـرافـات سـيـد القـرية . الإيمان بالخلود ، تقـديم النذور

والقرابين ، الأدعية والرقى والتعاويذ ، العلاقات الأسرية ، السيرة ، الأسطورة ، الخرافة ، الحكاية الشعبية ، الخطابة ، الطرفة ، الطب التقليدى ، التيقن من القدرات العلاجية لشجرة الجميز ، الصفات الشعبية التى تشعل الشبق فى جسد الرجل ، وتسرى بالخصوبة فى جسد المرأة ، الموسيقا الوطنية ، إلخ ..

●●●

فى منطقة ما، يتداخل الموروث والتراث، المعتقدات والعادات والتقاليد والقراءات والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين، يتداخل ذلك كله، فيصنع ما يصعب تصنيفه بصورة محددة. وقد مثل صندوق الدنيا هذا التداخل فى مخيلتى، ولعله كان دافعاً ـ على نحو ما ـ لتوزع محاولاتى ما بين توظيف الموروث، كما فى «الصهبة»، وتوظيف التراث كما فى «زهرة الصباح»، فضلاً عن توظيف التاريخ كما فى «قلعة الجبل» و«اعترافات سيد القرية» و «الجودرية» و«من أوراق أبى الطيب المتنبى» و «ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» وغيرها.

كنت أجلس إلى جوار شقيقتى على الدكة الخشبية الصغيرة، نتلاصق بما يأذن لأعيننا كى تنظر - من وراء الستارة المهترئة - إلى توالى الصور الثابتة، يرافقها صوت الرجل، يذكر الأسماء: السفيرة عزيزة، أبو زيد الهلالى، الزناتى خليفة، ست الحسن، الشاطر حسن، إلخ.

لم تغادر الصور ذاكرتى، وكانت قصتى " سوق العيد " استدعاء لما كنت أشاهده فى صندوق الدنيا. تحركت الصور الثابتة، وصنعت حياة لها دلالاتها، وأفدت كذلك من الصندوق العجيب فى العديد من المحاولات الروائية والقصصية.

●●●

روايتى بوح الأسرار تحاول - من خلال معالجة فنية - أن تجيب عن السؤال : لماذا اختار الوجدان الشعبى هذه الشخصية أو تلك ، ليضفى عليها من هالات القداسة والعظمة ما يجعل منها أحد أبطاله الشعبيين ؟

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال - بصورة مطولة ، تقترب من العلمية ما أمكن - فى كتاب لى هو " البطل فى الوجدان الشعبى المصرى " ناقشت فيه جوانب البطولة فى عدد من الشخصيات التى وضعها الوجدان الشعبى فى ذلك الإطار :

لماذا اختار عنترة من بين مئات الشعراء فى الجاهلية ؟ ولماذا اختار الظاهر بيبرس من بين حكام المماليك ؟ ولماذا اختار السيد البدوى من بين الكثير من أولياء الصوفية الذين نسبت إليهم مساجد وأضرحة ؟ ولماذا اختار على الزيبق وابن عروس وياسين ومتولى وأدهم الشرقاوى وغيرهم ؟..

التقيت المجرم محمد أبو عبده ، أو ابن بمبة فى قرية السمارة الواقعة على حدود الشرقية والدقهلية . بدا فى أحاديث الجميع شخصية أسطورية . كان أبناء القرية يتحدثون عنه بتوقير وحب ، فى حين حذرنى مأمور مركز السنبلاوين وعمدة القرية من محاولة التعرف إلى الرجل ، وأظهروا خشيتهم من أن يرفض لقائى ، أو لا يحسن استقبالى . لكن الرجل استقبلنى بحميمية مصرية ، ودعانى إلى تناول الغداء . وتأملت توسطه لحل مشكلات أبناء القرية ، ومساعدته لهم فى كل ما يطرأ على حياتهم . حتى الحريق الذى أشعلته شرارة حطب ظهر يوم الصيف الذى تصادف أنى زرته فيه ، أذهلنى تصديه لإطفائه رغم أعوام عمره المتقدمة ..

بدا لى الرجل وأنا أغادر القرية ، تجسيداً للبطل فى

الوجدان الشعبى ـ فى بالى الكثير مما استمعت إليه من الحكايات فى أعوام النشأة ـ : كيف يكتسب صفاته ، فيصبح ـ فى توالى الروايات والحكايات والمواويل والسير ـ ذلك البطل الذى تنسب إليه الأفعال الخارقة والمعجزات. روى الصديق رفعت السعيد فى ذكرياته ـ فيما بعد ـ عن تعرفه إلى ابن بمبة فى رحلة الاعتقال والسجن . بدا معجباً بالرجل ، وأشار إلى أنه ـ الرجل ـ قتل تسعة أشخاص ، لكن الرجل أكد لى أنه لم يجاوز التخويف ، ولم يقتل أحداً . تصورت ابن بمبة ذلك البطل فى عملية التحول داخل الوجدان الشعبى . ولجأت إلى تقنية تعدد الأصوات التى اختلفت رواياتها فى تصاعد درامى ، تتحول فيه شخصية فرج عبده زهران ، أو ابن شفيقة ، من شاب يحترف الإجرام إلى ولى له بركاته وكراماته ومكاشفاته، وضريحه الذى يقصده الناس لالتماس المدد ، والمولد السنوى ، وحفلات الذكر .. ما بواعث التحول ؟ وكيف؟ وما نتائجه ؟..

تباينت الروايات فى طفولة ابن شفيقة ، ونشأته ، والظروف التى أفضت إلى تحوله إلى بطل شعبى . بالتحديد إلى ولى صوفى . لكن الروايات لم تختلف فى أن فرج خليل

قد أصبح له ضريح ومقام وخليفة وتلامذة ومريدون ، يؤمنون بكراماته ، ويذكرون الله تعالى ..

وكما يقول الصديق الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى فى دراسته لبوح الأسرار ، إنه إذا كانت أسطورة فرج قد مرت بمراحل ثلاث : مرحلة المظلوم ، ومرحلة الدافع للظلم الواقع على الناس ، إلى مرحلة المقدس ، فإنه - فى المراحل الثلاث - كان مطارداً . مطارداً من عمدة ظالم ، ثم من قوة الإدارة المتحكمة فى الجماعة ، ثم محاولة هذه القوة مطاردة أسطورته ، وحتى بعد موته ، فإن استخدام تعدد الأصوات جعل الأصوات المطاردة خافتة ، لترتفع الأصوات الواقفة مع فرج ساعة تكوّن أسطورته . إن الأسطورة هنا تمثل الواقع الاجتماعى للجماعة " .

أشير إلى العلاقة بين الموروث الصوفى والموروث الشعبى، المعتقدات والسلوكيات وأساليب العبادة . فالأتباع والمريدون ينسبون إلى من آمنوا بولايتهم ، كرامات ومكاشفات وخوارق، معظمها ينطلق من الخيال وليس من الواقع .

إنها حكايات متخيلة!

بانت سعاد

وعيت على البحر فى مواجهة بيتنا ، وفى إحاطته بالبيت - والحى كله - من ثلاث جهات . لا أذكر متى استمعت إلى الحكايات الأولى ، لكنها كانت فى سن باكرة للغاية ، أهمها ما كان يروى عن عروس - جنية - البحر ، واعتدت طيران النورس على امتداد الساحل ، والبلانسات ، والفلايك ، وعمليات الصيد بالسنارة والطراحة والجرافة ، وعسكرى السواحل ، وإيقاع جياد الملك فى جولتها الصباحية ، والمظاهرات ما بين سراى رأس التين وميدان المنشية ، وأهازيج السحر من مئذنة أبو العباس ، والموالد ، ومواكب الزفاف ، وشوارع السيالة المتشابكة ، الضيقة ، والحديقة الصغيرة أمام مستشفى الملكة نازلى ، ومرسى القوارب بالمينا الشرقية ، والرائحة التى لا تخطئها الأنف فى حلقة

السمك ، وزحام شارع الميدان ، وخطب الشيخ عبد الحفيظ في صلاة الجمعة ، ومواكب الصوفية ، والجلوات ، وسوق العيد .

كان ترامي صخب الجلوات يجذبني إليها ، نقف - وإخوتي - وراء الشرفات باستدارة الشقة ، نتطلع إلى الجلوة القادمة من شارع الأباصيري حتى ميدان الخمس فوانيس ، ندور معها في شارع إسماعيل صبري ، تلاحقها نظراتنا قبل أن تميل في شارع الميدان .

حين بدأت ملامح الأمكنة في التغير ، حاولت أن أحتفظ في ذاكرتي بكل ما أخشى أن يلحقه التلاشي . كنت أخشى أن تبدد الأيام ما ألفت رؤيته ، والحياة فيه ، من مظاهر الحياة . ثمة ما لا تستطيع أن ترفضه ، وإن كنت تشعر أمامه بالفقد ، العمران الذي يزحف على البنايات القديمة والأزقة والساحات الخالية ، وعلى الذاكرة الإنسانية أيضاً .

أشعر - أحياناً - في رحلاتي المتقاربة إلى بحري ، أنه يبتعد عن معنى الحي الذي ولدت فيه ، وأمضيت أعوام الصبا والشباب الباكر . العالم الذي تركته كما أتذكره ، لكنه ليس هو على وجه التحديد ، المرئيات لم تعد هي نفسها . حدث ما

يصعب أن أدركه ، لكننى أشعر به . مع ذلك ، فإن التغير يبين في ملامح كثيرة ، فى البنايات والشوارع والميادين والحياة فى الميناء الشرقية وشاطئ الأنفوشى . حتى الناس ليسوا هم الذين اعتدت لقاءاتهم . ثمة الكثير من ثوابت الملامح ، ليس فى بحرى وحده ، وإنما فى الإسكندرية جميعاً، لحقها الشحوب ، أو التلاشى ، فلا تربطنى بالملامح الآنية أية ذكريات .

فى قصتى القصيرة «حلاوة الوقت» يعود الراوى إلى بحرى ، إلى الأماكن التى شهدت طفولته ، ونشأته ، يروعه أن ما كان يعرفه واسعاً ، أو ضخماً ، قد ضاق أو صغر ، الشوارع ، مداخل البيوت ، الحجرات ، أضاف إلى التبدّل ما تهدم من بنايات قديمة ، وطلوع بنايات أخرى ، جديدة ، لها قسماتها المغايرة . ثمة مواضع كان لى فيها ذكريات شخصية ، زالت كأنها لم تكن .

حدثتك فى حكايات عن جزيرة فاروس عن فاطمة فتاة البيت المقابل ، هدمته وزارة الأوقاف التى يتبعها ، شيدت مكانه بناية أخرى حديثة ، رحلت فاطمة إلى حيث لا أدرى ، وحل فى البناية سكان آخرون إذا كانت السن قد تقدمت بى،

فلابد أنها فعلت الأمر نفسه ـ الآن ـ في الجميلة فاطمة . هل ما تزال تحمل بقية جمال ، أم أن الله تداركها برحمته ؟! .

هذا هو بحرى ، لكن ما عشته يختلف عما أراه الآن ، أشعر به ، وإن لم أستطع تحديده تماماً .

مع ذلك ، فقد تغير الكثير : الشوارع والميادين والساحات والبنايات وسلوكيات الحياة اليومية ، بدأت البيوت القديمة ، الصغيرة، المتساندة، في الذوبان ، في التلاشي ، بيوت قديمة توشك على التهاوى ، وبيوت متهدمة ، أو تحولت إلى خرائب ، تداخلت بنايات الأسمنت المسلح في البنايات ذات الأسقف الخشبية ، شيدت عمارات عالية، ستة طوابق وأكثر، وإن ظلت غالبية الشوارع على ضيقها ، فعانت الزحام بما أملته الزيادة السكانية ، وتنامى أعداد الوافدين إلى الحى بالتالى . لم تعد الصورة على حالها في مساحات كثيرة ، وفي الشوارع الرئيسة والميادين بخاصة ، تعرض كل شيء للهدم وإعادة البناء والتحوير والتبدل ، وإن كنت لا أبرئ ذاكرتي . تتوالى الصور ، تتعاقب ، واضحة وشاحبة ، تتسع آفاقها وتضيق ، تبين الملامح والتفاصيل ، وتختفى تماماً .

أذكر ـ على سبيل المثال ـ ذلك الرجل الذى كان يجول الشوارع وهو ينادى : أبيّض النحاس !. أوعية الألمنيوم هى البديل الأرخص للأوعية المصنوعة من النحاس . وغاب الحاوى وصندوق الدنيا والأراجوز وسباق البنز وسباق القوارب وصيد السنارة والطراحة والجرافة ، والأبوحمدات ، والفتوات ، ولابسات الملاءة اللف والقبقاب ، وعسكرى السواحل ، وعفريت الليل ، والغازية حاملة الغلق ، ونافخ النار ، ومن يبتلعون النار فى الجلوة ، ويصلون أسياخ الحديد فى وجناتهم ، ويقرقشون قطع الزجاج ، ويتلهون بالحيات والثعابين ، والقرداتى الذى كان يدفع حيوانه الصغير إلى حركات وشقلباظات ، كأن يقلد نوم الأعزب ، أو يصنع العجين كما الفلاحة ، وربما حرضه على السرقة فى زحمة البلاهة المتفرجة . ومضت سنوات بعيدة على رؤيتى الغجرية ، تخترق الشوارع ، وترفع رأسها إلى النوافذ والشرفات ، وصوتها يعلو بالقول : أدق وأطاهر !. لم أعد ألتقى كذلك بالرجل المفتول العضلات ، يدعو الملتفين حوله لتقييده بحبل ، ويفك القيد لقاء وضع قروش فى طبق تحت قدميه . وكان أميز ما فى أوقات الربيع سباق البنز من رأس

التين إلى السلسلة . ألغتـه ظروف الزحـام ، وربما الظروف الأمنية ، وهي الظروف نفسها التي ألغت العربات الصغيرة ، على نواصـي الطرق الجانبية ، تتيح لمن يحتسي الشاي أن يرفع ـ بالثمن نفسه ـ ثقل الحديد ، أو يلعب تنس الطاولة . ظني أن تلك الأشياء لو ظلت قائمة ، فإنها كانت ستزيد فرص تقديم المتفوقين في الألعاب الأولمبية ، وغيرها .

●●●

دنيا الفتوات في أعمالي، استعادة لذكريات أبي عن فتوات الإسكندرية. شكلوا معلماً مهماً في حياة المدينة، أزعج الناس بما كانوا يفرضون من إتاوات وعمليات ابتزاز ومعارك شبه يومية بين فتوة حي ما، وفتوة حي آخر، وتسيل الدماء ، وتدمر الممتلكات، ويدفع الثمن بعامة تجار المدينة وناسها العاديون، ويحيا الجميع في قلق دائم.

أثار الفتوات الذعر في بحري بمشاجراتهم التي لم تكن تنتهي بالسيوف والأسلحة البيضاء، وتتحطم بالتالي محال المنطقة والسيارات الواقفة على جوانب الطرق، فضلاً عن الخطر الذي يتهدد السكان والمارة.

لكن أفعال فتوات الإسكندرية امتدت - فى أحيان كثيرة - إلى سلطة الاحتلال الإنجليزى، يترصدون لجنوده فى شوارع المدينة، ويسرقون معسكراته. أذكر كالطيف - من طفولتى الباكرة - مجموعة من الفتوات قفز أحدهم فى سيارة نقل لجنود الإنجليز تحمل كميات من الملابس، وقذف بها إلى زملائه الذين انطلقوا وراء السيارة، حتى نفد ما كان بها من ثياب.

كانت شرفة بيتنا ونوافذه الخلفية تطل على ميدان الخمس فوانيس وجامع سيدى على تمراز . شهدت فى الميدان آخر معارك فتوات بحرى ، تطايرت فيها كراسى ، وتناطحت شوم ونبابيت ، وسالت دماء ، وسقط صرعى وجرحى ، وشال البوليس الباقين إلى حيث غابوا عن شوارع بحرى . وحين بدأت فى كتابة " رباعية بحرى " حاولت أن أقدم عالم الفتوات، تعرفت إليه من خلال الذكريات القديمة لأبى ، والقريبة لأبناء بحرى الذين عاشوا فترة مابين الحربين . وكان فتوات نجيب محفوظ دافعاً لأن أكتب عن فتوات الإسكندرية، رغم اختلاف المكان والزمان ، وطبيعة الشخصيات، ومهنهم

أيضاً!

كانت «الفتونة» هي العمل الوحيد الذى مارسه فتوات نجيب محفوظ . عاشوا على البلطجة ، وفرض الأتاوات ، وافتعال المشاجرات ، وخوضها لحساب الآخرين ، فى حين انه كان لغالبية فتوات الإسكندرية مهنهم التي تكسّبوا منها ، أما الفتونة فلم تكن سوى هواية ، وسيلة لإثبات الشهامة والنخوة والمروءة والجدعنة . وكان عمل فتوات نجيب محفوظ فى غيبة من السلطة ، شغلهم الهرب والتخفى واللواذ بالأماكن النائية. أما فتوات الإسكندرية فقد كان تحدى سلطة الاحتلال وحكومات الأقلية، حرصهم الأول. وكانت معاركهم فى الساحات والميادين وعلى القهاوى، وأعلنوا الاحتقار لمن جعل الفتونة مهنته. وكان أبلغ ما يعتز به حميدو فارس ـ مثلاً ـ ورواه الذين فوجئوا بالمشهد، أنه كبس طربوش المحافظ على رأسه ، لسبب تصور أنه يمس كرامته . وأفدت من الحادثة فى روايتى " الأسوار "، بيومى الدكر الذى كبس طربوش مدير المديرية على رأسه . وروى لى أبى كذلك، الكثير عن فتوات الإسكندرية. غالبيتهم ـ أو أكثرهم شهرة ـ من بحرى ، حيث قضيت طفولتى وصباى : حميدو فارس وأبو

خطوة والسكران ، وغيرهم ممن تغيرت - بغيابهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - صورة الحياة فى الإسكندرية ، وبالذات فى أحيائها الوطنية.

●●●

كان الخواجة ميخاليدس - البقال بشارع الميدان - يعيش الحنين نفسه الذى يعيشه كل الأجانب المقيمين فى الإسكندرية، كل يحن إلى موطنه الذى ولد - أو نشأ - فيه ، أو نشأ فيه أبواه قبل أن يهاجرا إلى مصر ، أو أن أصوله تنتسب إلى ذلك الموطن / الوطن . الوطنى من أبناء المدينة يحن إليها إن ابتعد عنها ، سواء ركب البحر ، أم أخذته الهجرة إلى بلد بعيد . أما الأجنبى فإنه يعانى حنيناً فى الاتجاه المقابل ، الحنين إلى موضع ما ، بلد ما ، فى الناحية الأخرى من البحر.

يحدثنى عن أيام تردده على شارع اللبان . يتردد على المقاهى والبارات ، يشرب الخمر ، يبحث عن النساء . يكتفى بأطراف كوم بكير - حى البغاء آنذاك - لا يحاول اختراق شوارعه وحواريه وأزقته . تضايقه العبارات الداعية والمحرضة ، من النسوة الواقفات على الأبواب ، وابتزازات البلطجية ، وتمازج روائح النوم والمخدرات والقيء والعرق

والعطن .

يحدثني عن الصيد ، السمان والبط وغيرها ، ما يذكره يتباين مع مظهره . تأتي أسراب الطيور من الشمال فراراً من البرد والصقيع ، تتجه إلى الجنوب ، إلى إفريقيا حتى أوغندة . تظل هناك إلى يونيو . يبدأ ما تبقى منها رحلة العودة . السمان طائر يكره الضوء والحرارة ، عصبى المزاج، يحب الحرية ، غبى التصرف ، فمن السهل صيده .

تعدد الميكروفونات في مساجد الحى ، لم يعد يقصر الأذان على أبو العباس ، تتلاقى الأصوات فى المآذن المتقاربة، تتشابك وتختلط ، تسبق العبارات وتتأخر ، يصعب تبين إلا مفردات : الله ومحمد والصلاة والفلاح . أستكمل العبارات بما أحفظه جيداً ، الأذان فى ذهنى ووجدانى منذ بداية الوعى .

كانت الأراضى الخلاء فى بحرى ، تتحول - تلقائياً - إلى ملاعب لكرة القدم . الخلاء المجاور لحلقة السمك ، الموضع الذى بنيت فوقه - فيما بعد - سينما التتويج ، الأرض المواجهة لسراى رأس التين ، ومواضع أخرى كنت أحرص على التنقل بينها . يتقابل المرميان ، وتصف الكراسى على جانبى

«الملعب» . يشارك فى المباريات لاعبون من أندية الإسكندرية : الاتحاد ، الأولمبى ، الترام ، بالإضافة إلى لاعبين من أندية القاهرة يحاولون الإنفاق على إجازة الصيف مما تدره المباريات . كل كرسي بقرشين ، يمثل مجموعها مبلغاً لا بأس به فى وقت يختلف تماماً عن وقتنا الحالى . أذكرك بما رواه عبد الكريم صقر عن قطعة الجاتوه التى كان يظفر بها من يجيد الأداء !

أما المستوقد فى شارع سوق السمك القديم ، فقد أزيل من موضعه . حلت - بدلاً منه - محطة للبنزين . أذكر نهايات أيامه . كان أبى يحرص على شراء الفول من البائع الذى يقف أسفل بيتنا ، يضع قدوره فى المستوقد لتنضج على رماده . طعم الفول ألذ وأشهى من الفول الذى ينضج بعيداً عن المستوقد . وثمة الترام الصغير ذو العربة الواحدة فى السكة الجديدة ، والتكية أول شارع إسماعيل صبرى ، والطرق المرصوفة بالبازلت .

●●●

ونحن صغار ، كنا نترك بيوتنا ، فى أيدينا الفوانيس الملونة . ليست فوانيس هذه الأيام البلاستيكية بلمبة البطارية

الصغيرة ، وإنما فوانيس من الصفيح ، تتراقص فيها شمعة بحق وحقيق ، يرافق تراقصها غناؤنا لما كنا نستمع إليه من أغنيات رمضان ، مثل وحوى يا وحوى للمطرب الراحل أحمد عبد القادر ، أو رمضان جانا لمحمد عبد المطلب ، وغيرها من أغنيات شهر الصوم . فإذا صادفنا دكان ، تعالت أصواتنا بالقول : الدكان ده كله عمار .. وصاحبه ربنا يغنيه . يهبنا صاحب الدكان مليماً أو مليمين ـ مبلغ لا بأس به بعملة ذلك الزمان ! ـ فنكرر القول : الدكان ده كله عمار .. وصاحبه ربنا يغنيه . قد يطردنا صاحب الدكان ، أو يلعن سنسفيل آبائنا ، أو يقذفنا بما فى يده . نهتف ونحن نجرى : الدكان ده كله خراب .. وصاحبه ربنا يعميه .

نزهق من حمل الفوانيس . نكومها فى أى موضع ، ثم تبدأ جولتنا فى شوارع بحرى وحواريه ، نتعرف إلى مظاهر الاحتفال برمضان .

بحرى ـ كما تعلم ـ هو أصل الإسكندرية . التقاء قرية راقودة بجزيرة فاروس . الحى ـ حتى الآن ـ هو التعبير عن «البلد» . يقول ابن الرمل أو محرم بك أو سيدى بشر . أنا نازل البلد . المعنى أنه فى طريقه إلى بحرى . لبحرى

خصائصه التى لا تجدها فى بقية أحياء الإسكندرية . التقاء اليابسة والبحر من كل الجوانب . شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية ، مساحتها كيلو متراً مربعاً . غالبية سكان الحى من العاملين فى مهن تتصل بالبحر : صياديون وباعة سمك وغازلو شباك وبحارة وعمال ميناء وصغار موظفين . تتداخل البنية الديموغرافية مع الطبقة الوسطى من ميدان أبو العباس إلى ميدان المنشية ، حيث ينتهى حى بحرى ، أو ما يسمى - إدارياً - حى الجمرك .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الروحانية سمة لافتة فى بحرى . ثمة المرسى أبو العباس ، أو سلطان الإسكندرية كما يلقبه السكندريون . من حوله جوامع أولياء الله : البوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين وعبد الرحمن وعلى تمراز . وتتناثر - فى شوارع الحى وحواريه وأزقته - مقامات وأضرحة لأولياء آخرين ، فتتشكل صورة يصعب أن نجدها فى أى موضع آخر ، داخل الإسكندرية أو خارجها . يضيف إلى اكتمال الصورة ما يشغى به الحى - على امتداد العام - من موالد وحلقات ذكر وخيام صوفية وأكشاك ختان ، والتقاء الأذان من المآذن المتقاربة فى مواعيد الصلاة الخمس (كان

سلامة حجازى رافعاً للأذان فى البوصيرى وأبو العباس قبل أن يتجه إلى الغناء !) وأهازيج السحر ، والتواحيش ، وتذكير الدراويش للمؤمنين بقرب صلاة الفجر .

فى خان خليلى نجيب محفوظ غنى الأطفال فى استقبال رمضان : صيام صيام .. كما أمر قاضى الإسلام .

لأن قاضى الإسلام كان يقيم فى القاهرة ، فلا أذكر أن أطفال الإسكندرية - زمان - أنشدوا تلك الأغنية ، قدموا أغنيات من التراث الصوفى - وللإسكندرية بفضل أقطابها الصوفيين نصيب وافر - ورددوا - فيما بعد - أغنيات الإذاعة .

قبل أن يبدأ التليفزيون تقديم فوازيره وبرامجه المسلية ومسلسلاته ، كانت سهرات رمضان تبدأ - بالنسبة للصغار - بعد الإفطار مباشرة ، وبالنسبة للكبار بعد صلاة التراويح . ميدان المساجد منطقة استقطاب لكل أبناء الإسكندرية : يتنقلون فى سوق العيد يبدأ قبل رمضان ، وينتهى بعد العيد المراجيح وخيال الظل وصندوق الدنيا والمرأة الكهربائية والساحر والثلاث ورقات وألعاب القوة والنشان ، أو يجلسون فى خيام الصوفية ، أو فى السرادقات التى ينشد فيها الزاوى الشعبى سيرة عنترة والهلالية . يظل ليل بحرى

مستيقظاً إلى ما بعد صلاة الفجر . حتى الأسر التى تفضل البقاء في البيوت تسلى سهرها بتناول المكسرات وقزقزة اللب وأبو فروة .

أذكر أن الطيبة اجتذبتنى فى ملامح المسحراتي . كنت أستمع إلى دقاته على الطبلة ، ودعواته ، ومناداته على أبناء الحي بالاسم . قلت له اسمى ، وظللت متيقظاً إلى ما قبل فجر اليوم التالى ، أنتظر مناداته اسمى . نطق الاسم بالفعل، وتبينت ـ حزيناً ـ أن غالبية أبناء الحي يتقاسمون اسمى : محمد .

أصارحك أن الصورة لم يطرأ عليها تغير ملموس ببدء الإرسال التليفزيونى . ظلت سهرات رمضان ـ بأبعادها الروحية والترفيهية ـ على عافيتها وتألقها . ما بدل الصورة ـ إلى حد كبير ـ ذلك البناء الخرسانى الضخم الذى أقيم فى قلب ميدان أبو العباس ، نتيجة صفقة ـ غابت حقيقتها ـ بين محافظ الإسكندرية الأسبق وعدد من رجال الأعمال . تحول الميدان إلى مؤسسات تجارية واقتصادية ومطاعم ودكاكين للبازار وشرائط الفيديو والكاسيت . أصبح سوق العيد ـ المظهر الأهم لسهرات رمضان ـ مجرد مواضع متناثرة فيما

تبقى من الميدان ، وتقلصت السرادقات والخيام ، وغابت الجلوات التى كانت تنطلق من باب جامع أبو العباس إلى أحياء الإسكندرية الأخرى .

رمضان زمان ذكريات جميلة فى وجدان جيل الآباء ، وعلى جيل أطفالنا الحالى أن يقنع ببرامج الإذاعة والتليفزيون، وبفوانيس البلاستيك ، يحملونها وهم يرددون الأغنية المتوارثة من زمن بعيد : حالو يا حالو .. رمضان كريم يا حالو .. فك الكيس وادينا بقشيش .. لنروح ما نجيش .. يا حالو .

يرتبط شهر رمضان فى ذاكرتى بقراءتى الأولى لكتاب طه حسين «الأيام» ..

مع أنى لا أذكر متى بدأت الاختيار ، والقراءة ، فى مكتبة أبى ـ وكانت مفعمة بالكثير من كتب اللغات والاقتصاد ، وبالأقل من كتب التراث والأدب المعاصر ـ فإنى أذكر قراءتى لكتاب «الأيام» جيداً . أذكر ظروف قراءته وتأثيراته فى نفسى . كنت أقرأ كل ما تصادفه يداى . أذكر أقله ، وأنسى معظمه . وحين قرأت " الأيام " لم يعلق فى ذاكرتى إلا السياج الذى تصور الصبى أنه نهاية العالم . لم تتح له

العاهة التى كان يعانيها أن يجيد التعرف إلى ما حوله ، غابت تفصيلات المكان والزمان ، فلم أعرف ـ وقتها ـ أن الأحداث جرت فى الصعيد ، وأن زمنها هو أواخر القرن التاسع عشر . ولم أرسم ملامح محددة للصبى ، وإن بدا ـ فى مخيلتى ـ على الهيئة التى رسمها الفنان الكبير بيكار تعبيراً عن الأحداث .

فى القراءة التالية ، أشفقت على الصبى حين أخفق فى أكل العدس ، فحاول أن يقتل نفسه بالساطور . أغنانى بيكار عن تخيل ما حدث برسمه المشهد الدامى ، أو الذى أوشك أن يكون دامياً ، ولم تغادر الصورة ذهنى ـ منذ تلك الأيام البعيدة ـ حتى الآن . بل إنه كلما عرانى الارتباك لسبب ما فرضت معاناة صبى الأيام نفسها على ذاكرتى !..

أما القراءة الثالثة ، فقد كانت هى الدافع لأن أكتب أولى محاولاتى . كتيب صغير مطبوع سميته " الملاك " . كتبته قبل أن أجاوز مرحلة الطفولة . تأثرت للغاية بالكلمات التى توجه بها الراوى إلى طفلته الصغيرة ، يحدثها عن فضل أمها عليه، وعلى أسرته الصغيرة . أعدت قراءة الكلمات حتى حفظتها تماماً ، وأقدمت على محاولة المحاكاة فى أول ما صدر لى من

ورق مطبوع . تحدث طه حسين عن الملك الذى حنا عليه ، وعلى ولديه .. وتحدثت عن الملاك الذى فارقنا - إخوتي وأنا - ونحن صغار ، وأسرفت في اختيار الكلمات التى تبين عن الافتقاد والحب ، مستعيناً - أعترف - بعبارات كاملة لطه حسين والحكيم والزيات والمازنى وعبد الحليم عبد الله والسحار وغيرهم من كبار الأدباء فى تلك الفترة ..

الدرس الأهم الذى خرجت به من قراءتى للأيام ، أن الإعاقة في الذهن وليس فى الجسد . لقد تحدى طه حسين إعاقته ، واستطاع - كما روى لنا فى الأجزاء الثلاثة من الأيام - أن يصبح أحد الرموز الثقافية ، ليس على مستوى مصر فحسب ، ولا على مستوى العالم العربى وحده ، وإنما على مستوى العالم كله .

●●●

كان أهم ما يميز شهر رمضان ، السهرات الدينية التى تقام - على نفقة الملك فاروق - فى حديقة سراى رأس التين ، قوامها تلاوة من القرآن الكريم لقارئ القصر الملكى - هذا هو اللقب الذى أطلقه الملك عليه - الشيخ مصطفى إسماعيل .

لا أذكر أن أبى صحبنا إلى حديقة السراى . كنا نرافق

أمهاتنا ، ونجلس داخل الحدوة الهائلة ، يطوف علينا خدم السراى بالمشروبات ، وتحيط بنا الأضواء من كل الجوانب ، ويتناهى صوت الشيخ مصطفى إسماعيل بأدائه الجميل هو الثالث ، فى تقديرى ، من أصحاب الأصوات السماوية بعد محمد رفعت وأبو العينين شعيشع .

نعود إلى شارع إسماعيل صبرى ، أسر متجاورة من بيتنا والبيوت المتجاورة ، أمهات وأطفال ، نسير على رصيف الكورنيش إلى تقاطع إسماعيل صبرى ، فتمضى كل أسرة إلى بيتها .

كانت تلك الرحلة القصيرة - نسبياً - من رأس التين إلى إسماعيل صبرى أميز ما فى السهرة جميعاً ، نمارس ما يحلو لنا من ألعاب وسط زحام المارة والقعود ، لا نعبأ بأوامر الأمهات وشخطاتهن . أذكر أن إحدى الأمهات ثارت على شقاوة طفلها ، صاحت مستنكرة : شفتى الولد !. التقط صبية الأنفوشى التعبير ، حولوه - حالاً - إلى كلمات مغناة قوامها قول الجارة : شفتى الولد .. شفتى !

●●●

فى الأيام العشر الأخيرة من رمضان ، يعلو صوت مؤذن

جامع أبو العباس بالتواحيش ، وهى غير التواشيح . مفرداتها التأكيد على الإحساس بالوحشة فى انقضاء أيام الشهر الفضيل : لا أوحش الله منك يا رمضان .. لا أوحش الله منك يا شهر الصيام .

يعد الناس أنفسهم لما قبل عيد الفطر ، وللعيد نفسه . تنشط حركتهم بين البيوت والأفران ، وكعك العيد على الرءوس ، يقبلون على شراء المكسرات من شارع اسمه "النقلية" ، يفترش ما يسمى بسوق العيد مساحات فى الأرض الخلاء والساحات ، مثل ميدان المساجد ، والساحة المقابلة لجامع على تمراز ، ومواضع أخرى فى الأنفوشى ورأس التين . يضيف إلى بهجة الليالى مولد المرسى أبو العباس الذى يأتى موعده فى نهايات رمضان . الأعلام والبيارق واللافتات وخيام الصوفية وحلقات الذكر والتواشيح والإنشاد الدينى ورواية السيرة النبوية وسير الصالحين ، والجلوة التى تطوف شوارع المدينة فى آخر أيام المولد ، تسبقها الشارات والأعلام والدراويش الذين يلجأون إلى أفعال الخوارق ، تأكيداً لمعنى المحو والفناء .

أذكر - كالطيف - ليلة إعداد كعك العيد . كانت أمى

بصحتها ، بمعنى أنى ربما كنت فى الخامسة أو السادسة من العمر . كانت تشرف بنفسها على إعداد الصوانى ، تحملها دهب إلى فرن التمرازية القريب . ثمة نداءات وملاحظات وأنوار عالية ، وباب الشقة مفتوح لتسهيل الحركة.

تظل المدينة - والأحياء الشعبية بخاصة - ساهرة ليلة العيد إلى موعد الصلاة . يدس الأطفال ثيابهم الجديدة تحت الوسادات ، أو يضعونها إلى جانبهم على الأسرّة ، حتى تعلو التكبيرات . يحرصون فى ذهابهم إلى الصلاة على ارتداء الثياب الجديدة ، والحصول على العيدية من كبار الأسرة : الجد والجدة والأب والأم والأعمال والأخوال . يحاكون الكبار فى أدائهم للصلاة ، ينتظرون - كما ينتظر الكبار - حتى ينتهى إمام الجامع من الخطبة .

تحل بداية الاحتفال بالعيد - عند الأطفال - حين يتركون آباءهم ، ويتجهون إلى ميدان سوق العيد ، على ناصيته سيارات أجرة ، مقابل ركوبها خمسة مليمات (لا يعرفها جيل الأطفال الحالى) . تستوعب السيارة ما لا سبيل إلى حصره . تتداخل الأجساد والأيدى والأقدام بما لا يكاد يتيح فرصة لالتقاط الأنفاس ، ولا رؤية أى شىء . لكن سعادة

المغامرة تلف الجميع .

تنطلق السيارة فى شوارع غير مرئية ، انعدام الرؤية لا يتيح التعرف إلى ما يمكن رؤيته . يشعر الأطفال من رائحة البحر أنهم يسيرون بالقرب منه . إذا قال السائق : وصلنا السراى .. عرفوا أنه قد وصل إلى نهاية النزهة أمام قصر رأس التين . يبدأ رحلة العودة دون أن يغادر الأطفال أماكنهم. مجرد إعادة الترتيب ستفضى إلى نتائج سلبية ، فى مقدمتها أن البعض لن يعثر على الموضع الذى كان يشغله داخل السيارة . يهمل السائق صراخ المعاناة من كتمة النفس. يواصل السير حتى يصل إلى نقطة البداية . يندلق الأطفال من السيارة (هذا هو التعبير الأدق !) إلى أرض الطريق ، لا يدرون كيف احتوتهم هذه العلبة الحديدية !

ما يكاد السائق يعلن عن بداية الرحلة التالية ، حتى ينسى الجميع معاناتهم ، يتسابقون إلى دفع المليمات الخمسة، ويندفعون داخل السيارة ، تنحشر الأجساد والأيدى والأقدام ، تأهباً لرحلة تتزاوج فيها اللذة والألم .

فرض إختفاء الساحات والأراضى الخلاء والزحام غياب

كل هذه المظاهر التى حدثتك عنها . نحن نحتفظ بها فى نفوسنا ، وإن صحبنا أبناءنا إلى المتاح من الحدائق العامة ، بالإضافة إلى الفسحة الأجمل على شاطئ الكورنيش .

●●●

زمان، كانت المسافة بين سراى رأس التين وسراى المنتزة ساحة للألعاب والمسابقات التى تستمر طيلة أشهر الصيف، تجتذب أبناء الإسكندرية، بالإضافة إلى زائريها من المصيفين.

كان سباق البنز يقام كل اثنين، عشرات من عربات البنز يقودها أصحابها من رأس التين إلى المنتزة. كالعادة يبدأ السباق بمئات العربات، تتقلص تدريجياً، فيصل إلى نقطة النهاية مالا يجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. والناس - على الجانبين - يهللون، ويشجعون.

وكانت المينا الشرقية تشهد سباق القوارب بين صيادى رأس التين وصيادى السيالة، ما بين قلعة قايتباى ولسان السلسلة. تنزل الفلايك بالأعلام والرايات الملونة والمزامير والدفوف والطبول، تنطلق وسط عبارات التشجيع والتصفيق والكلمات التى لحنت خصيصاً لهذه المناسبة.

.. يردد أبناء السيالة: قفة ملح وقفة طين.. على دماغ رأس

التين.

ويردد أبناء رأس التين: سيالة يا سيالة.. ياللى ما فيكى رجالة!..

وعلى امتداد الشاطئ، تتعالى الصيحات والدعوات التى تنتصر لكل فريق، ويفوز أحد الفريقين، فتطوى الأعلام، وتصمت الموسيقا، ويعود الجميع ـ متسابقين ومشجعين ـ إلى بيوتهم محملين بالذكريات الجميلة، وبوعد على اللقاء فى مسابقة تالية، قريبة.

أما مسابقات السباحة، فقد كانت تجرى من آخر نقطة فى يسار الأنفوشى إلى لسان السلسلة، يشارك فيها مشهورون ومجهولون.

وفى الساحات الخالية فى شارع التتويج (محمد كريم)، وبالقرب من حلقة السمك، وأمام سراى رأس التين، كانت تقام مباريات الكرة.

رأيت ـ فى طفولتى ـ لاعبى الخمسينيات من الأهلى والزمالك والترسانة، الكراسى تحيط بالساحة، الكرسى بقرشين. عرفت أن الإيراد ينفق منه اللاعبون على مصاريفهم الشخصية أثناء الإجازة. وكما نعرف، فقد كانت كرة القدم

أنذاك هواية خالصة، حدثنا عبد الكريم صقر - في وسائل الإعلام - عن قطعة الجاتوه بقرش صاغ التي كان يظفر بها من يحرز هدفا!

بالطبع فإن الكثير مما كان يشهده الساحل، سواء داخل البحر، أو على الشاطئ، لم يعد يسهل إقامته في ظروف الزحام الحالية.

●●●

تحول الحنطور إلى وسيلة نقل سياحية ، يستقله المصيفون أو البحارة الأجانب ، للفرجة على معالم المدينة . أغلب سيره - كما أرى - في طريق الكورنيش ، ما بين قصر رأس التين وقصر المنتزة ، عزيز قوم ذل ، فلا يلاحقه الأولاد بعبارات السخرية والشتم والصفات المعيبة . ذلك ما كان يغضب الحوذية زمن طفولتي ، يردون على العبارات القاسية والسخيفة بعبارات أشد ، أو يلجؤون إلى الكرباج إن أفلح في بلوغ مصدر الصوت .

كان موقف عربات الحنطور على ناصية شارع إسماعيل صبري من ناحية شارع التتويج - شارع محمد كريم الآن - أعرض على الحوذي طلب جدتي بأن ينقلها إلى محطة

الأوتوبيس في ميدان محمد على ، أو محطة السكة الحديد ، تحدد لي جدتي السعر الذي أوافق عليه ، تحذرني من قبوله إلا بعد أن أساوم بأسعار أقل ، مقابلاً للسعر المرتفع الذي سيعرضه الحوذي . سقف الموافقة هو المبلغ الذي حددته جدتي ، أو أعود إلى البيت لعرض الأمر .

وكان الحنطور وسيلة احتفال بالعيدين ، إلى جانب سيارة التاكسي التي اعتدنا ركوبها ـ كما رويت لك ـ في زحام عشوائي . اختفى الحنطور من شوارع الإسكندرية وحاراتها ، بل وأزقتها . تم الأمر في مدى أعوام طويلة كتأثيرات الزمن ، وإن ظلت أعوام وجوده ـ كوسيلة نقل مهمة ـ ماثلة في الذهن .

تأثيرات الزمن تفرض ملامح جديدة ، تُغَيِّب من حياتنا ما ألفنا وجوده كثوابت يصعب تصور افتقادها . اختفت الذكريات الحميمة ، حل مكانها ما بدا لي مفاجأة خالصة . لم يعد من الزمن القديم إلا الجوامع الكبرى ، والزوايا ، وما تبقى من البنايات القديمة ، أنشئت العمارات الجديدة متعددة الطوابق ، وعلت الإعلانات المضيئة ، ومحال البضائع الحديثة . حديقة سراى رأس التين في اتساعها القديم ، لكن لم يعد في وسع أهل بحرى أن يترددوا عليها ، أقيمت أمامها

متاريس تمنع الدخول . أفهم - وأتفهم - عملية إزالة البنايات المحيطة بالبيت الحرام ، والبنايات التى أتاحت توسيع ميدان الحسين بالقاهرة ، لكن من الصعب أن أتصور إنشاء كتلة خرسانية تحتل المساحة الأكبر من ميدان أبوالعباس بدعوى توسيع الميدان . أثق أن الإغراءات المادية كانت هى الباعث لما حدث ، وأثق - فى الوقت نفسه - أن قراراً حاسماً تصدره الجهة المسئولة ، سيكفل إعادة الميدان إلى صورته الأولى . قلت مساحات الشوارع المبلطة بالبازلت ، مقابلاً لزيادة المساحات المسفلتة . اعتدت - فى صباى - أن أتقافز فوق المكعبات البازلتية ، وأعدها ، حتى ينبهنى - فأفسح الطريق - هتاف حوذى ، أو قرقعة عجلات عربة كارو ، أو كلاكس سيارة . فى زياراتى إلى مدن ساحلية ، بدت لى الطرق البازلتية ملمحاً مهماً فى شخصيتها ، وكانت هى الملمح المهم فى شخصية الإسكندرية ، لكنها ذوت ، واقتصرت على بعض الشوارع الجانبية ، والضيقة . حتى الحديقة المواجهة لمستشفى الملكة نازلى ، عطلت نافورتها ، وغطى التراب أرضيتها التى كانت خضراء . غاب رونقها القديم . أما البوصة التى يتدلى منها خيط النايلون والسنارة . يجلس

الصياد على المكعبات الإسمنتية ، أو يقف فوقها . يقذف السنارة الحاملة لطعم الجمبرى الصغير ، يتشبث بالصبر حتى تحدث الجذبة ، فتعلو يده بالصيد الذى طال ترقبه . هذه الصورة شحبت ، أو تلاشت . اشتريت أدوات صيد السنارة فى أحيان كثيرة ، وشاركت الصيادين وقفتهم ، وعدت إلى البيت وفى " الغلق " من أحاد المرجان والبربونى ما يحض على التباهى . السنارة القديمة اختفت . حلت - بدلاً منها - ماكينات حديثة جيدة الأداء . لم تكن الثلاجة الكهربائية قد دخلت بعد معظم بيوت بحرى . لذلك كان رواج تجارة عم أحمد فى ألواح الثلج واضحة ، يتوالى قدوم عربات النقل المغلقة ، يفتح بابها الخلفى على رصات الثلج ، تستقر داخل الصندوق الخشبى الأخضر ، ما يزيد يرص فى مدخل البيت المجاور ، ساعة أو أقل - فى الصيف بخاصة - ينفد كل ما حملته العربة ، لتأتى عربة ثانية ، وهكذا . مطعم الطنطاوى مازال فى مكانه ، وإن بدّل نشاطه . لم يعد يقتصر على الفول والفلافل ، لكنه أضاف إليهما وجبات خضار ساخنة ، تغيرت نوعيات الزبائن نتيجة لتغير الطلبات . سينما التتويج - فى المواجهة - تحولت إلى جراج ، ثم أزيل لتقام - فى موضعه -

بناية سكنية ، ذات طوابق متعددة .

آخر من كنت أعرف بشارع إسماعيل صبرى ، الأسطى إبراهيم شعبان ، صاحب دكان الترزى أسفل بيتنا . كنت أحرص - فى زياراتى إلى الشارع - أن أسأله عن الأحوال : كيف كان الزمن القديم ، ومن بقى منه ، وماذا عن الجديد ؟. وكان يصبر على أسئلتى التى تذكره بأسماء نسيها هو نفسه.

طالعنى دكان إبراهيم شعبان - فى زيارة أخيرة - بالإغلاق. عرفت أنه قد أصيب بشلل مفاجئ ، فحمله الجيران - الجيرة لها معناها الجميل فى الأحياء القديمة - إلى المستشفى، أقام فيها أياماً ، ثم عاد إلى بيته فى وضعه المرضى ، أرقدوه على فراشه ، فلم يعد يغادره.

إبراهيم شعبان هو آخر الخيوط التى كانت تربطنى بشارع إسماعيل صبرى الذى أعرفه ، تحوطنى الغربة بالنظرات المتسائلة ، والسحن التى لم يسبق لى رؤيتها ، والمحال التى تقدم أنشطة فرضها إيقاع العصر ، كالموبايل والأجهزة الكهربائية ووجبات الطعام السريعة .

●●●

من عادتى - كما قلت لك - أن أعود إلى بحرى ، وما تزال ذاكرتى تستعيد شخصياته وأحداثه ، حتى التى مضى على

غيابها أعوام طويلة ..

أحياناً ، فإني أنفي ما شاهدته ، أستعيد ما عشته من المواضع القديمة ، ما تعرض للإزالة والتقويض والتدمير ، لتحل ـ بدلاً منه ـ مواضع جديدة : شوارع وميادين وبنايات . تلك هي حيلتي للعيش في زمن الطفولة والصبا ، الزمن الذى تدين له ذاكرتي بما تعرفت إليه ـ وحاولت التعبير عنه ـ من شخصيات ووقائع .

●●●

بحرى هو نبض الكثير مما كتبت ، وأثق ـ لو أسعفني العمر ـ أنه سيكون نبضاً لأعمال أخرى تالية ..

أصارحك بأن الحزن يلفني عندما أزور الإسكندرية ، حى بحرى بالذات ، هذه الأيام ..

تغيرت الصورة تماماً ، فأنا أفضل أن أعتمد على صور الذاكرة ..

أفلح الانفتاح فى أن ينفذ ـ بمظاهره السيئة ـ إلى الموطن الذى نشأت فيه ، وأحببته. بحرى الذى عشت فيه يختلف عن ذلك المبنى الخرساني الهائل الذى احتل ميدان أبو العباس، فذوت الروحانية وحميمية البشر، تعرضت العمارة الجميلة

لجامع أبو العباس، وفى الجانبين جامع البوصيرى وياقوت العرش، إلى عملية تشويه متعمدة، بالسطو على مساحة الميدان، وإقامة هذه الكتلة الخرسانية الهائلة موضعها، تشغلها المولات والمطاعم ودكاكين البازار. أفتقد الحديقة الهائلة أمام سراى رأس التين تتيح خضرتها للجميع، ويتلى فيها القرآن في ليالي رمضان. شاطئ الأنفوشي احتلته الكبائن وورش المراكب، فضاعت فرص أبناء الحى فى الإفادة من البحر الذى ولدوا على شاطئه.. الكثير من الصور التى أحببتها، وعبرت عنها - فنياً - في أعمالي، مقابلاً للكثير من الصور التى لا تعدو تشوهات في الجسد الجميل.

حى الجمالية بعمارته الإسلامية وشوارعه الضيقة وأقبيته ومساجده وزواياه وحرفييه، هو التعبير عن القاهرة المعزية بكل زخمها التاريخي والمعماري والإنساني. ذلك ما يصدق - إلى حد كبير - على حى بحرى ، وإن انتسب الكثير من أبنائه إلى المهن المتصلة بركوب البحر ..

وإذا كانت وزارة الثقافة تحاول إنقاذ الجمالية من الزحف الخرسانى ، فلعل ذلك ما يحتاج إليه بحرى ، لا أقصد البيوت

القديمة المتهالكة ، فلابد أن تمتد إليها يد الإنقاذ وفق أسس معمارية محددة ، وإنما أقصد المعالم المعمارية والتاريخية المهمة ..

لتكن البداية - على سبيل المثال - بإزالة تلك الكتلة الخرسانية الهائلة من ميدان أبو العباس ، مقابلاً لما حدث في ميدان الحسين ، فيعود إلى الميدان ما سلب منه ، وما ألفه من ملامح متفردة ، يفتقدها أهل الإسكندرية وزوارها !

●●●

غير الزمن طبيعة المكان ، الكثير من الأشياء غابت ملامحها ، أو تداخلت في ملامح أخرى جديدة . ليس هذا هو بحرى الذى عشت فيه طفولتى وصباى وسنين من شبابى ، الفضاءات التى صارت - فيما بعد - محوراً لكتاباتى ، كل الصور فى ذاكرتى ثبتت على مشاهد محددة . تغلبنى الحيرة وأنا أحاول الكتابة ، وأنا أحاول استعادة الملامح والقسمات ، ما بين المشاهد الآنية وتوصيف الذاكرة ، ما أزاله الهدم ، والجديد الذى بدّل طبيعة المكان . كما رويت لك ، فإنى أغمض العينين أحياناً (لى قصة اسمها «إغماض العين») وأحاول استعادة ما كان .

غواية الإسكندر
وتسونامى الدلتا

لم يكن بحث الراوى عن قبر الإسكندر ، فى روايتى «غواية الإسكندر» ، بهدف العثور على القبر لقيمته التاريخية أو الأثرية ، أو العثور على الكنز الذى قيل إنه أودع فى القبر، لكنه أراد أن يجد الطلسم الذى طلب الإسكندر أن يوضع ضمن المتعلقات المودعة مع جثمانه ، وهو طلسم يمنع اعتداء البحر على المدينة ، ويحمى الإسكندرية من الغرق . ذلك ما توصلت إليه أبحاث الراوى - وهو أستاذ جامعى - فانشغل بالقراءة والبحث والتنقيب ، يحاول أن يمنع تهدد الإسكندرية بالمصير القاسى .

لم يفقد الأستاذ الجامعى وليد صبحى إيمانه أنه سيعثر على القبر ، الكنز ، الطلسم ، لينقذ الإسكندرية من الخطر الذى يتهددها .

والحق أن بحث وليد لم يكن فى الفراغ ، ولا هى شطحات عالم ، فالحقائق العلمية ـ تؤيدها ظواهر بيئية ومناخية ـ تخشى ارتفاع منسوب مياه البحر فى الأعوام القادمة حددها العلماء بما لا يزيد على ٢٠ عاماً ! بحيث تبتلع الأرض مساحات هائلة من الدلتا. بل إن بعض التقديرات تتوقع غرق ثلث الدلتا، خلال الأعوام المائة القادمة، بعد أن يرتفع منسوب مياه البحر المتوسط مترين.

●●●

ما معنى الانبعاث الحرارى ؟

إنه زيادة درجة حرارة الأرض ، نتيجة انبعاث الغازات الضارة التى استقرت فى الغلاف الجوى ، وتعمل كسطح عاكس لأشعة الشمس المرتدة من الأرض ، فتمتص جزءاً منها ، وتؤدى إلى ظاهرة التسخين ، وارتفاع درجة الحرارة .

غاز ثانى أوكسيد الكربون الناتج عن الأنشطة البشرية فى إحراق الفحم والبترول الذى نستخدمه فى المصانع والسيارات ، ومحطات توليد الطاقة ، وغيرها .. هذا الغاز هو أهم الغازات المعروفة باسم غازات الاحتباس الحرارى .

والحق أن تأثيرات التغير المناخى أخطر من مجرد ابتلاع مياه البحر لجزر وسواحل ومدن وبلاد - ربما - باكملها . تمتد التأثيرات فتشمل فقد الكثير من دلتا الأنهار ، وكثرة الفيضانات ، والأعاصير المدمرة ، والجفاف ، والاختلاف فى توزيع أحزمة المطر إلى حد التوقع بأن تنخفض إيرادات مياه النيل ، نتيجة لتغير حزام الأمطار فوق حوض النهر . ونقص الإنتاج العالمى من الحبوب والإنتاج الحيوانى ، وانتشار الأوبئة ، وموت ما لا حصر له من الكائنات الحية فى أعماق الأنهار والبحار والمحيطات ، واختفاء العديد من الجزر ، وتآكل الشواطئ ، فضلاً عن فقدها . بل إن الآثار السلبية قد تبلغ حد تحول الشعاب المرجانية بالبحر الأحمر إلى البياض ، مما يفقدها جاذبيتها السياحية .

من الأخطار الماثلة كذلك ، ما أعلنه وزير البيئة الأندونيسى أن ارتفاع حرارة الأرض يهدد بالغرق ألفى جزيرة من جزر الأرخبيل الأندونيسى قبل عام ٢٠٣٠م . وزاد رئيس جمهورية جزر المالديف فأعلن أن الجزر التى تتكون منها بلاده ، قد تختفى تماماً خلال قرنين من الزمان بتأثير تغيرات المناخ .

التغير المناخى إذن مبعثه ظاهرة الاحتباس الحرارى ، وما يستتبعها من ذوبان طبقات الثلوج بالمناطق المتجمدة ، وارتفاع منسوب مياه البحر ، بحيث تغرق الكثير من الجزر والأراضى الساحلية ، حتى أن مساحات كبيرة من الدلتا - فى تقديرات العلماء - مهددة بالغرق خلال العقود الأولى من هذا القرن .

درجة حرارة الأرض قد ترتفع ما بين ٣ إلى ٤ درجات فى العقود القريبة القادمة ، والأخطار المتوقعة - نتيجة لذلك - هى تراجع مخزون مياه الشرب ، وزيادة الأعاصير والنوات والكوارث . أما أخطر النتائج فهى تعرض دلتا النيل للغرق ، فضلاً عن ارتفاع مستوى ملوحة المياه فى النهر ، والقحط ، ونشوء ظاهرة اللاجئين بسبب تغير المناخ .

لقد قسمت الأبحاث العلمية شواطئ الدلتا إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : شواطئ معرضة للخطر ، بتأثير انخفاض منسوبها عن سطح البحر ، ومنها ساحل بحيرة المنزلة ، ومنطقة الطرح جنوبى الإسكندرية . أما القسم الثانى - ويضم الشواطئ الآمنة - فهو الشواطئ المحمية طبيعياً بالكثبان الرملية ما بين البرلس وبلطيم وجمصة . وأما

القسم الثالث ، فيشمل الشواطئ التى ترتفع ما بين ٢ إلى ٦ أمتار فوق سطح البحر ، كما في رشيد وبلطيم ودمياط .

ولاشك أن ارتفاع مستوى البحر سيؤدى - على المدى المتوسط والبعيد - إلى تعرض مساحات متفاوتة من دلتا النيل لاحتمالات الغرق ، وما يستتبع ذلك - بالطبع - من فقد مساحات ضخمة من الأراضي الزراعية والبنايات والمنشئات الصناعية والسياحية ، وهجرة الملايين من السكان - فى ظروف قاسية للغاية - إلى الجنوب .

توقعات العلماء أن البحر - حتى عام ٢١٠٠م - فى مدى النظر سيلتهم ١٥٪ من أراضى الدلتا التى تضم بحيرات إدكو والبرلس والمنزلة والبردويل وجنوب الإسكندرية وشمال محافظات كفر الشيخ ودمياط والدقهلية وبور سعيد والسويس، بالإضافة إلى إهدار حوالى مليون فدان من أجود أراضى الدلتا الزراعية ، وتعرض أجزاء واسعة منها للملوحة والتصحر .

حتى أراضى الدلتا التى قد تنجو من الغرق ، مهددة بتسرب مياه البحر مما يؤدى إلى تملحها ، وعدم صلاحيتها للزراعة بالتالى . بل إن التوقعات تشير إلى احتمال أن يفقد

نهر النيل ما بين ٣٠ إلى ٦٠ ٪ من موارده المادية ، وهو ما يعني خطراً يصعب تصور نتائجه .

لكي يظل البحر على منسوبه ، أو يقل ، فثمة اقتراحات بإغلاق البحر المتوسط عن طريق جبل طارق ، وإغلاق البحر الأحمر من خلال مضيق باب المندب . وقد ظل الاقتراح بإقامة سد على مضيق جبل طارق قائماً منذ عام ١٩٢٠م حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فغاب الاقتراح في تطورات الأحداث ، وبعد نشوء ظاهرة الاحتباس الحراري ، أثير الاقتراح ثانية بواسطة علماء مصريين وسويديين ، لكن الاقتراح لم يجاوز ـ حتى الآن ـ إطار الأمنية !

●●●

إذا كان الدكتور وليد صبحي ـ في غواية الإسكندر ـ قد واجه السخرية والاستخفاف ، حتى من اللصيقين به ، فإن اللامبالاة ـ وهي أخطر ـ تواجه التحذيرات المتوالية من اقتراب خطر ابتلاع البحر للإسكندرية ، ومساحات هائلة من الأرض المصرية . ولعلنا نذكر تحذير مسئولة دولية ، هي وزيرة خارجية بريطانيا (مايو ٢٠٠٧م) من غرق الدلتا ، وتشريد الملايين من سكانها ، نتيجة تغيّر المناخ ، وارتفاع

منسوب المياه . والطريف - والمؤسف - أن صحفنا نشرت التحذير المنسوب إلى الوزيرة البريطانية ، دون أن تعنى حتى بالتعليق عليه .

آلاف الأطنان من الكتل الخرسانية ، ألقيت داخل البحر ، أسفل الكورنيش الحجرى ، ما بين المنتزة ورأس التين ، بالإضافة إلى تغذية الساحل نفسه بكميات هائلة من الرمال . الهدف المعلن هو حماية الشواطئ من تأثيرات الأمواج - حالياً، وفى المستقبل - لكن النتائج أتت بعكس المأمول . ظلت ثورة البحر - فى أوقات النوات - تهب تأثيراتها السلبية ، بحيث فرض السؤال نفسه : ماذا لو واصل المناخ تغيراته ، وفى مقدمتها زيادة منسوب مياه البحر ؟

لاحظ خبراء علوم البحار وبحوث الشواطئ - وهم غير مهندسى الإنشاءات الذين وجدوا فى كتل الخرسانة وحقن الرمال ما ينهى المشكلة - أن المصدات والرمال فشلت فى أداء دورها كحاجز يحمى المدينة من تقلبات البحر ، بالإضافة إلى أن تلك «الحواجز» قد أعدت دون دراسة ، أو استشارة علمية حقيقية ، فأدت إلى تغير بيئى سلبى ، قد ينتهى - إن استمر - باغتيال شواطئ الإسكندرية .. والكلام للخبراء !

المشكلة الأكثر خطورة - هذا هو التعبير الذى يحضرنى - هى توقعات المستقبل ، ارتفاع منسوب البحر بالقياس إلى مستوى الأرض .

وعلى الرغم من الرأى العلمى الذى يذهب إلى أن غرق الإسكندرية من قبل ، يعود إلى هبوط الأرض ، وليس إلى ارتفاع مستوى سطح البحر ، فالخطر المتوقع إذن يختلف عما واجهته المدينة من قبل .. على الرغم من ذلك الرأى ، فإن الأسئلة تظل قائمة : كيف نمنع الكارثة ؟ كيف نحول دون اندثار الإسكندرية الثالثة ، بعد أن اندثرت المدينة مرتين من قبل ؟ كيف تظل الإسكندرية الثالثة على حالها ، فلا تواجه خطر التلاشى ؟!

ثمة من يرى أن إنشاء سواتر حماية على طول شواطئ الإسكندرية ، دون دراسات بيئية ، ينطوى على أخطار تلغى المتوقع من الفوائد ، المواد الإسمنتية المستخدمة فى عمليات البناء لا تصلح . الأجدى أن ننشئ حواجز غاطسة ، أو مصنوعة من البلاستيك ، بحيث تنكسر حدة الموج تحت سطح البحر ، ويعجز القاع - عند تحركه - من اقتحام الشاطئ ، والمدينة بالتالى . أضافت الدراسة أن طابع النجر يختلف من

مكان إلى آخر ، ولابد من دراسة الأثر البيئى لها ، والظروف الطبيعية للبحر ، كى لا تهدر الإمكانات والموارد .

يذهب هذا الرأى إلى أن الكتل الخرسانية لا تحقق نتائج إيجابية مطلقة ، إنما تداخلها نتائج سلبية ، أهمها تغيير نوعية المياه ، وفى فصل الصيف بخاصة ، والأجدى إعادة تغذية الشواطئ بالرمال ، سواء باستخراجها من قاع البحر ، أو بنقلها من مكان آخر ، ولكن بمواصفات خاصة .

باختصار ، فإنه من الصعب أن تتحمل الخطر المرتقب حواجز الأمواج الحالية ، وعلى المدى البعيد - وربما القريب - فإنها لن تحدث تأثيراً إيجابياً من أى نوع .

لقد تأجلت كل مشروعات الحماية والإنقاذ لعقدة مصرية قديمة ، هى اختلاف وجهات النظر . ثمة لجان تابعة لوزارة الرى ، ووزارة الرى والموارد المائية ، ومحافظ الإسكندرية ، وهيئة حماية الشواطئ ، ومعهد علوم البحار ، وأقسام الجيولوجيا والجيوفيزياء بالجامعات المصرية ، وجمعية المهندسين ، والجمعية المصرية للتخطيط العمرانى ، والمركز القومى للبحوث ، ومعهد أبحاث البناء ، وهيئة الاستشعار عن بعد ، وهيئة الأرصاد الجوية والتغيرات المناخية ،ومدينة

مبارك العلمية بالإسكندرية ، ومصلحة المساحة ، وهيئة الجيولوجيا المصرية ، وغيرها . عبَّرت كل منها عن وجهة نظر مخالفة للأخرى . وكان القرار السهل هو التوقف عن تنفيذ أى مشروع لحين التوصل إلى كلمة سواء . وبالطبع فإن الثمن يدفعه مستقبل الإسكندرية ، بالأخطار التى تهدده . أذكر أنى ألفت ـ لأعوام طويلة ـ صرف المجارى فى الميناء الشرقية. لم تكن هناك اعتراضات ولا تحذيرات ، فاعتبرت الأمر عادياً، ولم يكن فى بالى ـ أصارحك ـ تخوفات من التلوث البيئى ، فما يحدث البحر يحدث فى النهر أيضاً .. وهكذا نحيا !..

تكون العديد من اللجان لدراسة سبل إنقاذ شواطئ الإسكندرية ـ والمدينة جميعاً ـ من الخطر . ووصف العلماء ما أنفق على عمليات الإنقاذ بواسطة تلك اللجان ، بأنه حلقات فى سلسلة تحويل شواطئ الإسكندرية إلى حقول تجارب ، وطالب العلماء ببدائل أكثر جدوى .

كانت التغذية بالرمال ، أو الحقن بالرمال ـ كما أشرنا ـ فى مقدمة الحلول التى لجأت إليها اللجان ، لكن الرمال ذابت فى أمواج البحر بعد أيام قليلة ، وذابت بالتالى بضعة ملايين

من الجنيهات أنفقت لتنفيذ ذلك الحل . وأقيمت حواجز خرسانية فى الأماكن الأكثر عرضة لاقتحام الأمواج ، لكن الأمواج علت الحواجز ، وتخطتها إلى قلب الطريق ، بما يعنيه ذلك من نذر الخطر . ثم بدأ العمل فى الحواجز الغاطسة التى وصفها الخبراء بأنها أحدث الوسائل العلمية التى استخدمتها الدول المتقدمة .

وثمة حل بإقامة سد ، ارتفاعه متران ، وبطول ٦٠٠ كيلو متر ، وهى المسافة ما بين مصبى رشيد ودمياط المتوقع أن يعلو مد البحر حوالى المتر ، وأياً تكن المبالغ التى تنفق على هذا السد ، فإنها ستظل هامشاً بالقياس إلى الخسارة الفادحة التى سيؤدى إليها غرق الدلتا . وثمة حلول أخرى ، منها عدم إقامة طوابق أرضية فى البنايات الجديدة ، وإلغاء تلك الطوابق في البنايات القائمة بالفعل !

عموماً فإن حماية الشواطئ لا تأتى بمجرد وضع السدود، وتعلية الأرض فى مواجهة البحر . الحل يجب أن يرتبط بدراسات علمية ، تضع فى اعتبارها العوامل الساحلية من تيارات وأمواج وحركة رسوبيات ومسح الشواطئ التى كانت

قائمة قبل تنفيذ مشروعات الحماية .

وللأسف - والكلام للعلماء - فقد أدى التخبط في مشروعات لم تدرس جيداً ، إلى فقدان ٥٠٪ من شواطئ الإسكندرية ، بما تحويه من خصائص جيموفولوجية . والثابت علمياً أن منسوب المياه في الميناء الشرقي - في الأعوام الأخيرة زاد من متر واحد إلى ثلاثة أمتار . بل إن بعض الاجتهادات المتشائمة تخشى من أن يأتي يوم - قبل التسونامي المتوسطي - يرى أبناء الإسكندرية قلعة قايتباي في قلب البحر .

ما تحتاج إليه الإسكندرية - والدلتا جميعاً - فلا تواجه خطر الغرق والموت والاندثار - هو دراسة كل الشواطئ على ساحل الدلتا ، وليس شاطئاً بالذات ، أو بضعة شواطئ . ولعلنا نشير إلى إنشاء العديد من القرى السياحية في الساحل الشمالي حواجز أمواج لحمايتها ، وهو ما أدى إلى انتقال خطر التيارات البحرية إلى مناطق أخرى ، ودمر القرى الواقعة فيها ، بل إن تغذية الميناء الشرقي بالرمال أعاق الحركة في الميناء نتيجة تآكل الحجر الجيري ، وترسب الرمال.

الفهرس:

هذا الكتاب

المكان الذي يطالعنا - في غالبية إبداعات محمد جبريل - هو حي بحري، هذا الحي المتسم بخصوصية بالغة، مفرداتها البحر واليابسة والصيادون وعمال الميناء والبحارة والجوامع وأضرحة أولياء الله، وانعكاس ذلك كله على مظاهر الحياة اليومية. العلاقة بين البحر واليابسة بعد مهم جداً في كل الأعمال التي كتب فيها جبريل عن بحري ، ذلك الجزء من الإسكندرية بمساحته المحددة والمحدودة ، وبتراثه الذي يعود إلى ماقبل قول الإسكندر لدينوكراتيس: أريد أن أبني هنا عاصمة ملكي.

وإذا كان الإسكندر المقدوني قد أطلق اسمه على المدينة القديمة، فإن ذلك لايعني غياب الحياة عن المدينة قبل أن يصل إليها. بنى الإسكندر عاصمة ملكه في موقع مدينة كانت قائمة بالفعل، وإن أتاح لها التخطيط أن تتسع. وتتطور، وتصبح عاصمة العالم القديم..

حى بحـرى هو أصل الإسكندرية، راقـودة ، وفـاروس، والمسـاحـة من الأرض التى تشكلت منهـا - قـبل التـاريخ المكتوب - مدينة الإسكندرية الحالية.

بحرى بانوراما متكاملة للعلاقة المميزة بين الحى والبحر الذى يحيط به من ثلاثة جوانب، بما يجعل منه شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية.

الحياة فى الأحياء الشعبية السكندرية لاتختلف كثيراً عن الحـيـاة فى الأحـيـاء الشـعـبـيـة فى القـاهرة والمدن المصـرية الأخـرى.. لكن السـمـة الأهم لصـورة الحـيـاة فى بحـرى هى الصلة بين اليابسة والبـحر.. البـحـر بكل ما يمثله من حكايات البـحـارة والصـيـادين والنوات والسـفـر إلى الموانئ القـريبـة والبعيدة.. واليابسة بكل ما تمثله من اعتماد على الحياة فى البحر ، بداية من حلقة السمك وورش السفن وعمليات الصيد، وتواصـلاً مـع غلبـة الروحـانيـة، والإيمان ببـركـات الأوليـاء، والحـيـاة من رزق البـحـر سـواء ببيع السـمـك ، أو العـمـل على السفن الصغيرة والبواخر الضـخمة..

محمد جبريل فى هذا الكتاب، يستعيد، ويتأمل، ويعرض لعـلاقـتـه بالإسكندرية - وبحـرى بخـاصـة - التى تبدأ منذ

الطفولة، أرضية تتحرك فيها أحداث أعماله وشخصياتها. لاتعمد ، إنما هو يعبر عما عاشه وعرفه . وكما يقول فإنه ربما لو أنه لو لم يرحل عن الإسكندرية في مرحلة الشباب الباكر ، ما كان المكان السكندري يلح في أن يكون قواماً لأعماله الإبداعية. حتى الأعمال التي قد تنتسب شخصياتها أو فضاءاتها إلى مدن غير الإسكندرية ، تتخلق حياتها في بيئة مدينته . ذلك ما حدث في روايات وقصص قصيرة ، كثيرة، عكست بانورامية الحياة في بحري من خلال المعايشة والتقاط التفصيلات والمنمنمات ، منها – على سبيل المثال – رباعية بحري، أهل البحر، قاضي البهار ينزل البحر، الصهبة، النظر إلى أسفل ، الشاطئ الآخر، المينا الشرقية، نجم وحيد في الأفق، زمان الوصل، حكايات الفصول الأربعة ، صيد العصاري، غواية الإسكندر، مواسم للحنين، البحر أمامها ، صخرة في الأنفوشي ، وغيرها.

أحدث إصـــــدارات كتاب الهلال عام ٢٠١٠ - ٢٠١١م

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
عمان	عادل عبدالصمد	نوفمبر	٢٠١٠
الواقع أو الحقيقة	رجائي عطية	ديسمبر	٢٠١٠
يوميات عابر سبيل	د. مصطفى عبدالغنى	يناير	٢٠١١
شاعر الروابي الخضر	محمد رضوان	فبراير/ مارس	٢٠١١
التحرك فوق رقعة شطرنج	د. محمود سليمان	ابريل	٢٠١١
أشهر الاغتيالات السياسية	د. صلاح جودة	مايو	٢٠١١
أوراق البنفسج	خيرى شلبى	يونيه	٢٠١١
اللغة في محراب القدس	د. محمد داود	يوليه	٢٠١١
طرق الإنسان فى السلم والحرب	د.جعفر عبدالسلام	أغسطس	٢٠١١
كتابات غربية	رجائى عطية	سبتمبر	٢٠١١
محمود درويش	عزة بدر	أكتوبر	٢٠١١

رقم الايداع
٢٠١١/١٧٦١٧
I.S.B.N
977-07-1509-3

الهلال

نوفمبر 2011 - الثمن 6 جنيهات

حكايات جوائز الدولة!

ملف خاص



الحنين إلى بحرى

محمد جبريـل

دار الهلال

الغلاف للفنان : جمال عبد النبى
مستشار التحرير: محمد رضوان

يعيش، بمعنى حقيقي،
من يدرك قيمة المكان

جاستون باشلار

بحرى..
شبه جزيرة سكندرية

أذكر خريطة لشوارع الإسكندرية ، وضعها أبى وسط جدار الصالة ، تعلوها ساعة الحائط البندولية . يحدها من جانبين الميناءان الشرقى والغربى ، وتمتد فيها الشوارع والمربعات والمستطيلات ، وتتقاطع . التغيّر - فى ظنى - شهدته الأحياء خارج بحرى . مساحة بحرى المحددة ، والمحدودة ، احتفظت له بطبيعته الجغرافية ، غالبية الشوارع والبنايات والميادين على حالها ، التغيّرات المهمة قليلة - كما فى ميدان أبو العباس مثلاً - لكن القسمات الأساسية للحى لم تتبدل، البحر والكورنيش والجوامع والحدائق والميادين والساحات والشوارع والحوارى والأزقة وغيرها، ظلت فى مواضعها تحتفظ للحى بجغرافيته ، وتستعيد ذاكرته، وإن تغيظنى

بنايات النفوذ والفئات المرفهة، تفصل بين البحر والمدينة. تقصر التطلع إلى الأفق على أهل الحظوة، وغالبيتهم - تصورا - من الزوار والوافدين، وتشكل حائطاً فى وجه أبناء المدينة.

الإسكندرية..

لا أعرف ماذا كانت تعني هذه الكلمة للورانس داريل ولا فوستر ولا كفافيس، ولا لسواهم من الشعراء والروائيين والفنانين الأجانب الذين عبروا عن سنى حياتهم فى الإسكندرية. أثق أن مشاعرهم لم تكن حميمة ولا أخوية. كانوا مجرد أعين راصدة، تنقل المغاير والمدهش والمثير، وإن تخلل كتاباتهم بعض المواقف الشخصية.

الفنان السكندرى، ابن المدينة، أو الوطنى الذى انتقل إلى الإسكندرية من مدينته القريبة ، والبعيدة ، لابد أن تختلف مشاعره تماماً . هنا وطنه .

الإسكندرية تسكننى بذكريات لا تغيب . هى جزء من تكوينى ، من حصيلتى المعرفية وعاداتى وسلوكيات حياتى .

الإسكندرية درة مدن العالم ..

التسمية ليست من عندى ، لكنها التسمية التى حرص عليها معظم المؤرخين منذ دخلت جيوش المسلمين بقيادة عمرو

ابن العاص مدينة الإسكندرية . يصفها البعض بأنها أوروبية النشـأة ، عـربيـة اللســان ، بحـريـة الموقـع ، على أطراف الصحراء ، ومدخل لإفريقية ..

ثمـة الكثـيـر من المدن التى تسـمـى الإسكندرية ، لكن إسكندرية مصر تظل هى المدينة الأم ، أولى المدن التى أمر الإسكندر المقدونى بإنشائها ، وبأن يطلق عليها اسمه ، سواء كانت المدن التالية من عندياته ، أم محاكاة من أبناء العصور التالية لاسم المدينة الأم . أنشئت المدينة لتكون عاصمة لمصر، واستمرت عاصمة للبلاد حوالى ألف سنة .

وإذا كانت المدن ـ كطبيعة الأمور ـ تنمو بالتدريج ، تكتسب ملامحها الأساسية بالحذف والإضافة والتبديل والتعديل ، فإن الملمح الأهم فى مدينة الإسكندرية قد ظهر واضحاً منذ بداية إنشائها . وكما يقول أميانوس ماركيلنوس (القرن الرابع الميلادى) فإن الإسكندرية لم تستكمل زينتها تدريجياً مثل غيرها من المدن ، بل ازّينت ـ منذ إنشائها الأول ـ بالطرق الفسيحة . وأسهم موقع الإسكندرية فى تعاظم دورها الدينى، فقد كانت معبراً يربط بين المشرق العربى والمغرب العربى . يفد الساعون إلى الحج على ركائبهم ، أو على الأقدام ،

يقيمون فى المدينة فترات ، تطول أو تقصر ، وربما اختاروا الإقامة فيها إلى نهاية العمر . ذلك ما فعله قطب المدينة وسلطانها المرسى أبو العباس ، وذلك ما فعله - فنياً - شيخ قدم من المغرب ، وأقام فى الإسكندرية ، ووجد الناس فى أقواله وتصرفاته ما يدعوهم إلى التتلمذ على يديه .

صارت الفسطاط ، ثم القاهرة - فيما بعد - هى العاصمة الأولى لمصر ، لكن الإسكندرية ظلت هى العاصمة الثقافية للبلاد ، بل إنها فاقت القاهرة فى المنزلة الدينية ، منزلة الفسطاط والقاهرة ، نظراً - كما يقول أصحاب الرأى - «لخصوصيتها كرباط وثغر ، يحمي مصر والمشرق العربى بأسره من العدوان» .

الإسكندرية ليست مدينة واحدة . إنها عدة مدن على المستويات التاريخية والمكانية والبشرية . إنها - تاريخياً - مدينة فوق مدينة . إذا نقبت فى أى موضع من أرضها ، فستجد أثراً فرعونياً أو بطلمياً أو قبطياً أو إسلامياً . وهى - مكانياً - تتمتع بكل مقومات المدينة الكوزموباليتينية ، باحتضان المتوسط لها ، وانتماء عمارتها إلى الحقب التاريخية التى عاشتها ، واتسامها بالقيم والعادات والتقاليد

التى تعبر عن توالى تلك الحقب . وهى - بشرياً - تحتوى مواطنيها ممن قد تمتد جذورهم إلى أصل المدينة ، بالإضافة إلى أبناء المدن المجاورة كرشيد ودمنهور وكفر الدوار وغيرها. وأيضاً بقايا الأجانب من أروام وطلاينة وأتراك وإنجليز وفرنسيين وغيرهم . الإسكندرية مدينة تختصر مدناً، والعديد من الحضارات . أنت تسير في شوارع المدينة ، لا تطأ مجرد شوارع وحوارى وأزقة ، لكنك تطأ التاريخ منذ عصور سحيقة. بلغ عدد سكان الإسكندرية فى العام المائتين قبل الميلاد - مليون نسمة . كانت ثاني مدينة فى العالم بعد روما . وكان أهلها يتكلمون العديد من اللغات ، وهى - الآن - واحدة من المدن الخمسين الكبرى فى العالم .

●●●

ثمة اجتهادات أن الإسكندر لم يكن مؤسساً للمدينة ، لكنه قام بتوسيعها ، وتحصينها ، وتجميلها ، لتصبح ثغراً للإمبراطورية التى كان يحلم بإقامتها . وبصرف النظر عن صحة تلك الاجتهادات أو العكس ، فلعله يمكن القول إن بداية الإسكندرية ، المدينة التى نعرفها الآن ، فى قرية راقودة وجزيرة فاروس وقرى ومواضع أخرى ، لكن قول الإسكندر

وهو يشير إلى ما حوله : أريد أن أبنى هنا عاصمة ملكى ، ذلك القول كان هو البداية الفعلية لتخلق الإسكندرية ٢٠ يناير ٣٣١ ق . م . صارت ـ فيما بعد ـ عاصمة البلاد ، وعاصمة العالم الثقافية ، وبلغت ـ بدمار الطبيعة ـ حد المحو ، لكنها بعثت من جديد ـ هذا هو التعبير الذى يحضرنى - وزاد سكانها ، ومساحتها ، وتأثيرها الإيجابى فى الحياة المصرية، والعالم جميعاً . بدا أن كل شيء ينطلق من الإسكندرية ، صارت أكبر عواصم العالم الهيلينى آنذاك ، فضلاً عن قيمتها المتصدرة كملتقى تجارى عالمى . وكما يقول تيودور الصقلى (٥٩ ق . م .) فقد اعتبرها الكثير من الناس أعظم مدن العالم، ووصفها استرابون بأنها «أكبر سوق تجارية على وجه الأرض» . وروى أنها نافست روما بفخامتها ، وثرائها ، وكثرة سكانها .

شهدت الإسكندرية ـ منذ إنشائها ـ الكثير من التجديدات والتعديلات والتوسعات ، واجهت ظروفاً طبيعية وسياسية وتاريخية ، لكن بنيتها ظلت متماسكة . قام تخطيط المدينة على شبكة من الشوارع ، تتقاطع بزوايا قائمة ، وفى مراعاة للأحوال الجغرافية وأحوال المناخ . اتجهت بعض الشوارع

ناحية الشمال الجنوبى ، بما يسهل للهواء تلطيف جو المدينة أشهر الصيف ، وشوارع أخرى اتجهت ناحية الشرق / غرب لتسلم من أنواء (نوات) الشتاء ، وثمة شارعان رئيسان ، عظيمان ، تتفرع منهما بقية الشوارع . وكان من معالم الإسكندرية المهمة فنارها الضخم (أحد عجائب الدنيا السبع)، شيد فوق صخرة عند الحد الشرقي لجزيرة فاروس ، تهتدى بضوئه السفن التى تبعد عن الميناء بأكثر من خمسين كيلو متراً .

توالت الهزات الأرضية، فأحدثت فى الفنار تأثيرات مدمرة، حتى تحول - فى عهد السلطان المملوكي قايتباى - إلى أطلال متهاوية، فشُيِّدت - بأحجاره - قلعة حصينة، هى الآن شخصية رئيسة فى العديد من كتاباتى الإبداعية .

●●●

البحر السكندرى ليس مجرد أمواج وسفن وصيادين، إنه تاريخ وقصص وحكايات. تعدد الانتماءات الأثرية فى قاع البحر السكندري، يشي بتعدد الحضارات. ثمة الآثار الفرعونية والرومانية والهيلينية والقبطية والعربية.

وكما أشرنا ، فثمة اجتهادات تذهب إلى أن الموقع الذى شيدت فوقه إسكندرية الإسكندر، كان يضم ثلاثة موانئ

فرعونية، بما يخالف الروايات التى أجمعت على وصل القرية راقودة وميناء فاروس (سكانهما من الصيادين الغلابة) فى مدينة واحدة. كان الموقع يضم ثلاثة موانى فرعونية سابقة لزمن حملة الإسكندر. العالم الأثرى السكندرى فوزى الفخرانى يرى - مستنداً إلى اكتشافات حديثة - أن المنطقة كانت تضم ١٢ قرية آهلة بالسكان . ما فعله مهندسو الإسكندر أنهم أعادوا تنظيمها ، لتصبح مدينة مؤلفة من ١٤ حياً ، بالإضافة إلى أحياء جديدة لليونانيين والمقدونيين ، وأحاط ذلك كله بسور يحمى المدينة الوليدة من الاعتداءات الخارجية . ما أذهل المهندسين ، وأذهل الشاب الطموح نفسه، أن إنشاء الموانئ الفرعونية مثل تحدياً لطبيعة البحر المتوسط . وكما يقول الفخرانى فإن البحر يمتد من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض تدور حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، مما يتسبب فى تيارات بحرية فى نفس اتجاه دورانها ، وهى ظاهرة لا توجد فى البحار الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مثل البحر الأحمر . لاحظ الفراعنة أن السفن تدخل إلى ذلك المكان ، تحتمى من التيارات البحرية ، فاتخذوه ميناء .

●●●

أسير في شوارع الإسكندرية . يلفني الشعور بأنها الطابق الثالث من مدينة موغلة في القدم . إسكندرية الفرعونية ، إسكندرية البطلمية ، إسكندرية الحالية ، العربية .

ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : «مدينتان من مدائن الجنة ، هما من مدائن العدو . وإنهما ستفتحان على أمتي . إحداهما من مدائن الروم يقال لها الإسكندرية ، والأخرى من مدائن الديلم يقال لها قزوين . فمن رابط في إحداهما ليلة واحدة ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله يقول : الإسكندرية وعسقلان عروستان ، والإسكندرية أفضلهما ، وإنها لتأتي يوم القيامة تزف بأهلها إلى بيت المقدس . فمن رابط بالإسكندرية أربعين يوماً ، كتب الله له براءة من النار ، وأمن من العذاب . وخيار أهلها أفضل من خيار غيرها ، وشرار أهلها أفضل من شرار أهلها . وهي مدينة ذي القرنين، مكتوبة في توراة موسى ، وزبور داود ، والإنجيل والفرقان . موصوفة في الكتب . يعرفها أهل العلم باسم الخضراء ، واسمها في الزبور والتوراة المذهّبة ، وفي القرآن مدينة ذي القرنين . يبعث الله منها سبعين ألف شهيد .

وجوههم على صورة القمر ليلة البدر . يعطى كل واحد منهم نوراً على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم لسبعين ألفاً ، فطوبى لمن رابط فيها. وعن نافع بن عمر أنه استمع إلى الرسول يقول : «أحب الرباط إلى الله عز وجل رباط الإسكندرية ، لأنها تزف على الخلائق يوم القيامة فى صورة مدينة نورها يتلألأ ، مكللة بالدر والياقوت ، وذلك بفضل شهدائها».

يصف ابن جبير الإسكندرية،فى زيارته لها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى : «ما شهدنا بلداً أوسع مسلكاً منه، ولا أعلى مبنى، ولا أعتق». وهى ـ فى وصف ابن بطوطة ـ الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا . «وهى ـ كما وصفها سليم الأول عقب زيارته الأولى لها» ـ إقليم لا نظير له . «ويصف ابن عبد المنعم الحميرى منار الإسكندرية ـ قبيل نهاية الألف الأولى من التاريخ الميلادى» : إن من دخله ، ولم يعرف مسالكه ، تاه فيه وضل ، لأن طرفه تؤدى إلى أسفله ، وإلى البحر . وقد قامت جماعة من المغاربة بالدخول إلى المنار وهم راكبون خيولهم

ليروا ما فيه من العجائب والغرائب ، فتاهوا فى الممرات ، وضلوا طريقهم ، وفقد منهم عدد كبير» . وقيل إن أهل الإسكندرية كانوا يوجهون مرآة المنار ـ بطريقة معينة ـ بحيث تعكس أشعة الشمس نحو سفن الأعداء ، وهى على بعد عشرات الكيلو مترات من المدينة ، فتحرقها !..

وفى ١٨٦٦م وضع محمود باشا الفلكى أول خريطة للإسكندرية القديمة ، أسفل بنايات الإسكندرية الحديثة . حدد مواقع الأحياء والقنوات وأماكن الآثار الغارقة فى الميناء الشرقى (المينا الشرقية) . الإسكندرية القديمة ـ معابدها وأحياؤها الملكية والوطنية ـ تحت قاع البحر ، جزء منها يمتد موقع قلعة قايتباى حتى موقع السلسلة بالشاطبى .

●●●

كانت قوة روما العسكرية فى مواجهة مكانة الإسكندرية العلمية وثروتها المادية . والطبيعى أن تطمع روما فى ثروة الإسكندرية ، وأن تخشى الإسكندرية الغزو الاستعمارى لروما . مع ذلك ، فقد بلغت الإسكندرية من الاستقلالية فى عهد الرومان ، حد تسميتها الإسكندرية الملحقة بمصر ، أى القريبة من مصر ، وليست المتصلة بها .

●●●

بعد أن جلت جيوش الروم عن الإسكندرية ، ودخلتها قوات المسلمين ، كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يقول : «أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها . غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بيت ، بها أربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر»..

كانت الإسكندرية هى دار العلم ومقر الحكمة - والتعبير للمقريزى - إلى أن فتحها عمرو بن العاص ، واختط مدينة الفسطاط ، ليبدأ أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم فى سكناها ، وتصبح «قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا».

ومنذ قدمت جيوش الفاطميين من المغرب ، وتحول مصر إلى مقر خلافة لهم ، توثقت صلة الإسكندرية - تحديداً - بالمغرب . أصبح - منذ الفتح - ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، فكثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر عامة ، وإلى الإسكندرية بنحو خاص . كانت المدينة طريقهم من أراضى الحجاز إليها ، وكانت أعداد كبيرة منهم تؤثر البقاء فى المدينة، تجعل منها وطناً تواصل فيه حياتها . وثمة عشرات

الأسماء لمغاربة انتسبوا إلى الإسكندرية ، علماء وتجاراً وحرفيين وقضاة وغيرهم .

كانت المدينة عامرة - نسبياً - ربما أكثر من زماننا الحالى، بالجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والخوانق والربط والحمامات والأسواق .

●●●

ظل للإسكندرية أهميتها فى العصر المملوكى . كانت تمثل أحد مراكز التجارة العابرة أو المارة بين الشرق والغرب ، حيث كانت التجارة تنتقل إلى أوروبا عن طريقين تقليديين : الخليج العربى والبحر الأحمر . وينتهى الفريقان - بواسطة القوافل - إلى الموانئ المصرية أو الشامية المطلة على البحر المتوسط ، لتنتقل إلى أوروبا على سفن إيطالية تابعة لجنوة أو البندقية . وبالطبع ، فقد كانت الإسكندرية من أهم الموانى التى انتقلت منها تجارة الشرق إلى أوروبا . وحين انتقلت الطرق التجارية بين الشرق والغرب من مصر والشام إلى جنوب إفريقيا - بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح - أصيبت الإسكندرية بأضرار اقتصادية هائلة ، بل إن أهمية البحر

المتوسط بعامة تضاءلت كثيراً بالقياس إلى الأهمية المتزايدة التي صارت للمحيط الأطلسي ..

ولم تسلم الإسكندرية من التأثيرات السلبية للعصر العثماني . انكمشت رقعتها العمرانية ، وبلغ عدد سكانها ـ في أعوام الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ آلاف نسمة فقط . ثم بدأت المدينة تطوراً ملموساً منذ عام ١٨٠٧م. اتسعت مساحتها ، وبدأت في استعادة ما كان لها من مكانة في البحر المتوسط . ثم تحققت لها مكانة متفوقة بعد حفر ترعة المحمودية في١٨٢١م. صارت شرياناً رئيساً للمواصلات مع بقية أنحاء مصر ، ومنفذاً للتجارة مع العالم . ثم أضاف إلى تلك المكانة مد خطوط السكك الحديدية في ١٨٦٥م ، وتعاظم الدور المدني للإسكندرية بعامة ، حتى أصبحت المدينة الصناعية المصرية الأولى ، فضلاً عن دورها الثقافي المتمثل في الإصدارات الصحفية والأدبية ، وعشرات المبدعين في المجالات المختلفة ..

بدأت صناعة دبغ الجلود على أسس حديثة في الإسكندرية في ١٨٨٥م، ونمت في النصف الأول من القرن العشرين . وعندما فكرت شركة باتا في إنشاء مصنعها

الكبير ، اختارت له منطقة القبارى ، قريباً من المدابغ . أما صناعة السجاير فهى أساسية فى الإسكندرية . ونصف عمال هذه الصناعة يقيمون فى المدينة (فى ١٩٤٩م بلغ عدد المصانع بالمدينة ١٨٫١٦٠ مصنعاً ، مجموع عدد عمالها ٩٥٥٨٧ عاملاً) . وبالإضافة إلى أن سوق الترك تخصص فى صنع الأثاث ، فقد كان - ذات يوم - هو خان خليلى الإسكندرية ، ولكن الغلبة دانت للعطارين . وفى أواخر القرن الماضى ، كانت نسبة الصناعة فى الإسكندرية ٤٠٪ من الصناعة المصرية .

ولاشك أنه كان لدخول الطائرة وسيلة انتقال جديدة إلى جانب الباخرة، تأثيره المباشر على مكانة الإسكندرية (أعنى التعبير) لم تعد الإسكندرية هى الميناء الأول كما كان الحال منذ آلاف السنين، منذ استخدم الإنسان البحر طريقاً لأسفاره بين البلدان، بواسطة السفن. صارت الطائرة وسيلة أهم للتنقل، وشيد لها مكان يقصده المسافرون من مصر، والعائدون إليها، فتخلت الإسكندرية عن مكانتها المستقرة، نتيجة تحول ميناؤها - فى مجال نقل الركاب بخاصة - إلى مرتبة تالية. كما تحولت صادرات وواردات كثيرة من ميناء

المدينة، ولم تعد للميديا مكانتها السابقة (أذكرك بأن النسخة الأولى من الأهرام صدرت فى الإسكندرية)، ومثلت حرب ١٩٥٦م، وما تبعها من خروج الجاليات الأجنبية ، إلى تخلى الإسكندرية عن صفتها كمدينة كوزموباليتينية، وهو ما انعكس فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية، مثل الشاطئ الآخر، زمان الوصل، أهل البحر، وغيرها .

وعلى الرغم من تعدد المطارات والموانى البحرية ، فإن أكثر من ٩٥٪ من تجارة مصر مع الخارج تخرج من الإسكندرية ، وتدخل منها ..

●●●

بلغ عدد سكان الإسكندرية ـ فى إحصاءات علماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م ـ ثمانية آلاف نسمة فقط . وكانت المدينة ـ كما وصفها علماء الحملة ـ ملئى بالمناطق الخربة ، بينما كان عدد سكان رشيد فى العام نفسه حوالى مائة ألف نسمة. وقد تناقص عدد سكان المدينة عند رحيل الحملة عن البلاد إلى ثمانية آلاف فقط ، لم يكونوا جميعاً من الوطنيين ، وإنما كانت هناك جاليات من المغاربة والسوريين والأروام واليهود . وفى ١٨٢٠م تم حفر قناة المحمودية ، فبدأ ميلاد

الإسكندرية من جديد . كانت - قبل ذلك - محصورة بين الميناءين الشرقية والغربية ، ويقتصر عمل غالبية السكان على الصيد . كان النمو العمراني هو الظاهرة الأساسية بعد إنشاء ترعة المحمودية ، فقد بنيت أرصفة الميناء الغربية ما بين سنتى ١٨٢٨م و١٨٣٣م، واقتصر نشاط المدينة البحرى عليها ، بينما بطل استخدام الميناء الشرقية . كما أنشئت الترسانة البحرية، ووفرت قناة المحمودية للسكان مياه الشرب من النيل، وأتاحت زراعة مساحات من الحقول والحدائق على جانبى الترعة . وكما يقول كراوتشلى فمن المؤكد أن النمو التجارى لمصر كان سيعوق ويختنق لولا قناة المحمودية وميناء الإسكندرية (التصنيع والعمران١٠٦).

فى يناير ١٨٩٠ صدر مرسوم (تعدّل فى ١٩٣٥ بتشكيل مجلس بلدى الإسكندرية ، ليضطلع بأعباء تخطيط المدينة ، وتنظيمها ، ورفع مستواها الإدارى والمدنى والصحى والاجتماعي . واللافت أنه لم ينشأ مجلس مماثل فى القاهرة إلاّ فى ١٩٥١م ، أى بعد إنشاء مجلس بلدية الإسكندرية بإحدى وستين عاماً .

كانت المياه تصل إلى ميدان المنشية ، وكانت تغطى

موضع تمثال الجندى المجهول . وفى الفترة من ١٩٠٩م إلى ١٩١٢م أنشئ كورنيش من رأس التين إلى السلسلة . وفى ١٩٣٠م بدأ استكمال الكورنيش من السلسلة إلى المنتزة . وفى ١٩٣٣م تم بناء الكورنيش ، وبدأ انقلاب عمرانى واجتماعي . فقد زحف السكان بمبانيهم نحو البحر بعد أن كانوا يتحاشونه ، وارتفعت أسعار الأراضى المتاخمة الشاطئ إلى حد كبير . وبالطبع فإن البيوت على طريق الكورنيش تحمل أرقاماً فردية وزوجية ، لأن الجانب المقابل هو البحر ..

●●●

ظلت الإسكندرية أكثر المدن المصرية استجابة للمؤثرات التركية التى لم تزل بصماتها ظاهرة حتى الآن . أما اليهود ، فقد ظلوا - إلى قيام دولة إسرائيل فى ١٩٤٨م - أهم الجاليات فى الإسكندرية سواء من حيث العدد ، أو تميزهم فى مجالات الصناعة وتجارة القطن . وأما اليونانيون فقد كان معظم نشاطهم يتجه إلى مجال البقالة والحلوى والمقاهى والحانات ، وشراء الأراضى الزراعية من خلال التعامل بالربا . وبالنسبة للإيطاليين فقد كانوا يمارسون أنشطة تجارية وصناعية مختلفة . وكان الدكتور مردروس - الطبيب

الذى كـان يسكن الطابق الأول فـي بيـتنا ـ والأرمن الذين أقاموا فى مصر عموماً ، من الناجين من مذابح الأتراك فى بداية القرن العشرين . حتى الألمان كان لهم جالية فى المدينة. وكان رودلف هيس ـ نائب هتلر ـ من مواليد الإسكندرية ..

وتقول الإحصاءات إن عدد الأجانب فى الإسكندرية بلغ ـ عام ١٩٠٧م ـ ٨٦٣٩٤ من مجموع سكانها البالغ ٣٥٣٨٠٧ . أما إحصاءات ١٩١٧ فقد أثبتت أن تعداد سكان الإسكندرية بلغ ٤٥٠ ألف نسمة ، سدسهم من الأجانب : يونانيون وإيطاليون وانجليز وأرمن ، فضلاً عن الشوام . وبلغ عدد الأجانب فى ١٩٢٧م ـ ٩٩٦٠٥ من مجموع عدد السكان البالغ ٥٧٣٠٦٣ . وكان عدد الأجانب فى الإسكندرية يمثل ٦٠٪ تقريباً إلى عددهم فى مصر كلها ..

صاحب تزايد أعداد الأوروبيين فى الإسكندرية ، تغير واضح فى العادات والتقاليد وسلوكيات الحياة اليومية . انتقلت المدينة ـ على سبيل المثال ـ من التأثر بالعمارة التركية، إلى الأخذ بالأنساق المعمارية الأوروبية بواسطة المهندسين المعماريين الذين استقدمهم محمد على لبناء الشوارع والميادين والأسواق والبنايات التى تشكل مصر التى كان

يريدها . وفى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت الإسكندرية - على حد تعبير محمد عوض محمد - مدينة نصف أوروبية ، تضاهى ميادينها مثيلاتها من المدن الفرنسية. وامتد التمايز المعمارى إلى الكنائس المتعددة للأقباط الأرثوذكس واليونان الأرثوذكس والموارنة والبروتستانت والروم الكاثوليك ، وغيرها . لكن الإسكندرية تدين بالملامح العصرية للخديو إسماعيل ، بداية من ترميم الأسوار القديمة ، ونهاية بإنشاء الأحياء الجديدة الراقية ، مروراً بالميناء الجديد ، وعمليات التجميل والتشييد والتحديث.

●●●

روايتى «الشاطئ الآخر» تعرض للفترة المفصلية التى تخلت فيها الإسكندرية عن هويتها الكوزموباليتينية . استردت - بعودة آلاف الأجانب إلى البلاد التى قدموا منها - هويتها الوطنية . أدركت الأم اليونانية أن تصور انتمائها المصرى هو تصور غير صحيح (أذكرك بالمرأة الأخرى ، الفرنسية ، فى قصتى القصيرة الأكسر) وأن العودة إلى وطنها الحقيقى هو ما ينبغى أن تفعله . أقدم على التصرف نفسه عشرات الألوف من أبناء الجاليات الأوروبية ، وجدوا فى تطورات الأحداث ما

يحض على فعل المغادرة . لم يعد في المدينة - إلا نادراً - شخصيات مثل جوستين وكليا وبلثازار وميليسا. غابت الإسكندرية الكوزموباليتينية . حلت محلها ، أو عادت ، الإسكندرية الوطنية ، قوامها الصيادون والبحارة وعمال الميناء وأبناء الطبقة الوسطى ، وغيرهم .

فرضت العربية نفسها لغة وحيدة أو تكاد ، في الرسائل والمخاطبات العادية ، ووجدت اللافتات المكتوبة بالعربية موضعاً بين اللافتات المكتوبة بالفرنسية والإنجليزية .

ظني أنه لو أن أبي ظل على قيد الحياة حتى عام ١٩٥٦م وما بعده ، فإن ظروف عمله كانت ستتأثر إلى حد كبير . كانت مكتبة أبي تضم كتباً بلغات لا أفهمها . عرفت أنها الإيطالية والألمانية واليونانية والتركية ، يتشكل عمله في الترجمة من لغة إلى أخرى . ذلك ما كان يفرضه الواقع الاقتصادي آنذاك . وكان من البديهي - في اقتصار لغة المعاملات على الفرنسية والإنجليزية - بالإضافة إلى العربية - أن يتحدد مجال عمل أبي بالتالي في هذا المجال الضيق .

●●●

ثمة أغنيات تستثير وجداني، فيغيم الدمع في عيني

للائكية صوت فيروز وهي تغنى لشط الإسكندرية ، وأغنية محمد قنديل عن عشق العين لأهل الإسكندرية ، وهتاف على الحجار: مدد يا مرسى .. ألحق لى كرسى . أغنيات تحرك مشاعرى ، تعيدنى إلى البحر والشاطئ والناس والجوامع وحلقات الذكر والجلوات وسوق العيد وزحام شارع الميدان ورحلات السمان والبلانسات والأمطار وتصريف المياه فى جوانب الشوارع والفريسكا والذرة المشوى وصيد العصارى والجرافة والطراحة والسنارة .

إذا كان المكان يغيب برحيلنا عنه، فإننا نستعيده بالحنين. أتأمل الأمطار - من وراء زجاج النافذة - وهى تسقط على القاهرة. ينقلنى الحنين إلى الإسكندرية. أستعيد مشهد الأمطار المتساقطة على شوارع الإسكندرية. الأغنية التى كنا نرددها فى سنى الطفولة: يا مطرة رخّى رخّى.. على قرعة بنت اختى. للشتاء فى الإسكندرية - ولأوقات المطر بخاصة - طبيعة مغايرة..

الأمطار تغسل الإسكندرية أشهر الشتاء، ما بين أولى النوات وآخرها، «نيولوك» تعده لاستقبال الصيف ، ولاستقبال زوارها بخاصة .

فى الشتاء ، وربما منذ الخريف ، تقتصر الإسكندرية على أبنائها ، يعيدون التعرف إلى الأماكن التى كان يخنقها الزحام . لم تمثل الحياة على الشاطئ - أشهر الصيف - إغراء من أى نوع . أكتفى بالجلوس تحت المظلة ، والتطلع إلى الأفق .

●●●

قلت لأبى - ذات عصر - أثناء متابعتنا لعملية صيد المياس:

- ماذا فى الشاطئ الآخر ؟

- أى شاطئ ؟

- الضفة المقابلة لهذا البحر ؟

- إيطاليا واليونان وفرنسا وتونس والجزائر وبلاد أخرى كثيرة تطل عليه .

- هل تختلف عن الإسكندرية ؟

- لها مدن على الساحل مثل الإسكندرية ، لكنها تختلف فى أشياء كثيرة .

قاطعنى قبل أن أسترسل فى الأسئلة :

- عندما تكبر ، سيتاح لك زيارة كل تلك البلاد ، وتعرف الفرق بنفسك !

الإسكندرية : البحر والبشر والأسواق والشوارع والعادات والتقاليد ، نبض الكثير من اللوحات لفنانين مصريين وعالميين ، هي كذلك نبض الكثير من الأعمال الروائية والقصصية وقصائد الشعراء لمبدعين من أبنائها ، ومن الوافدين إليها . فرض المكان السكندرى نفسه ، بطلاً ، وسيداً ، ومسيطراً . أذكر من الأدباء الأجانب الذين عاشوا في الإسكندرية ، وحققوا شهرة عالمية : لورنس داريل الأيرلندى ، وأونجريتى الإيطالى ، وأ . إم . فورستر ، وكفافيس اليونانى ، وفشتر السويسرى ، وهنرى توبل الفرنسى ، وغيرهم ..

الإسكندرية ليست مجرد مدينة ساحلية ، ليست مجرد بحر وشاطئ وميناء . إنها حياة متفردة لا تماثلها مدينة أخرى تطل على البحر ، ولها شواطئها وميناؤها ، أبواب مفتوحة على البحر . أنت تجد التفرد فى عبق الروحانية ، وفى احتضان البحر للمدينة بما يشكل منها حدوة حصان، أو شبه جزيرة ، وفى المعتقدات والعادات والسلوكيات التى تسم مظاهر الحياة بالمغايرة والاختلاف ..

الحنين إلى بحري

«ليس بلد بأحق بك من بلد ، خير البلاد ما حملك»

الإمام علي بن أبي طالب ..

حين خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة ، تطلع إلى البيت الحرام بنظرات حب ، ثم قال مخاطباً مدينته المقدسة : " والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت " . وفى الحديث الشريف " الخروج من الوطن عقوبة " . وقال عمر بن الخطاب " لولا حب الوطن لخرب البلد السوء " . وروى الدينورى عن الأصمعى قوله : قالت الهند : ثلاث خصال فى ثلاثة أصناف من الحيوان .. الإبل تحن إلى

أوطانها وإن كان عهدها بعيداً .. والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدباً .. وإنسان إلي وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً . وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : إذا أردت أن تعرف الرجل ، فانظر كيف تحنّنه إلى أوطانه وتشوقه إلى أخوانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه . وقال الشاعر العربى لمحبوبته : " سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا " . والمثل يقول : " لا يعرف القرب إلاّ من ابتعد " . وثمة العديد من الكتب التى جعلت الوطن محوراً لها : حنين الإبل إلى الأوطان لربيعة البصرى ، حب الوطن ، والحنين إلى الأوطان للجاحظ ، الشوق إلى الأوطان للسجستانى ، حب الأوطان لأبى الفضل أحمد بن طاهر ، الحنين إلى الأوطان للكسروى ، الحنين إلى الأوطان لابن إسحاق الوشاء ، أدب الغرباء للأصفهانى ، المناهل والأعطاف والحنين إلى الأوطان للرامهرمزى ، الحنين إلى الأوطان للتوحيدى ، النزوع إلى الأوطان للسمعانى ، وغيرها ..

●●●

لفيكتور هوجو مقولة طريفة : «عندما كنت صغيراً ، تمنيت أن أكون كبيراً ، فلما كبرت عاودنى الحنين إلى شبابى» .

ويروى عباس خضر في ذكرياته أنه رأى شاباً فى قطار الصعيد يبكى . سأله :

ـ مالك ؟..

ـ الغربة !..

ـ أية غربة ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟..

ـ إلى أسيوط . نقلونى إلى أسيوط . منهم لله ! ..

ويقول الشاعر الإنجليزى وليام وردورث «الطفل أبو الرجل» ، أى أن فترة الطفولة تترك تأثيرات فى فترات عمر الإنسان التالية ، لا تفارقه ، وتظل مخزوناً يفيد منه إذا كان مبدعاً . وفى رائعته القصيرة «على من يقع اللوم» يعتذر بلزاك عن الإسهاب الذى تناول به معالم الشارع الذى تدور فيه أحداث القصة ، فقد كان الحنين إلى الشارع الذى شهد طفولة بلزاك هو الدافع لكل ذلك الإسهاب . المكان الذى أمضى فيه المرء طفولته ـ والقول لبرجسون ـ هو الفردوس المفقود ، وهو يظل فى حياة صاحبه كأنه ماسة فى عنق الأبدية . وقد تتعدد الأماكن التى يقيم فيها الإنسان ، ولكن يظل لمكان الطفولة تفرّده ، وسمته الخاص ، وحميميته المطلقة. ويقول فوكنر: «أستطيع أن أكتب عن قريتى وأنا

خارجها دون توقف على الإطلاق» . وحين سئل جابرييل جارثيا ماركيث : لماذا لا تعيش في وطنك كولومبيا ؟.. أجاب: من قال إني لا أعيش في كولومبيا ؟.. لقد غادرت الوطن ، لكنني مازلت أحيا في كولومبيا ! . بل إن ماركيث يؤكد ـ في بساطة ـ إن مائة عام من العزلة ، وخريف البطريرك ، وقصة موت معلن ، والحب في زمن الكوليرا «جميعها جاءت من الحنين» . وكان باعث الرواية الأولى لإيزابيل الليندى بيت الأرواح هو الحنين «الرغبة في استعادة العالم الذى فقدته بعد أن اضطررت لمغادرة وطنى والعيش في المنفى» . وكما يقول ميشيل بوتور ، فعندما يكون المرء بعيداً عن وطنه ، وقد أسرته الأماكن التى كان يحلم بها ، فإنه يحلم بوطنه ، ويشعر بحنين إليه ، ويظهر له بألوان الطيف . ولعلنا نتبين التأثير الإيجابى للحنين إلى المكان ، إلى الموطن والوطن والنشأة ، في إبداع جوجول روايته " النفوس الميتة " فترة إقامته في روما ، وإبداع تورجنيف كل رواياته وهو بعيد عن الوطن ، وإبداع ديستويفسكى أجمل رواياته في مدينة دريسدن . ولعلى لا أجد مبالغة في قول باسترناك ـ تعبيراً عن الحنين ـ أنه موجود في الحياة فقط ، لأنه يأمل برؤية أهله وإخوته الذين هاجروا إلى المنفى ، حتى لقد سمى نفسه

«عضو العائلة بالمراسلة» .

●●●

الحنين إلى الماضى ، إلى الزمان والمكان ، تكوين أساس في طبيعة الإنسان المصرى ، فى شخصيته . وتعد قصة سنوحى أول عمل إبداعى عن الحنين إلى الوطن . سنوحى الوزير الأول للفرعون . فر من تهمة ظالمة إلى أرض الشام . تواصلت أيامه هناك في هناءة وسعادة . وكانت الصحراء الشاسعة تردد أغنياته وقصائده وأنغامه العذبة ، حتى وصل صداها إلى شواطئ النيل ، ورددها المصريون فى كل أنحاء الوادى ، لقرون خمسة متوالية . لكن سنوحى ظل على حنينه إلى وطنه وحبيبته تيكاهيت ، يغنى لها الألحان الجميلة على قيثارته ونايه : «أيها الإله العظيم ، يا من أمرتنى بالهروب ، وحميتنى بالغربة . كن رحيماً ، وأعدنى ثانية إلى قصر الملك لأرى المكان الذى يسكن فيه قلبى ، وأن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ، وخرجت منها ، وبقرب من أحببت». وظل سنوحى على حنينه وأمله فى العودة إلى وطنه ، حتى عفا عنه الفرعون سنوسرت ، بعد أن تأكد أن فرار سنوحى من وطنه لم يكن إلاّ للخوف على

حياته من التآمر .

●●●

أثق أن «الحنين» كان هو الباعث لكتابة محمد حسين هيكل روايته زينب ، والأعمال الأولى للحكيم . النظر إلى الوطن من بعيد ، كالنظر إلى الماضى تماماً ، ينبض بالحنين، يتطلع بالمنظار الوردى ، يهمل السلبيات فلا يشغل الصورة إلاّ كل ما هو رائع ومشرق وجميل . وربما التمع الدمع فى العينين لحديث عابر ، وانثالت عشرات الصور والذكريات ..

لو أن محمد حسين هيكل ظل فى مصر ، ولم يسافر إلى باريس للدراسة ، هل كان يكتب روايته الرائدة زينب ؟ .. ولو أن توفيق الحكيم تقدم لنيل الماجستير ، فالدكتوراه ، فى مصر ، ولم يحاول الحصول عليهما فى السوربون ، هل كان يهمل الهدف الذى سافر من أجله ، ويكتب ـ فى شبه تفرغ ـ عودة الروح وعصفور من الشرق وزهرة العمر ؟..

زينب ـ كما يقول هيكل ـ «ثمرة حنين للوطن وما فيه ، صورها قلم مقيم فى باريس ، مملوء ـ مع حنينه لمصر ـ إعجاباً بباريس ، وبالأدب الفرنسى» . ويقول هيكل فى تقديمه للرواية إنه «لولا هذا الحنين ، ما خطّ قلمى فيها حرفاً، ولا

رأت هى نور الوجـود» . اخـتلط فى نفـسـه الولع بالأدب الفرنسي بحنينه العظيم إلى مصـر . وكان من ذلك ـ على حد تعبيره ـ أن همّ بتصوير ما في نفسه من ذكريات لأماكن وحوادث مصرية . ويذكر أنه بدأ في كتابتها بالعاصمة الفرنسية فى إبريل ١٩١٠م، وفرغ منها فى مارس ١٩١١م ، وإن كتب أجزاء منها فى لندن وفى جنيف أثناء الإجازة الصيفية . ثم دفع بها إلى المطبعة فى ١٩١٢م. أما توفيق الحكيم فهو يتساءل : «هل من الشعور الطبيعى للإنسان أن يتوهج فيه الحنين لوطنه كلما زاد بعده ؟.. كل الذى أعرفه أننى لم أعش داخل بلدى بحرارة وقوة وحب للوطن مثلما عشت فى الوقت الذى كنت فيه بعيداً . هناك فى باريس ، حوالى سنة ٣٦ ـ ١٩٣٧م ، أدى بى التفكير إلى استعادة أعنف ما مر بى منذ ثمانى سنوات ، أى فكرت فى ثورة مصر سنة ١٩١٩م ، عادت إلىّ وأنا فى الغربة بكل عنف مشاعرها، بكل ما فيها من ذكريات ، بكل ما حاطها من ظروف وملابسات . وفى الغربة ـ حيث يصبح كل شئ مجسّماً والمشاعر أشد احتداماً ، والحنين فى أعلى درجة حرارة ـ هناك بدأت أجسّد هذه المشاعر الوطنية تجسيداً فنياً واقعياً .

وكان هذا هو مبدأ عملى فى عودة الروح . حمل الحكيم مصر معه إلى باريس ، وكتب فيها عودة الروح التى تعد - رغم تقضى الأعوام - عملاً طازجاً وجيداً ، وإن أدار فيها حواراً مصطنعاً بين إنجليزى وفرنسى ، أكد فيه عظمة هذه المعشوقة الغالية ، البعيدة : مصر ! . ويتحدث يحيى حقى عن الأعوام التى أمضاها فى السلك السياسى المصرى خارج البلاد : «لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها . كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم» . ومع أن الكاتبة المصرية المولد والنشأة أندريه شديد قد استوطنت فرنسا منذ سنوات ، فإن الحياة المصرية هى نبض غالبية أعمالها ، يدفعها - باعترافها - ذلك الحنين الشاعرى نحو بيئتها الأولى وناسها الأصليين! ..

●●●

الإحساس بالغربة بعيداً عن الوطن ، والحنين - فى المقابل - إلى الوطن ، ينطلقان من الأمثال الشعبية «الغريب أعمى ولو كان بصير» .. «من خرج من داره اتقل مقداره » .. «الغربة طربة تقل بالأصول» .. «البطيخة ما تكبرش إلا فى لبشتها»

إلخ .. فإذا أثير حديث الرحيل ، قال المثل : «رب هنا رب هناك» ..

اللافت أن معظم الأعمال الإبداعية تصدر عن حنين إلى الزمان أو المكان ، أو إليهما معاً . وإذا راجعت معظم ما كتبت من إبداعات ، فإنها محاولة للسير فوق ذلك الجسر المسمّى الحنين إلى عوالم مكانية وزمانية ..

الحنين إلى المكان حالة يسميها علماء النفس «النوستالجيا» ، بمعنى الافتقاد ، أو الحنين . وكان الشعراء العرب القدامى يكررون ذكر أسماء الأماكن فى قصائدهم ، كأنها أسماء من يحبونهم . أذكرك ببيت الشعر القائل :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

الحبيب والمنزل فى بيت شعرى واحد ، لحظة حنين واحدة.

تبدو الشوارع والميادين والحدائق والأبواب أضيق مما تعيه ذاكرتى . أقف أمام البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى . أشعر أنى كنت هنا من قبل ، وأن صداقتى قديمة لهذه البناية . كنت أجلس - فى المدخل - على دكة عم أحمد البواب (كيف كانت هذه المساحة الضيقة تسعنى ؟!) . أصعد

السلالم إلى الطابق الثالث ، أنظر من النوافذ ما بين الطوابق إلى الشارع الخلفى ، أو إلى مئذنة سيدى على تمراز، أدخل الشقة ذات الصالة والحجرات الثلاث ، تطل واجهتها على شارع إسماعيل صبرى ، وتطل ـ من ناحية ـ على شارع فرنسا وشارع رأس التين ، ومن الشرفة الخلفية على ميدان الخمس فوانيس وشارع رأس التين ، يلتقى الميدان بشارع الأباصيرى المفضى إلى ميدان أبى العباس ، وشارع محمد كريم (التتويج) ، ويتجه الشارع ـ من ناحية ـ إلى شارع سراى محسن باشا ، ومنه إلى الكنانى والموازينى ، ومن ناحية ثانية إلى الموازينى والحجارى والمسافرخانة وأبو وردة، وباب الجمرك رقم واحد .

لا أذكر من كلام أبى عن ساكن الطابق الأول ـ يمين السلم ـ الطبيب الأرمنى مردروس ، أنه كان يعالج نوعاً محدداً من الأمراض ، مرضاه ما بين الأطفال والشيوخ ، إذا مرض أحدنا فإنه يتردد على مردروس ، بصرف النظر إلى سنه . ثم عاد الطبيب الأرمنى إلى بلاده أرمينيا قبل أن أبلغ العاشرة . حاولت أن أضمن البواعث فى روايتى «صيد العصارى»، حصلت أرمينيا على استقلالها ، فعاد المهاجرون

من مدن الشتات إلى بلادهم . استأجرت شقة الطابق الأول أسرة مصطفى أفندى (لا أذكر بقية الاسم) ، وكان موظفاً بديوان محافظة الإسكندرية . ظنى أنه كان وثيق الصلة بأصوله الريفية ، ذلك ما لاحظته فى الزيارات المتوالية لرجال ونساء يرتدون ثياباً ريفية ، ويحملون الأقفاص والقفف . بدأت صداقة أبى ومصطفى أفندى منذ هبط الجار الجديد إلى قهوة المهدى اللبان أسفل البيت ، موقف يشابه نشوء العلاقة بين عبد الله الكاشف فى روايتى «البوصيرى» (رباعية بحرى) وجلساء القهوة . وعرفت - بعد وفاة أبى - أنه كان يخص جاره وصديقه بأسرار شخصية للغاية . الشقة المقابلة لأسرة الأستاذ سليمان الموظف المهم فى مصلحة البريد (لجأ أبى إليه فى مرات كثيرة ، كى يرسل طروداً إلى عمتى وعمى فى القاهرة ، بنظام «من الباب إلى الباب» ، وهو خدمة بريدية مهمة ، (ألغيت لأسباب غير مفهومة ، وإن سهل فهمها فى السياق المجتمعى العام)! ، وكان الرجل أباً لأربع بنات ، اثنتان تكبراننى فى السن ، واثنتان أصغر منى ، وإن لم تفرق مناوشة هواجس البلوغ فى نفسى بين بنت وأخرى . رحلت أسرة عبده فرج الصبروتى من الشقة المجاورة للسلم ،

إلى شقة فى شارع سيدى منصور خلف فرن حبيب ، ثم رحلت إلى شقة فى شارع الميدان . كان رب الأسرة مقاولاً وتاجراً فى العقارات ، يسكن فى شقة بآخر البنايات التى يشيدها ، ثم ينتقل إلى شقة فى بناية حديثة أخرى ، وهكذا .
شقة الصبروتى فى شارع سيدى منصور هى المكان البطل فى روايتى «زمان الوصل» . سكن الشقة أستاذ بكلية الطب اسمه النجار ، لم يكن لديه أبناء ، وكانت زوجه التى تصغره بسنوات منطوية على نفسها ، بعكس شقيقته التى كانت تماثلها فى السن ، لكنها كانت تملك جرأة وقدرة علي الاقتحام ، تشجعت - بتحريض معلن - فحاولت تقبيلها ، وأرجعت تملصها إلى مشروعاتى الجنسية الفاشلة ، الكثيرة .
أذكر أن النجار هو الذى تابع الحالة الصحية لأمى بعد أن اشتد عليها مرض القلب ، وهو الذى أنبأ أبي بقرب رحيل أمي ، فلا بأس من أن تشرب كمية الماء التي تطلبها . الشقة المقابلة فى الطابق نفسه ، أشرت إليها فى سيرتى الذاتية الروائية «مد الموج» . أسرة يهودية عزلت نفسها فى «جيتو» حتى فوجئ سكان البيت بخلو الشقة (عرفنا - فيما بعد - أن

الأسرة رحلت إلى فلسطين) . حلت فى الشقة أسرة أخرى مسلمة ، سيدة وابنان وثلاث بنات ، مثلت صغراهن فى مراهقتى حلماً رومانسياً جميلاً ، أجهضته سذاجتى ، وعبث أصدقاء صباى ، وهو ما شكل لوحة فى «مد الموج» .

لم أتصور أن فى حياة أسرة عم سيد (الطابق الرابع) ما يجاوز المألوف ، أسرة من ولد وابنتين ، تماماً مثل أسر أخرى كثيرة ، فى البيت ، وفى الدنيا كلها . الزمن هو ما لم أفطن إليه فى تلك الأعوام الباكرة من طفولتى ، انتقال عمر المرء - رجل أو امرأة - من الطفولة إلى الصبا ، فالشباب ، فالكهولة ، فالشيخوخة . وكان عم سيد شيخ الأسرة ، وإن اقترب أبناؤه من التسمية بوقوفهم على حافة غروب الكهولة . أزمع الابن الأكبر أن يرجئ زواجه ، حتى تتزوج أختاه ، لكن الأعوام توالت دون أن يطرق الباب خاطب . وتبينت الأسرة - عادة الزمن ! - أن سن الزواج قد فات ، ربما ليس للابن الذى قارب المعاش ، فالرجل - فى بلادنا - يجد الزوجة الصالحة - والتى قد تصغره بعشرات السنين - فى كل الأحيان . أما المرأة التى تجاوز الثلاثين ، فإنها قد توافق على الزواج من أرمل ، له أبناء ، أو عجوز مأربه الأهم

فيها أن تمرضه ، وتحسن رعايته ، حتى تأتي اللحظة التي تغمض فيها عينيه !

اتجه أبي بابتسامته إلى الناحية المقابلة ، حين فسر عم أحمد البواب عزوف الابن الأكبر بسبب غير انتظار زواج الأختين ، عشقته جنية - يرى عم أحمد طيفها الليلي - ومنعته من الزواج !.

فسر لنا أبي - فيما بعد - رواية عم أحمد، بأن الرجل ضاق بتقتير الأسرة، فهي تكتفي بالأجر الشهري الذي يتقاضاه من صاحب البيت!

أستعيد الآن ظروف الأسرة: هل أثر عدم اجتماعية الابن الموظف بمصلحة الجمارك على مصير الأختين، فلم يزره أحد، يطالع ما يدعوه إلى طلب قراءة الفاتحة؟

ما أذكره أن أولاد البيت وبناته كانوا هم زوار الشقة ، يجدون ترحيباً من الأختين ، يشمل مشاركتهم اللعب ، وترديد الموروث من أغنيات الطفولة ، وتقديم العصائر الباردة من الثلاجة الخشبية .

كان قدوم الطبيب الأرمني إلى عيادته في الطابق الأول يعني انصرافنا إلى حيث ألقت . لا أذكر أن أسرة عم سيد

شهدت من الأحداث ما يستدعى إنهاء إقامتنا شبه الدائمة فى الشقة . كانت أسرة منطوية على نفسها بامتياز . لعل هذا هو السبب فى إقامة العنوسة داخل الشقة ، تأكل وتشرب وتنام ، وتحرص على إغلاق الباب والنوافذ والشرفات !

أذكر أن المشكلة نفسها ناقشها أبى وأمى فى دردشاتهما، عن شقة الدخاخنى المقابلة : الزوجين وأبنائهما الثلاثة ، شاب وفتاتين . كانت أمى تهمس بإشفاقها من الزمن الذى يكاد يمضى بعيداً ، فلا تلحق البنتان سن الزواج . ماتت أمى ، ثم مات أبى ، وانتقلت أسرة الدخاخنى ـ بعد وفاة الأبوين ـ إلى القاهرة (فى روايتى «زمان الوصل» تأملت ما تصير إليه حياتنا بفعل الزمن) ! ، وعرفت ـ من أصدقاء ـ أن البنتين قد تزوجتا ، بعد أن جاوزتا ـ فى تقديرى ـ سن الإنجاب !

●●●

ظنى أن موقع البيت ـ ٥٤ شارع إسماعيل صبرى ـ كان له دوره المهم فى تخلق وعيى بصورة طيبة، قربه من أبو العباس، وامتداده إلى المنشية ومحطة الرمل وأحياء المدينة الأخرى، أتاح للجلوات أن تخترقه من شارع الأباصيرى، كما كانت المظاهرات السياسية ومواكب المسئولين القادمة من باب

الجمرك رقم واحد تأتى من شارع أبو وردة ، أو شارع رأس التين.

تابعت ـ من شرفة البيت ـ مواكب العودة من أوروبا لمصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين وغيرهما من القادة السياسيين، وأشرت فى روايتى «النظر إلى أسفل» إلى حشود المتظاهرين القادمة من ناحية الجمرك (لا أذكر نقطة البداية على وجه التحديد) تلاقت سواعدهم ، وانتظمت خطواتهم، وعلت أصواتهم بنشيد سيد درويش: بلادى، بلادى، فداك دمى. كما شاهدت انسحاب القوات الإنجليزية من ثكناتها فى رأس التين إلى ثكنات مصطفى باشا (مصطفى كامل) ومنها إلى منطقة القناة. اجتذبتنى حوارات أبى وأصدقائه حول صورة الحياة السياسية فى العالم بعامة، والحياة السياسية في مصر بخاصة، ومثلت إضافة مهمة لوعي صبى يتشكل بالدهشة والأسئلة والبحث عن المعانى الصحيحة.

●●●

كان الشارع الخلفي، الواصل بين البيت وجامع على تمراز، هادئاً في معظم أوقات اليوم، لا يصخب إلا عندما

نتخذه ملعباً للكرة (كاوتش أو شراب) أو نجرى فيه سباقات العدو (تقتلني الحسرة لأني تخليت عن عادتي في الفوز بالمركز الأول!). ولم تكن صلتي بالشارع مقصورة على اللعب. كنت أتردد على صديقي الصنايعي في دكان الترزي أسفل بيتنا، نتبادل القراءات، ونطرح الأسئلة، ونتناقش. وأغراني هدوء ليل الشارع على ارتكاب حماقات ساذجة، استدعيتها في «رباعية بحرى».

وفي أيام الأعياد وصلاة الجمعة، كانت الحصر تمتد من الميدان إلى الشوارع الجانبية، والشارع الخلفي من بينها، ثم يعود - بعد أداء الصلاة - إلى هدوئه. ورغم أنه كان متصلاً بشوارع كثيرة، فإن الهدوء ظل ميسماً له حتى تركت الإسكندرية. وفي زياراتي إلى بحرى، لاحظت أن أجيال الحفدة لم تعد تلعب - لا أعرف السبب - في الشارع الخلفي.

مثّلت وقفة البيت المتفردة بين أربعة شوارع (إسماعيل صبرى ورأس التين وفرنسا والشارع الخلفي)، فضلاً عن إطلالة السطح على شبه جزيرة بحرى، معلماً لا تخطئه العين، ولا تخطئه الملاحظات كذلك، فهو البيت الواقف بمفرده. وظل الموقع الجميل مبعث اعتزازنا، حتى فوجئنا - ذات صباح -

بالبدء فى إزالة مجيرة عم عباس المجاورة (هى المجيرة التى شهدت فى رباعية بحرى علاقة جسدية بين أنسية والشيخ حماد) ووضع أساسات بناية جيدة، ما لبثت أن علت حتى جاوزت بيتنا فى ارتفاعه.

•••

عندما أكون خارج مصر ، فإن الحنين يدفعنى إلى استحضار الملامح المألوفة ، واللهجة ، إلى الحياة فيها ومعها، تذكّر التفصيلات الصغيرة ، والتافهة . ضغطة الزر فى اللهجات المصرية ، وصوت الناى ، وتلاوة محمد رفعت وأبو العينين شعيشع ، وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وبدارة وعزت عوض الله ، ورقصات سيد حلال عليه ، ولوحات محمود سعيد ، وروايات نجيب محفوظ ، وقراءات فاروق شوشة فى الإذاعة ، والأفلام المصرية فى التليفزيون . وثمة الإسكندرية . إنها ـ عندى ـ ليست مطلقة ، بل تتحدد فى ذكريات شخصية وأماكن وبشر . بالتحديد حى بحرى ، ناسه ومساجده وميادينه وأسواقه وشوارعه وأزقته وتميز الحياة فيه . الإسكندرية فى داخلى أينما ذهبت ، وإن كنت أنتمى ـ بمشاعرى وذكرياتى ـ إلى بحرى ، إلى تلك المنطقة

التى تبدأ من ميدان المنشية ، وتنتهى فى سراى رأس التين ، أو العكس. أشرت فى «مد الموج» إلى النسائم المحملة بروائح الملح واليود والأعشاب والطحالب ، تلامس أنفى فى مكان ما ، فى لحظة ما ، على شاطئ الأطلسي، خور فكان، شاطئ الكورنيش بمطرح، فوق تلال الجزائر، حى البوسعيد التونسي .. أستعيد الرائحة نفسها ، على شاطئ الكورنيش، فى المينا الشرقية، أو فى الأنفوشي. يغلبنى الشوق إلى ملء رئتى من هواء بحرى، تصنعه تيارات من البحر الذى يحيط بمعظم جوانبه.

وصف إدوار الخراط سكندريتى بأنها بحرى ، ظنى أن ما قاله ينطوى على الحقيقة، فإذا كنت أنتسب - بالانتماء القومى - إلى الوطن العربى بتعدد أقطاره، وإذا كنت أنتسب - بالانتماء الوطنى - إلى مصر بتعدد أقاليمها، فإنى أنتسب إلى بحرى، الموطن/الوطن الذي صار فى حياتى تجسيداً للإسكندرية.

سافرت إلى مدن كثيرة داخل مصر وخارجها ، لكن وجدانى لم يترك الإسكندرية - وبحرى بخاصة - فى أى وقت .

أنا دائم الوجود فيه بالحنين والشوق واستعادة الذكريات والمقارنة والكتابة عن الوقائع والأماكن والشخصيات..

جغرافياً ، قد أكون بعيداً عن بحرى بمئات ، أو آلاف ، الكيلو مترات ، لكننى أعيش فى بحرى ، أسير فى الشوارع والحوارى والأزقة ، أؤدى الصلوات فى المساجد ، أذاكر فى صحن أبى العباس ، أشاهد الموالد ، أزور الأضرحة والمقامات ، وأقرأ الفاتحة ، أندس وسط حلقات الذكر ، أخترق زحام شارع الميدان ، أقف على شاطئ البحر ، أتابع عمليات صيد السنارة والطراحة والجرافة ، أتردد على ورش القزق ، أتابع تحليق الطائرات الورقية الملونة ، أمد النظر إلى نهاية الأفق .

مع كثرة ما استمعت إلى صياح الديكة فى مواضع من العالم ، فإن ترامى الصوت ينقلنى إلى بحرى ، بالتحديد إلى حجرة نومى فى الشقة المطلة على ثلاثة شوارع ، يؤنسنى صياح الديكة ، وتسبيحات ما قبل صلاة الفجر ، والأهازيج التى يعلو بها صوت ألفته ، وإن لم أعرف صاحبه !

رغم انقضاء عشرات السنين على رحيلى من بحرى ، فإنى أصحو - فى الكثير من الأيام - على جلبة الطريق فى

ميدان الخمس فوانيس، ورائحة البحر، وأهازيج السحر، وجلوات الصوفية، وسوق العيد، ومواكب العرائس أسفل بيتنا. تختلط الذكريات والصور القديمة . أستغرق لحظات قبل أن أعود إلى الآنى.

لباشلار مصطلح الطوبوفيليا TOPOPHILIA ، ومعناه محبة المكان. ثمة علاقة خاصة تربطنى بالكثير من الأماكن فى بحرى، أسواق وشوارع وجوامع وحدائق وأضرحة ومقامات ، فضلاً عن البحر الذى يطل عليه بحرى من جوانب ثلاثة . وبالطبع ، فإن بحرى - عندى - ليس مجرد المكان ، إنه النشأة والذكريات واختزان ما يتصل بالحنين ، ما حاولت استعادته ، وتوظيفه ، فى كتاباتى السردية .

بحرى هو مدينتى ، هو المدينة التى اختزلها وجدانى ، يجاور أحياء أخرى ، أعبرها ، لكن بحرى - حتى لو ابتعدت عنه - يحيا فى داخلى . لا مكان يزاحم بحرى فى نفسى، هو مغاير، متفرد، يحمل خصائص ومقومات يصعب أن أجدها فى موضع آخر.

حين أخترق الزحام فى ميدان أبو العباس، أو فى شوارع بحرى، فإن إحساسى بالوحدة يزول، أشعر بانتمائى إلى الأمواج المحيطة بى، أنا قطرة تذوب فى مياهه.

أى روح يكمن فى بحرى ؟ ما الذى أحبه فيه ؟ ما الذى يجذبنى إليه ؟

لعلى أجد فى الحى امتداداً لبيتنا المطل على أحد شوارعه، أتبادل السلام والتحية ، أتردد على جوامعه ودكاكينه وساحاته وأسواقه ، أعرف الكثير من ناسه ، الوجوه الطارئة ، أو الحديثة العهد بالإقامة . البيئة - رغم اتساع الحى ، بل ورغم كثافته السكانية محدودة ، ومحددة . الطبقات من الوسطى، فأدنى المهن المتصلة بحياة البحر ، فى السيالة والأنفوشى ورأس التين ، الصيادين وغازلى الشباك وصغار الحرفيين والتجار ، ليس فى بحرى شخصية استثنائية، ـو معتزة بخصيصة ما، ناسه عاديون، يمارسون مهناً، يحفظ عائدها حياتهم، تغيب - إلى حد الندرة - أمراض الانتهازية والوصولية والتقافز فوق أكتاف الآخرين. المسافة من انحناءة الطريق إلى الميناء الشرقية ، وموازاته فى شارع محمد كريم (التتويج) ، والامتدادات حتى المنشية مهن تجارية وحرة ، أو ينتسبون إلى الكادر الوظيفى فى مراتب مختلفة ، الهجرة من الحى وإليه قليلة ، أو أنها معدومة ، فالسحن تبدو مألوفة، حتى السمات المعمارية لبنايات الحى تشهد تغيراً

بطيئاً ، وغير ملموس . ما عدا ميدان أبو العباس الذى تضخمت عمارته بزعم توسيعه ، فإن البيت الذى يلحقه الهدم يبنى على المساحة نفسها ببيت جديد ، حتى الشوارع القديمة: الموازينى والحجارى والمسافرخانة وجودة وأبو وردة وصفر باشا وفرنسا وغيرها، لا تزال على حالها. بل إن تسميات الشوارع لم تتبدل على ألسنة الناس: سمى شارع الميدان تعبيراً عن الزحام الذى تصنعه حركة البيع والشراء، ثم أطلقت الدولة على الشارع اسم محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر الأسبق ، بعد اغتياله فى ١٩٤٨م ، لكن التسمية الأولى ظلت كما هى ، وظل اسم إسماعيل صبرى على الشارع الذى أنشئ فى أوائل الثلاثينيات ، وكان الرجل محافظاً للمدينة، وعلى الرغم من أن الزعيم محمد كريم هو الاسم الذى يطلق الآن - رسمياً - على شارع التتويج (نسبة إلى تتويج الملك فاروق ملكاً على مصر فى ١٩٣٧ ، فإن التسمية القديمة هى التى يحرص عليها الناس. وشارع رأس التين لأنه يمضى إلى سراى رأس التين ، والموازينى لأن جامع ولى الله على يمين الشارع فى الطريق إلى أبو العباس . تحيّرت فى تسمية شارع فرنسا . لم أجد باعثاً لها فى

النوتة الصغيرة التى حدس صديقى الشاعر الراحل عبد الله أبو رواش أنى ربما احتجت إليها فى كتاباتى التى جعلت من فضاء بحرى - بناياته ، ميادينه ، شوارعه - محوراً لها ، ربما جاءت التسمية فى مناسبة احتفالية ، تخص فرنسا ، أو أحد زعمائها . أطلق على الشارع - فيما بعد - اسم الشهيد كمال الدين صلاح ، لكن التسمية ظلت - كالعادة - على حالها .

أحرص - فى زياراتى إلى بحرى - أن أخترق الشوارع الجانبية والأزقة والحارات . أطيل التوقف والتأمل ، أدرس علاقة المكان بالتاريخ السكندرى ، بالبشر الذين يعيشون فيه، أتأمل حتى ما قد يبدو هامشياً . العكس هو ما أفعله حين تدفعنى الظروف للتردد على أحياء الإسكندرية الأخرى . أكتفى بالسير فى الشوارع الرئيسة ، لا أحاول الميل - إلا لضرورة - فى الشوارع الجانبية ، سيرى فى بحرى للتأمل واستعادة الذكريات . أما سيرى فى الأحياء الأخرى فلعمل ما أسعى لإنجازه .

بحرى - فى لغة أهل الإسكندرية - هو البلد . يقال : أنا نازل البلد ، المعنى أنه سيذهب إلى بحرى . هل لأنه الحى الأقدم فى المدينة ؟ هل لأنه الموضع الأصل قبل أن تنشأ

الإسكندرية ، وتتسع ، وتمتد أحياؤها ، وتأخذ صورتها الحالية ؟

إذا نزلت البلد / بحرى فإنك ـ غالباً ـ سترحل عنه وفي وجدانك بصمات يصعب أن تزول .

●●●

سيرة بحرى ـ منذ الطفولة إلى عامى الثانى والعشرين ـ هى سيرتى الذاتية .

والحق أنى حين أغادر بحرى أعانى ارتباكاً وفقداناً للاتجاه ، أسأل بحثاً عن البناية التي ـ ربما ـ علت أمامى ، أو الشارع الذى ـ ربما ـ سرت فيه . لم أكن أجاوز بحرى إلا نادراً ، يصحبتى أبى ، أو أحد أقاربنا ، أو أضع تصوراً محدداً للشوارع التى يجب أن أخترقها ، لا أميل إلى شوارع أخرى ، ولو لإرضاء الفضول .

ولأن مدرستى الابتدائية ، فالثانوية ، فى محرم بك ، فقد حفظت الشوارع ـ بإرشاد أبى ـ جيداً ، لا أبدّل المسار الذى يعيدنى إلى حكاية الحمار ما بين بيت خالتى نبوية (خالة أمى) فى دمنهور ، والزراعات البعيدة . تابعته وهو يمضى فى الشوارع الفسيحة والمدقات والطرق الترابية وفوق

الجسور الصغيرة ، حتى يصل إلى الأرض التى يملكها أبناء خالتي ، فيقف ، نهاية المشوار .

هذا هو حالي - فيما أظن - وأنا أمضي في شارع فرنسا، إلى ميدان محمد علي ، ومنه إلى شارع شريف ، أميل في اتجاه ميدان محطة الإسكندرية ، إلى شارع محرم بك ، حتى قرب نهايته . أخترق - يساراً - شارع المأمون ، حيث تقع في أحد الشوارع المتفرعة منه ، مدرستي الفرنسية الأميرية . المشوار نفسه كنت أقطعه في التوجه إلى مدرستي ، الإسكندرية الثانوية بشارع منشة . لا أذكر أني بدّلت المسار لأي سبب ، اللهم إلا للإفادة من مكتبة البلدية الملاصقة لمدرسة الإسكندرية ، في أوقات الفسح .

●●●

حلمي الدائم - منذ أحببت الكتابة - أن أكتب عن الإسكندرية ، عن حي بحري بخاصة .

حدثتك في مقدمة كتابي «حكايات عن جزيرة فاروس» عن المساحة التي تبدأ بقصر رأس التين إلى ميدان المنشية ، اسمها الرسمي حي الجمرك ، أو قسم الجمرك ، أما التسمية التي اعتاد الناس نطقها فهي : بحري . تشمل الكثير من

الميادين والشوارع والحارات والأزقة ، بالإضافة إلى الروحانية الممثلة فى الجوامع والزوايا وأضرحة أولياء الله ومقاماتهم والطرق الصوفية والموالد والأذكار ، ما يصح انتسابه إلى مدينة واسعة ، فإنها تضم العديد من شركات النقل والشركات الملاحية والمستودعات ، ويعمل غالبية أبنائها فى الأنشطة المتعلقة بالميناء من نقل وتخزين واستيراد وتصدير وتفريغ ، للسفن ، وثمة فئات يرتبط عملها بالبحر الذى تطل عليه المنطقة من ثلاث جهات ، كالحمالين والصيادين والبحارة والعاملين فى الدائرة الجمركية ، ودكاكين بيع أدوات الصيد ، وتجار الأدوية البحرية .

البحر وصيادى السيالة وحلقة السمك وأولياء الله ، حيلة واحدة ، عائلة واحدة . وأحياناً ، فإن الخاطر يلح - حين يمر الأوتوبيس أو المترو أمام محطة القاهرة - أن أغادر مكانى وأتجه إلى القطار ، فأسافر إلى الإسكندرية ، حبيبة أتوق للقائها كلما لاحت فرصة .

بحرى ليس هو الحى الذى عشت فيه أعوام الطفولة والنشأة ومطالع الشباب . عندى هو الذكريات ، هو الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والميدان الواسع قبالة أبى

العباس ، قبل أن تبتلعه العشوائية التي تعاون في تحقيقها محافظ سابق وعدد من رجال الأعمال . بحرى هو سوق العيد الذى تلاشت ملامحه بعد أن حظرت التعليمات وجوده ، وهو أبواب الجمرك المفتوحة دون تصاريح دخول ، ولا قوائم ممنوعين . وهو ما استقر في داخلي من تعاملات البشر والمعتقدات والعادات والتقاليد والعبارات والمفردات والحواديت الصغيرة التي تركت تأثيرات في النفس ، وربما تركت ندوباً على الجسد . غاب عن بحرى علماء دين وتجار وفتوات وشيوخ صيادين ، هم الذين منحوا بحرى زمنه الجميل . أذكر درس المغرب للشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدى على تمراز ، ووقفة أم البحرية عصمت محسن في شرفة فيلتها المطلة على سراى رأس التين ، والشيخ أحمد صاحب الكتاب في شارع فرنسا ، أمضيت فيه عاماً أو أكثر من طفولتي ، والرشيدى بائع المشروبات ، وعم أحمد الفكهاني ، والطيبين بائع البسبوسة . مع ذلك ، فإن بحرى عندى ليس مجرد البحر والشاطئ والجوامع والميادين والشوارع والبشر . إنه كائن له قسمات وملامح وذكريات وحكايات . حتى الجدران والبيوت والنوافذ تمثل - في داخلي - ذاكرة أحيا معها ، وبها .

أمام البنايات الجديدة ، الأسمنت ، والنوافذ الزجاجية الضيقة ، والطوابق القصيرة ، وغياب النقوش والزخارف والمقرنصات - حتى لو تشوهت ، أو تساقطت ! - يغيب إحساسي بالألفة والحميمية والدفء . يتناهى رفع الأذان من موضع قريب ، داخل مصر وخارجها . أستعيد صورة المؤذن في صعوده درجات السلم الحلزوني لجامع على تمراز ، يستقر في وقفته على البسطة الأخيرة ، الصغيرة ، ويرفع الأذان . هذه عندي هي صورة المؤذن باختلاف المواضع التي يرفع فيها كلمات الأذان ، يتماهى التذكر - التذكر قائم - بالحنين إلى الإسكندرية ، وبحرى ، وجامع على تمراز ، بما لكل ذلك في نفسي من مكانة . لكثرة ما استمعت إلى صوت الأمواج وهي ترتطم بصخور الشاطئ في امتداد الميناء الشرقية ، فقد أصبح الصوت ملازماً لي في رحلاتي خارج الإسكندرية . أستعيده ، فيعيدني إلى مدينتي ، وإلى البحر والبلانسات وصيد الجرافة وحلقة السمك والسلسلة ومتحف الأحياء المائية وقايتباي وحاجز الأمواج في مدى الأفق .

بعيداً عن بحرى ، سواء في القاهرة أو في المدن المصرية الأخرى ، أو في خارج البلاد ، فإني كنت أجرى ما يشبه

المقـارنات بين بحـرى وغـيـره من المناطق التى قـد تتـسم بخصـوصـيـة ، خـصـوصـيـة بحرى حافلة بالتنوع والخصوبة والثراء ، بيئة ساحلية يختلط فيها البحر واليابسة بحميمية معلنة ، مفرداتها الصيادون والغزل وتجار الأسماك وتجار أدوات الصيد وعمال الميناء وعساكر السواحل وأفراد القوات البـحرية والبحارة الأجانب والسياح ، بالإضافة إلى المفردات الروحيـة المتـمـثلة فى عـشـرات الجـوامع والزوايا والمقامات والأضرحة ، مشـهد غير متماثل ولا متكرر ، يمثل ـ بالنسبة لى فى الأقل ـ حـافـزاً للتـأمل وتوظيف البـيـئـة فى أعـمـالى الروائية والقصصية .

ألفت رائحة بحرى : البحر واليود والطحالب والأعشاب والأسماك والقواقع والأصداف . أستعيد الرائحة إن ابتعدت عن بحرى ، تقتحم أنفى وكل كيانى . استعدت الرائحة فى سـوق السـمك بمطرح ، على شـاطئ الخليج ، أمـام سـاحل الأطلسى ، فى شرفة فندق «باب البحر» المطلة على كورنيش طرابلس الغرب ، وأماكن أخرى كثيرة تحمل رائحة بحرى ، وإن كانت لا تحمل ملامحه .

التعبير المتوارث: من يشرب ماء النيل مرة واحدة فلابد أن

يعود إليه. أضيف إليه: من يشم هواء الإسكندرية فلن يسهل عليه نسيانها .

أذكر أبيات مريد البرغوتي :

السمكة

حتى وهى فى شباك الصيادين

تظل تحمل

رائحة البحر .

●●●

المثل يقول : «نحن نحمل أوطاننا فى غربتنا» . والحنين خاصية مؤكدة القسمات عند المصرى الذى تضطره الظروف إلى ترك وطنه . حنين دائم ، ومتصل . يحن إلى وطنه وموطنه - المدينة ، أو القرية ، أو الحى الذى يحيا فيه - وإلى أهله وأصدقائه ، وإلى الذكريات الصغيرة .

فى قصتى القصيرة أحمس يلقى السلاح يدندن البطل - دون تدبّر - بمطلع الأغنية :

على بلدى المحبوب ودّينى   زاد وجدى والبعد كاوينى

إنه نفس الحنين القديم الذى بلور أمنيات سنوحى فى أمنية واحدة : أن يعود إلى بلاده ليموت فيها !. وحتى الآن ،

فإني أفضل ـ رغم انقضاء عشرات الأعوام على مغادرتي الإسكندرية بصورة عملية ـ أن تكون أعمالي تعبيراً عن الحياة في بحري ، هذا الحي الذي ولدت فيه ، وأمضيت أعوام طفولتي وصباي وشبابي الباكر . سرت في شوارع وميادين وأسواق ، سبقني إلى السير فيها عبد الله النديم وسلامة حجازي وكامل الخلعي وسيد درويش وبيرم التونسي وعشرات ممن تأثروا بمظاهر الحياة المميزة ، والمتفردة ، في بحري ، وانعكست تلك التأثيرات في إبداعاتهم ..

تبقى حقيقة يجدر بي أن أعترف بها : إذا لم أكن قد عشت معظم أعوام عمري في الإسكندرية / بحري ، فإن الإسكندرية قد عاشت في داخلي كل عمري ..

بحري ، هو المكان الذي أستعيده في لحظات الفقد والوحشة . كنت ـ في صباي وشبابي الباكر ـ أتعجل مغادرته. بدت القاهرة مجالاً حقيقياً للفرصة التي أطلبها . وحين أقمت في القاهرة ، صار الحنين إلى بحري هاجسي ، ودافعي إلى العودة المتكررة إليه .

أحب العيش في مصر الجديدة ، أقامتي فيها تعود إلى ما قبل أربعين عاماً ، لا أتصور الإقامة في مكان آخر ، بي ألفة

للبشر والأماكن والأشياء. ألفت هذا الحي، هذا الشارع، هذا البيت، هذه الشقة، لا أفكر في الانتقال، ولو إلى مكان أكثر ملاءمة. وإذا غادرت القاهرة، فإن الهاجس الذي يتملكني هو العودة إلى مكتبتي، هي خلاصة كل ما يجتذبني إلى مصر الجديدة. مع ذلك، فإن مصر الجديدة تغيب - لا أدري لم؟ - في كتاباتي، لا أكتب عنها، ولا أشير إليها، ناسها، شوارعها، مؤسساتها، مساجدها، كنائسها، بناياتها (الاستثناء في روايتي «ذاكرة الأشجار»). ربما البداية تطالعني، تناوشني، وأنا أقود سيارتي في شوارع الحي، أو وأنا أجلس - كما اعتدت منذ أعوام كثيرة - جوار نافذة الأوتوبيس، أمسك الكتاب بيد، والقلم باليد الأخرى، تشغلني القراءة، أشرد - بين فترة وأخرى - في زحام الشوارع، حتى أنتبه إلى محطة القللي (عرابي)، أعبر الطريق إلى مبنى «الجمهورية».

لأن العمل الإبداعي - كما قلت لك - يكتب نفسه، فإن ما أكتبه - في سطوره الأولى - يستدعي الحياة في بحري: الشخصيات والأماكن والأحداث، ما أعرفه، وما أتصوره، وإن كانت الومضة في أيامي القاهرية. تنفسح الحياة في

بحـرى بمسـاجـده وشـوارعـه وبناياته ومـوالده وأذكـاره وضرائحه ومقاماته ، والصلة بين البشر واليابسة ، وحلقة السمك ، ومعهد الأحياء المائية ، وقلعة قايتباى ، وسراى رأس التين ، وورش القـزق ، ومـرسى القـوارب فى المينا الشرقية .

لم أكتب فى أعمالى التى عرضت للحياة فى بحرى عن مكان لم أتردد عليه ، ولا شخصية لم أتعرف إليها ، ولا طقس لم أمارسه ، أو تابعت ممارسته جيداً ، مثلاً : صيد الجرافة والطراحة والذكر والإنشاد الديني والجلوات إلخ .

لعلى أضيف إلى ذلك كله حب دافق للمكان وأهله ، وهو ما ينعكس فى تلمس الجذور والتكوينات والقسمات والملامح والمنمنمات الصغيرة التى تسهم ـ فى مجموعها ـ فى رسم اللوحة الكلية.

●●●

ظلت أمنيتى أن أقطن شقة فى وسط البلد ، أقضى فيها ما تبقى من العمر . وسط البلد الذى أعنيه هو بحرى . أنزل ـ فى أى وقت ـ إلى الشوارع والأسواق والميادين والمقاهى ، وكل ما ينتسب إلى البيئة التى نشأت فيها . زوجتى تمتلك

شقة فى العجمى ، لكننى أضيق بها ، فهى تبتعد عن وسط البلد بالمعنى الذى أفهمه ، تبتعد عن بحرى ، فأنا لا أحب الإقامة فيها . تعزلنى عن الحياة التى ألفتها ، وإن بدل توالى الأعوام كثيراً من مظاهر الحياة فى بحرى : الإزالة دائماً ، وتشييد بنايات جديدة ، أو تحويلها إلى مشروعات تجارية ، وربما تحويل الميادين الفسيحة ـ والمثل ميدان أبو العباس ـ إلى مساحات مكتظة بالدكاكين والبنايات التجارية .

واصلت البحث ، فلم أجد ثقب إبرة . العدد كامل ، وحركة البناء توقفت لأن كل الأراضى التى تصلح للبناء قد تم بناؤها بالفعل . ثم عثرت على شقة فى عمارة لم يكتمل بناؤها تطل على سيدى على تمراز . بدت غاية المراد من رب العباد ، وإن تقاسم واجهتها ـ مع الميدان ـ حارة صغيرة تفضى إلى شارع محمد كريم .

صاحب البناية فى حوالى الخمسين . ينتسب ـ من الخشونة الواضحة فى يديه ، ومن اختلاط الألوان فى ملابسه ـ إلى فئة الحرفيين . تصورت أنى رأيته فى ترددى ـ أحياناً ـ على ورش سمكرة السيارات بالعطارين ..

أفزعنى الرقم الذى حدده الرجل لامتلاك الشقة :

- ٣٥٠ ألف جنيه ..

استعدت الرقم ، فأكده ..

لجأت إلى الدعابة :

- لبنايات الميدان أو للبناية وحدها ؟

قال من بين أسنانه :

- لغرفة واحدة إن شئت تملكها !

●●●

قيل إن النظر من بعد يفتح أمام الرائى أفقاً غير محدود. ثمة المدن التى زرتها، وأقمت فيها لفترات قصرت أو طالت . الحنين لا يقتصر على الوطن أو الموطن وحده . إنه - هنا - يأتى مرادفاً للإحساس بالغربة والشوق إلى الأهل والأصدقاء ومواطن الذكريات . الحنين يداخلنا بعد أن نمضى فى بعض الأماكن فترات ، ثم نتركها . فأنا أحن إلى الأردن وعمان والسعودية والإمارات والجزائر وفرنسا ولبنان وتونس وإنجلترا وموريتانيا وسوريا وليبيا وألمانيا وكل البلاد التى زرتها ، وأنشأت فيها صداقات ، وتعرفت إلى أماكن وبشر . ربما خرجت بذكريات سيئة ، لكن الحنين يتحرك بالابتعاد ؛ ولعله من هنا جاء قول مستر ميلز فى رواية

ديكنز الصغيرة ديترويت : «إن المرء دائماً يسامح المكان متى ابتعد عنه» ..

نحن نحيا المكان ـ كتجربة ـ عندما يذكّرنا بأماكننا القديمة، الأليفة ، أو يجعلنا نهرب منه إلى أماكننا القديمة ، الأليفة . يضعنا فى إطار الذكريات . وهو ما يسميه باشلار «تعليق» القراءة ، فالقارئ يتذكر ـ من خلال العمل الإبداعى ـ أمكنته الخاصة ، والحميمة .

فى زياراتى المتقاربة ، الأولى ، إلى بحرى ، وإلى الإسكندرية بعامة ، كان يلفنى شعور بالانتماء، أو بالحميمية، وربما بالامتلاك لكل ما حولى، هذا المكان يخصنى ، وأنا أحبه ، هو امتداد لبيتنا فى شارع إسماعيل صبرى ، أعرف ميادينه وساحاته وشوارعه وأزقته وبناياته وجوامعه وزواياه ومقاهيه ، لا أخطئ ملامحها . أعرف الكثير من ملامح البشر أيضاً . تباعدت زياراتى إلى بحرى ، وإلى الإسكندرية جميعاً فيما بعد حدثت تبدلات وتغيرات فى طبيعة المكان ، لكن الصورة الماثلة فى ذهنى ـ ووجدانى ـ ظلت قائمة لا يعتورها تبديل ، وهى الصورة التى حققت بطولة المكان ـ التعبير للنقاد ـ فى أعمالى الإبداعية . أتذكر المرأة اللحيمة المطلة من نافذة

الطابق الأول بشارع الحجارى ، المتصوفة اللائذين بجدران جامع أبو العباس ، مرسى القوارب في الميناء الشرقية ، الطائرات الورقية الملونة فوق خليج الأنفوشى، العجوز المستلقى تحت العربة الصندوق على ناصية شارع الشوربجى، مبنى مقامات الأولياء المفضى إلى السيالة، فلوكة مقلوبة فوق رمال الأنفوشى ، إيقاع صحن العطارة فى سوق الترك ، صيادى السنارة فوق مكعبات الإسمنت ما بين السلسلة وقايتباى ، بائع الصحف يرتب الجرائد والمجلات على رصيف شارع فرنسا ، لصق صيدلية جاليتى ، الطفل ـ داخل التريانون ـ ينفث أنفاسه بخاراً فى الواجهة الزجاجية المغلقة ، نداء الشحاذ الضرير في الموازيني : قصدت باب الكريم ، درويش يفقد الوعى فى استغراق الذكر ، شباك الصيد الملقاة ـ لتجف ـ على السور الحجرى ، تناثر أضواء البلانسات فى ظلمة البحر ، الرائحة النفاذة المترامية من حلقة السمك ، انتشار بحارة السفن الأجنبية ـ جماعات ـ فى شوارع المدينة . فى الليل ، يتحول البحر ـ بعناق الظلمة ـ إلى كائن غامض ، تختفى الأمواج والآفاق ، تخف التأثيرات بأضواء البلانسات المتناثرة في المدى ، إذا انطبقت الظلمة

تماماً ، فإن الرؤية تغيب ، وتحل الرهبة ، ليس ما يشى بالحياة سوى ارتطام مد الموج بصخور الشاطئ ، وهدير انسحابها - بالجزر - فى توال رتيب .

حول جوامع الحى ومساجده وزواياه وأضرحته ومقاماته، تدور حياة أبناء بحرى ، يبيعون ، يشترون ، يعودون من رحلات الصيد ، يؤدون الصلوات ، يقيمون حلقات الذكر والموالد ، يحققون العلاقة المميزة بين البحر واليابسة ، وبملامسة الأمواج للحى فى إطار شبه الجزيرة .

قبل أن أغادر الإسكندرية، كنت أحرص على تأمل الأماكن التى أحبها. البحر - من فوق سطح البيت - يحيط ببحرى من جوانب ثلاثة : الميناء الشرقية بصيادى الجرافة والطراحة والسنارة ، وتناثر البلانسات والقوارب داخل نصف الدائرة الهائلة من السلسلة إلى قلعة قايتباى ، ومرسى القوارب فى أقصى اليسار. الميناء الغربية وما تشغى به من حياة ، صنعها عشرات الألوف من البحارة والعمال والبواخر الضخمة والأرصفة والمخازن والحاويات والصافرات المتشابكة . الأنفوشى بزحف ورش القزق على رماله فى ما يلى مركز الشباب إلى قرب سراى رأس التين . أذكر وصف أبى، وهو

يشير إلى الساحة الخالية أمام سراى رأس التين، وما يتناثر فيها من بيوت، وصورتها القديمة حين كانت تضم عششاً من الصفيح والأسمنت، مغطاة بالخيش، وترعى أمامها الماعز، ويسرح البط والأوز والدجاج. كانت - في رأيه - صورة قبيحة، تناقض فخامة السراى، وضرورة انسحابها على المنطقة المحيطة بها. مشاهد كثيرة ، أعيد تأملها ، أحاول اختزانها في الذاكرة ، أعد نفسي باستعادتها حين أحاول الكتابة عن بحرى . ذلك ما حاولته في رباعية بحرى ، والصهبة ، وقاضى البهار ينزل البحر ، والنظر إلى أسفل ، ومد الموج ، ونجم وحيد في الأفق ، وحكايات الفصول الأربعة ، ومواسم للحنين ، وزوينة ، والمينا الشرقية ، والخليج ، وزمان الوصل ، والشاطئ الآخر ، وأهل البحر ، والبحر أمامها وصخرة في الأنفوشى بالإضافة إلى العديد من المجموعات القصصية .

ولعل تعدد الأعمال التى أكتبها عن البحر ، مبعثه تعدد الدلالات التى يهبها البحر ، إنه - على حد تعبير الدوس هكسلى - ذلك المتجدد دوماً .

إن مجرد الوقفة على شاطئ «المينا الشرقية»، والنظر إلى أفق ما بعد السلسلة وقلعة قايتباى، والبلانسات المتناثرة،

وحـركـة الأمـواج بين السكون والثـورة، والسـمـاء المتقلبـة، والطائرات الورقـيـة، وصـيـحـات أسـراب طيـور النورس، وصيادى السنارة يختبرون الصبر فوق المصدات الإسمنتية.. ذلك كله يهب النفس المتأملة فيـضـاً لا ينتـهى من المشـاعر، والميل إلى التعبير.

●●●

مـا الوطن ؟ هل هو حـيث الجـذور والأصـول ، أو حـيث أعيش ؟ هل هو الأهل الذين تسافر ، وتعود إليهم ؟ هل هو الطفولة ، وحكايات الجدات ، واللعب فى الساحات والشوارع الخلفية ؟

طرح السـؤال نفسـه فى العديد مما كتـبت . الحنين إلى الوطن شاغل الأسرة اليونانية فى الشاطئ الآخر ، والصحفى رءوف العشرى فى الخليج ، والشـاب الزنجبارى فى زوينة ، وهاشم رمضـان السعدنى فى زمان الوصل ، ونورا والطبيب الأرمنى فى صـيـد العـصـارى ، وغـيـرهـم ، تبدلت آراؤهم ومواقفهم وتصرفاتهم ـ سلباً وإيجاباً ـ من خلال الحنين إلى الوطن . بل إن الحنين قـد يجـاوز اسـتـعـادة المكان ذى الذكريات، إلى المكان الذى ندرك انتماءنا إليه ، بحصيلتنا المعرفية ، وروايات الأهل والمعارف .

خيرت كاليبسو الفتى يولسيس بين البقاء معها في جزيرة الخلود ، وبين عودته إلى أرضه حيث لابد أن يموت يوماً . ورفض يولسيس الخلود ، واختار العودة إلى الأرض ، إلى الوطن . وكان هذا هو اختيار هاشم السعدني في زمان الوصل . ولعل ذلك هو ما واجهه الراوي وياسمين في الشاطئ الآخر ، وما واجهه الراوي وزوينة في «زوينة» ، وما واجهه صلاح ونورا في «صيد العصاري» . يفرض القرار نفسه في مواجهة السؤال الصعب : أينا يتنازل عن وطنه ليقيم في وطن الآخر ؟

لكي يشعر المرء بالانتماء إلى الوطن ، لكي يشعر بأنه واحد من مواطنيه ، فلابد أن يحيا في أرضه ، ويعايش مشكلاته وطموحاته . أوافق ميلان كونديرا في أن الكاتب - تحديداً - ليس بمقدوره أن يحيا في أي مكان إلاّ في وطنه ..

والغربة لا تقتصر على البعد عن الوطن ، فقد أعاني الغربة وأنا أحيا في وطني . بل إن الظاهرة المقابلة هي إيثار البعض للفرار من الوطن ، والحياة خارجه . ولا يخلو من دلالة قول الكولونيل لورانس - وهو الذي أمضى أعواماً طويلة

فى الصحراء العربية ـ إنه لم يصبح إنجليزياً حتى بعد عودته إلى بلاده ..

●●●

ثمة ما ننساه تماماً ، كأنه لم يكن . قد يختفى المكان ، لكن صورته تظل فى الذاكرة : التفصيلات والمنمنمات والرائحة . حتى الرائحة تظل قريبة من أنوفنا ، يستعيدها بالوقوف فى الموضع نفسه ، أو فى موضع مشابه .

أشرت فى مقدمة كتابى «مصر المكان» إلى المعنى الخاص الذى لا أفهمه ، وأنا أتأمل سقوط أشعة الشمس على المسقط السفلى لسينما ديانا . مجرد التحديق فى المكان ينقلنى إلى عوالم متشابكة ، وغريبة ، وموحية . الأمر نفسه هو ما كنت أشعر به فى وقفتى وراء شرفة شقة الطابق الثالث فى البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى . نظراتى تتجه إلى السماء ، والبنايات المقابلة ، والتقاءات الشوارع ، والدكاكين ، وحركة الطريق الهادئة نسبياً (أخترق الشارع هذه الأيام، فأتحسر على زمن مضى . أنت لا تستطيع ـ فى قلب الشارع ـ إلا أن تكون موجة يحركها توالى الموجات !) ، وأردد أغنيتى عبدالوهاب : الجندول ، وكليوباتره ، تصدران عن قهوة فاروق

تنتقلان إلى الأذن دون شوائب . تتوقف النظرات طويلاً على الشرفة الصغيرة بين شقتى الطابق الأول ، مجرد واجهة بلا منفذ من أى نوع ، ومساحتها من الداخل لا تبلغ المتر. يتقاسم تأملى لها شرود، أتمنى لو يتاح لى الجلوس داخلها ، دون أن يشغلنى السؤال : ثم ماذا ؟

لم يكن يراها، ولا يشعر بها أى أحد، كأنها سرى الخاص، أجلس ـ بالتخيل ـ فيها، أطل على الشارع، أرنو إلى نوافذ البيوت المقابلة، ربما أسندت رأسى إلى الجدار المصمت، وانشغلت بقراءة كتاب.

تصورت الشرفة مكاناً مناسباً لعرض البضاعة التى أضعها تحت السرير ، يشتريها ـ بالأجل الذى لا يأتى ! ـ إخوتى وأقاربى. لم تكن المشكلة في استحالة أن أجلس داخل الشرفة الصغيرة ، ولكن في استحالة صعود الزبائن إليها، فهى معلقة بين شقتين، ولا سلالم لها.

قد نحب المكان بلا سبب، وربما نكرهه بلا سبب أيضاً. الشعور نفسه يتملكنى عندما ألتقى شخصاً للمرة الأولى . الانطباع الأول يتحول ـ بالأخذ والرد والتعامل ـ إلى يقين ، أو يبوخ الشعور لتصرفات سلبية كانت خافية .

لم تفـارقنى الشـرفـة الحـجـرية طيلة ابتـعـادى عن الإسكندرية، فإذا عدت إلى المدينة، توقفت ـ كالعادة ـ أمام بناية الطفولة والنشأة، أكثر تأملى للشرفة بمقرنصاتها وزينتها الجصية.

حاولت أن تكون العلاقة بين الشرفة الصغيرة وبينى قواماً لعمل ما، لكن المحاولة ظلت ـ على حالها ـ مجرد خاطرة لا أبوح بها.

●●●

سرت فى ما لا حصر له من الشوارع والميادين والحوارى والأزقة والساحات والقاعات والردهات والغرف والممرات الضيقة. يملؤنى شعور بالحنين إلى مكان لا أتبينه، هو أشبه بالمجهول الذى تغيب ملامحه. حين عدت إلى الإسكندرية أدركت أنها هى المكان الذى يتجه حنينى إليه، ميادينها، مساجدها، شوارعها، أحياؤها، بناياتها، قعدات الناس فى الحدائق، وعلى الشاطئ فى امتداد الساحل.

الإحساس بالسكندرية (سكندريتى هى بحرى) شعور يتملك كل أبناء المدينة، شعور قوى، مسيطر، قد يفرض الجهارة والتقريرية، ويفرض من المبالغات والأخيلة والتصورات ما قد تغيب عنه الحقيقة أحياناً.

أحب بحرى، لا لأنه الحى الذى ولدت فيه ، ونشأت ، وإنما لأن الناس الذين أحبهم يعيشون فيه (لم أكن أتردد - فى أعوام الصبا - فى النزول إلى الطريق بالجلباب أو البيجامة، وهو ما لم أفعله، فى العمر نفسه، أوقات زيارتى لبيت عمتى بالمنيرة). يؤنسنى زحام الأسواق ، وتلاصق الأكتاف ، ونداءات الباعة ، وتلاغط المساومات ، والفصال ، وأصوات الطيور داخل الأقفاص ، ورائحة الكباب والفلافل ، وصيادى السنارة والطراحة والجرافة وطبالى السمك فى واجهة الدكاكين ، ومرسى القوارب في يسار الميناء الشرقية ، ورفع الأذان (كم شاهدت - من النافذة الخلفية المطلة على جامع على تمراز - مؤذن الجامع وهو يصعد درجات السلم الحلزونى إلى أعلى المئذنة. يسند جانب وجهه إلى راحته، ويعلو صوته مؤذناً للصلاة)، وتصاعد الأهازيج والأدعية من مئذنة أبوالعباس ، ودروس المغرب فى صحن على تمراز ، ومكتبة حمادة الفن ، وصافرات البواخر في الميناء الغربية ، وورش «القزق» ، وحلقات الذكر على رصيف البوصيرى ، والموالد ، والجلوات ، وخيام الطرق الصوفية ، والمجاذيب اللائذين بجدران المساجد ، وباعة المصاحف والأوراد والكتب

الدينية والمساجد فى ميدان الأئمة ، وتناهى آيات القرآن والأغنيات من داخل المقاهى ، والبخار المتصاعد من أكواب الشاى ، والحاوى ، ونافخ النار ، وألعاب البلى والنحلة والدوم . حتى العبارات المؤنبة والشتائم والمجاذيب والمتسولين. ولعلى أذكر ما نقله بيرم التونسى عن عالم إنجليزى - لم يسمّه - إن أبناء بحرى - فى القرن التاسع عشر - هم أرذل الناس على وجه الأرض. وفسر التونسى معنى الرذالة بمحاولات الأولاد إيذاء الغرباء عن الحي، وهو تصرف يحدث في كل الأحياء الشعبية، وفي كل مدن العالم.

تؤاخذنى ملاحظات على اقتصار ما أكتب على بحرى ، لا أتحرك - إلا قليلاً - بعيداً عنه ، إلى أحياء أخرى ، فى الإسكندرية ، أو إلى فضاءات أخرى فى مصر والعالم . أنا لا أتعمد اختيار بحرى موضعاً لكتاباتى ، لكنه هو الذى يجعل نفسه سيداً على هذه الكتابات : البحر والشوارع والميادين والأسواق والبنايات والجوامع والزوايا والأضرحة والمقامات والحدائق والمقاهى والقزق وحلقة السمك وقلعة قايتباى ومعهد الأحياء المائية ومرسى القوارب وصيد العصارى وسراى رأس التين ، وغيرها من القسمات التى تشكل الشخصية المميزة لبحرى .

الجمرك هى التسمية الإدارية لبحرى. اسم بحرى يطلق على الحى جميعاً. غربال وكرموز والقبارى والورديان وغيط العنب أحياء أو شياخات مثبتة فى الأوراق الرسمية، بينما تخلو تلك الأوراق من تسمية بحرى. إنه حى الجمرك، يتبعه العديد من الشياخات التى تخلو من تسمية بحرى. يقول ابن محرم بك، أو باكوس، أو كوم الدكة، أنا نازل بحرى، وأحياناً يقال : أنا نازل البلد ، والمعنى هو ذلك الحى ذى الكيلو متر المربع، بما يحويه من خصائص ومقومات.

بحرى ليس مجرد حى يضم نوعيات متمايزة من البشر، ولا أنماط حياة قد تختلف عما يحياه بشر آخرون ، لكنه يمثل عالماً صغيراً ، فضاء يمتزج فيه الواقع والخيال بما يهب خصوصية وتفرداً .

بحرى هو أقرب أحياء الإسكندرية إلى نفسى ، لاعتبارات عاطفية وفنية . أنا أدين له بمراحل الطفولة والنشأة والشباب الباكر ، وأدين له بالملامح التى تركت تأثيراتها فى الذاكرة والوجدان ، وكانت هى الإطار الذى تحركت فيه شخصيات وأحداث أعمالى الإبداعية .

أنا أعرف المكان جيداً . ظني أنه يعرفني جيداً كذلك . هذه المدينة، الحي، الميادين ، الشوارع ، الحارات، الجوامع، البيوت، المقاهي، الدكاكين، الحدائق، الساحات .. ذلك كله أنتمي له، وينتمي لي، هو الوطن، البيت ، الأسرة ، الصداقة .

أتنقل بين المدن ومخيلتي تلازم العيش في بحري . أحرص على النزول إلى الحي - في فترات متقاربة - لمجرد أن أشم الرائحة التي تفرض مغايرتها ، مهما تعددت الفضاءات التي أتنقل بينها ، أمني النفس بكتابات عن البحر الذي أحبه . أقيم في القاهرة منذ بداية الستينيات ، لكنني أحرص - في كل زيارة لي إلى الإسكندرية - أن أجلس إلى الصيادين في البلانسات ، داخل حلقة السمك ، على رمال قزق الأنفوشي ومقاهي بحري ، حياتهم في الأمواج والشباك والعواصف والنوات والخطر . أمضي إلى شارع إسماعيل صبري ، أطيل الوقوف أمام البيت رقم ٥٤ ، أرنو إلى الطابق الثالث ، أستعيد ما هو ثابت في الذاكرة ، وما أدركه الشحوب . أعرف أن محمد كريم وعبد الله النديم وعبد الله دراز وسيد درويش وبيرم التونسي وأم البحرية وسلامة حجازي ومحمود سعيد وعبد الرحمن الرافعي ومحمود كامل

الخلعى ومحمد محمد حسين ومحمد زكى العشماوى وحسين بيكار وغيرهم ، ساروا فى الشوارع نفسها التى أسير فيها ، لا أعرف الجوامع التى ترددوا عليها ، ولا أين كانوا يجلسون ، ولا أين كانوا يلتقون بالناس ، ولا الأماكن التى تحمل تأثيراتهم ، لكننى أكاد أشم رائحة وجودهم فى جولاتى التى لا تنتهى داخل بحرى . أخترق الشوارع والحارات والأزقة ، أطل على شاطئ البحر والمقاهى والخرائب والساحات . أتخيل ما كان.

أذكر أنى سألت أبى :

- لماذا سمى حيّنا بحرى ؟

قال أبى :

- لأنه يطل على الناحية البحرية .

- أظن أن التسمية من البحر .

- الإسكندرية كلها على البحر ، لماذا التسمية على هذا الحى وحده ؟!

إذا كانت التسمية لأن الحى يقع بحرى الإسكندرية ، أو لأن مصدر بحرى هو البحر . فإن بحرى - كما قلت لك - شبه جزيرة ، فى شبه جزيرة الإسكندرية ، بيئة خاصة ، ومتفردة، دنياها البحر ، المهن والمعتقدات والعادات والتقاليد، سلوكيات

الحياة بعامة .

معظم الأسر في بحرى على صلة بالبحر ، سواء بالعمل فيه ، أو الحياة إلى جانبه ، أو مشاهدته دوماً .

بدأت السيالة ـ على سبيل المثال ـ بثلاث عائلات ، مارست مهناً متصلة بالصيد ، وحتى الآن فإن شياختى الصيادين والسيالة هما موطن صائدى الأسماك فى المدينة ..

قد يبين التشابه بين البحر والصحراء فى الآفاق اللانهائية، سواء أمام الواقف ، أو الجالس على شاطئ البحر، أو حول راكب الباخرة فى انطلاقها وسط الأمواج ، لكن الاختلاف ما بين الحركة والسكون ، الصخب والهمس ، التوقع والملل ، المخلوقات التى يعتمد المرء على ما تهبه من تواصل الحياة ، والمخلوقات التى لا تعنى شيئاً ، أو تترصد بالأذى .

كانت أول مرة أركب فيها البحر ، لما أقلتنى ـ وصديقى عادل الصبروتى ـ فلوكة صغيرة ـ للنزهة ـ من الرصيف الأمامى لباب نمرة واحد ، حتى رصيف باب نمرة ستة ، ثم العودة . اختُصرت الأبواب من اثنين إلى خمسة ، لم نحاول مشاهدتها ، ولا تبين ما إذا كانت مفتوحة أم مغلقة ، تأذن

بالحركة والدخول والخروج . الشعور بالدهشة تغلب على ما عداه ، والفلوكة تكاد تلاصق بواخر البوستة الخديوية الهائلة (هذه البواخر الضخمة ، الراسية على الرصيف ، ستبحر إلى أماكن أخرى ، إلى أرصفة أخرى ، فى موان أخرى ، فى مدن بعيدة) ، وأصابعنا تلامس بقع الزيت فوق المياه الساكنة، ومن حولنا الفلايك والمعدات والمياه المائلة إلى البنى بتأثير الزيوت المتسربة من البواخر والأرصفة والرافعات ، وتلاحق صافرات السفن الداخلة من البوغاز ، والخارجة منه، والطيور المتباينة الأشكال والألوان فى تقافزها على الساكن والمتحرك ، تهبط فتكاد تلامسنا ، والصيحات والنداءات البعيدة ، يمتص الفراغ رجع صداها فلا تبين مفرداتها . غمرنى شعور بالسعادة وأنا أعبر هذه المسافة القصيرة (تكررت النزهة !) ، كأنى فى حلم جميل ، أو أنى فى الجنة .

فى داخلى حنين إلى دنيا لم تعد موجودة ، دنيا الموالد والأذكار والجلوات وسوق العيد وحفلات الزفاف والختان والخيام والبيارق والأعلام والدفوف والطبول والأدعية والأناشيد والأهازيج . غابت تلك الدنيا فى غابات الأسمنت التى تلاصقت ، حتى فى ميدان أبو العباس الذى لم يبق منه

سوى الاسم .

إسكندريتى ليست البنايات الضخمة على الكورنيش، ولا فى الميادين والشوارع الفسيحة. إنها البيوت الصغيرة، المتلاصقة، والشوارع الضيقة ، المتقاطعة، تتراكم فيها مياه الأمطار، تختلط بالتراب، فتصنع ما يشبه كومات الطين، تعلو فتهبط أبواب البيوت تحت مستوى الطريق. وثمة القهاوى والغرز والأضرحة والزوايا، ومدرسة البوصيرى الأولية، وروضة مصر الفتاة، وكُتاب الشيخ أحمد، والمذاكرة فى صحن أبو العباس، وقلعة قايتباى، والبيت المهجور بشارع سيدى داود، أهرول أمامه لتصور أن الأشباح تسكنه، ونادى مدرسة إبراهيم الأول، وخطب الشيخ عبد الحفيظ، وتياترو المسيرى، وفرقة فوزى منيب، وحديقة سراى رأس التين، وجياد الملك فى جولاتها الصباحية، والمظاهرات الصاخبة لا أعرف من أين جاءت ، ولا إلى أين تنتهى ، تهتف بسقوط الملك وزعماء الأقلية ، وبحياة النحاس ، وصيد العصارى ، وحلقة السمك ورائحة الزفارة والعطن وأريج البخور والكتاتيب والصوفية والموالد وحلقات الذكر والأهازيج ،

والوقفة أسفل بواخر البوستة الخديوية ، ومباريات الكرة فى الأراضى الخلاء ، وقهوة فاروق ، وحلوانى الطيبين ، وسباق البنز والطائرات الورقية والجيب والقفاطين وملاءات اللف .

إذا كان قد خطر لى - أحياناً - أن أدخل البناية رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى ، أصعد إلى شقة الطابق الثالث المجاورة للسلم ، أستعيد ملامح وذكريات ، فإن الخاطر نفسه راودنى فى أن أدخل واحدة من البنايات المواجهة للميناء الشرقية ، أطل من نافذة على أفق البحر . المحيط الجغرافى - على حد تعبير إيزابيل الليندى - هو الذى يحدد شخصية الإنسان . لعل البحر فى مقدمة ما أفدت من تأثيره ، ليس البحر فى إطلاقه ، وإنما أفق البحر ، حضه على التأمل بما لا يحضرنى فى موضع آخر .

حلمى الذى لا يتبدل - منذ تركت الإسكندرية ، وفرضت الظروف أن تخلى أسرتى شقة إسماعيل صبرى - أن أستأجر شقة لها نافذة تطل على البحر مباشرة ، على الميناء الشرقية بخاصة ، أتأمل امتدادات الأفق والأمواج والبلانسات والقوارب وصيادى الجرافة والطراحة وصيادى السنارة

والجالسين على الكورنيش .

ثمة شارعان يفصلان بين شقتنا في شارع إسماعيل صبرى وشاطئ البحر . الشقة التى تمنيتها هى التى صارت شقة للسيدة نجاة فى روايتى " البحر أمامها " .

سأكون ممتناً لو أتيح لى - وأنا أتهيأ للمجهول - أن أقرأ سورة الرحمن في جلستي أمام البحر ، مثلما فعل عماد حمدى في الفيلم المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ «ميرامار» :

«الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان. ألاّ تطغوا فى الميزان . ... تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام».

●●●

ربما لو أنى لم أترك بحرى، ما لاحظت الاختفاء، التلاشى، الذى ابتلع الكثير من البنايات والشوارع والميادين. حتى الميدان الأشهر الذى يطل عليه جامع السلطان، تبدلت هيئته، فقد توسطه مبنى هائل، تحولت أطراف الميدان من حوله إلى شوارع صغيرة، ضيقة، واتصلت - بالكاد - بما كان

قائماً من الشوارع الجانبية..

أقول: ربما لو أني لم أترك بحرى، وأعود إليه، على فترات متباعدة، ما لاحظت ذلك التبدل في قسمات الحي.

أنا أتبين ـ في كل عودة إلى بحرى ـ ما لم أكن لاحظته من قبل.

وربما لم أكن أكتب عن بحرى كل هذه الصفحات ، بكل هذا الحب ، لو أني ظللت في الحي ، لم أبتعد عنه . الابتعاد يتولد عنه الذكريات والشوق والحنين وغيرها من المشاعر التى تستفز المبدع في داخلي . الصور التى أشاهدها وأنا أجول في شوارع بحرى وأزقته ، تختلف تماماً عن الصور التى أستعيدها وأنا في مكتبي .

كيف يحيا سكان المدن والقرى التى لا تطل على البحر، دون هذا العالم الحافل بالمغايرة والسحر ؟!

يا أولياء الله .. مدد !

ولدت فى بيت يطل على جامع . مفردات نشأتى : رفع الأذان من على تمراز ، ترامى التسابيح من أبى العباس ، تواحيش رمضان ، الجلوات المارة أمام بيتنا ، الموالد فى الميادين ، مواكب الطرق الصوفية ما بين ميدان الأئمة إلى جامع القائد إبراهيم ، حلقات الذكر على رصيف البوصيرى ، خطب الشيخ عبد الحفيظ إمام على تمراز ، صلاة الجمعة والعيدين في ميدان الخمس فوانيس ، معهد المسافرخانة الدينى ، سوق العيد ، درس المغرب ، المذاكرة فى صحن جامع قطب الإسكندرية ، دوران عربات العرائس فى ساحة السلطان ، مقامات الأولياء، وأضرحتهم ، والزوايا ، والمزارات ..

أذكر أنى كتبت عن رؤيتى لمؤذن جامع على تمراز ، وهو يصعد السلم المعدنى ، الحلزونى ، ينظر من توالى الكوات

بعلو المئذنة ، ويلتقط أنفاسه ، حتى يبلغ البسطة الصغيرة أعلى المئذنة . يعتدل في وقفته ، ويحيط وجهه براحتيه ، ويرفع الأذان . مشهد يتكرر خمس مرات في اليوم ، وإن كانت رؤيتي له بالمصادفة ، عندما أكون في الحجرة المطلة على الشارع الخلفي ، أو في المطبخ الملاصق لها .

لتكرر المشهد ، فقد صرت أتوقع التصرف التالي ، منذ يطأ المؤذن قدمه على أول السلم حتى يبلغ درجته الأخيرة ، ويأخذ وضع التأهب لرفع الأذان.

ومع أن ساعة الحائط البندولية كانت تتوسط صالة الشقة، فإن أبي كان يتعرف الوقت من أذان الصلوات الخمس. حتى مواعيد نزوله إلى قهوة فاروق للجلوس إلى أصدقائه، جعله ما بين أذان المغرب والعشاء. في موعد أذان المغرب يرتدي ثياب الخروج ثانية، ربما بعد دقائق من عودته إلى البيت، يظل في القهوة حتى يتناهى أذان العشاء، فيستأذن في العودة إلى البيت، وكان أذان العصر يوقظه من نوم القيلولة، فيتهيأ للتوجه إلى عمل بعد الظهر.

ثبت ذلك كله في ذاكرتي ، صار جزءاً من تكويني المعرفي والوجداني ، نبع ألجأ إليه في كتاباتي .

أطيل الوقوف على الرصيف الفاصل بين ميدان السيدة زينب ومقام رئيسة الديوان . أميل إلى الشوارع والحارات المحيطة بالمكان : شارع السد والناصرية ودرب الجماميز والدرب الجديد والسباعين وشارع قدرى وبركة الفيل وحارة السقايين والمدبح وزينهم وقلعة الكبش وشارع الجأولى والصليبية وشارع خيرت وأبو الريش . عبق الروحية العطرة يسرى فى الأمكنة جميعاً ، كل المقيمين من محاسيب رئيسة الديوان ، يتمسحون قربها ، ويتذكرون مآثرها ، يحملون الأشاير والطبول والزمور والأعلام والكاسات ، يتلون القرآن ، ويقرءون البخارى ، والأذكار .

لا أذكر المناسبة التى أشرت فيها إلى الجوامع المتقاربة فى بحرى ، بين الجامع والآخر زاوية أو ضريح أو مقام ، كأنما الحى قد جُعل للروحانية ، أو أن الروحانية قد جعلت له، لكن المعنى - فى ظنى - صحيح تماماً . عشت فى أكثر من مدينة ، وزرت مدناً فى داخل مصر وخارجها ، لم أر مكاناً يضم هذا العدد من أولياء الله : المرسى أبو العباس ، البوصيرى ، ياقوت العرش ، نصر الدين ، كظمان ، الست مدورة، عبد الرحمن بن هرمز ، على تمراز ، الموازينى ، شرف الدين ، خضر، وعشرات غيرهم.

الولي العالى المكانة هو قطب ، والقطب - غالباً - تتبعه طريقة ، لها أوتادها ونقباؤها ومريدوها ، ولها أعلامها وشاراتها وأورادها . وإذا كان الأولياء في بحرى كثر ، فإن الأولياء الأقطاب - مع بعض التجاوز - لا يبلغون العشرة . حدثني نجيب محفوظ - ذات يوم - عن الفتوات ومساعديهم ، الفتوة هو البطل الذى يوجه الضربات ، بينما المساعدين يتلقون الضربات التى توجه إليه .

●●●

طالعت اسم قاضى البهار - لأول مرة - في أوراق أبى. عرفت أنه اسم جد قديم لعائلتنا، وترك وقفاً يحصل الورثة منه على مبالغ صغيرة قبل أن يحل نهائياً، وتتحول المبالغ الصغيرة إلي ما يحقق الثراء لكل أبناء العائلة.

حدثنى أبى عن ذلك الجد - قاضى البهار - الذى قدم من المغرب، فاختير قاضياً للبهار، مثلما اختير ابن خلدون قاضياً، واختير علماء آخرون لمهن مختلفة، تنتسب إلى زمانها، وإن كان أولياء الله وأقطاب الطرق الصوفية هم الأعمق تأثراً حتى الآن في البلاد المصرية.

شغلتنى التسمية عما عداها، كأنها تنتسب إلى عوالم ألف ليلة وليلة، وحكايات التراث العربى، وجعلت الاسم بالفعل -

فيما بعد - عنواناً روائياً، وتحول انشغالى فى أثناء ذلك إلى محاولة قراءة تاريخ علماء المغرب فى مدن مصر: متى قدموا؟ وكيف؟ ولماذا اختاروا الإقامة فى هذه المدينة، أو تلك؟ وهل كانوا جميعاً من المتصوفة، أو أنهم وجدوا فى الحياة المصرية ما يغريهم بالبقاء؟

وأذكر أنى تناولت فى كتابى «حكايات عن جزيرة فاروس» تاريخ العلاقات المغربية المصرية، من خلال هجرات العلماء المغاربة إلى بلادنا

●●●

إذا كان لبحرى موقعه المتميز، فهو يتصل بالبحر من جهات ثلاث، شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية، فإن الروحانية سمة مهمة فى فضاء الحى. عشرات الجوامع والأضرحة والمقامات والمزارات التى لا تطالعك - ربما - فى المساحة نفسها فى موضع آخر.

أفسر الأمر بأنه يعود إلى فترة ازدهار دولة الأندلس الإسلامية، عشرات العلماء والنساك والزهاد قدموا إلى الإسكندرية من بلاد المغرب، يسعون إلى أداء فريضة الحج، يستخدمون الدواب، أو يسيرون على أقدامهم. تطالعهم

الإسكندرية فيزمعون الإقامة فيها. يلقى ترحيباً من أهلها، ينسبون إلى أقواله وتصرفاته كرامات، يصرون أن يقيم بينهم، في حياته، وبعد الممات. تلك هي الحكاية التي تكررت في سير أبو الحسن الشاذلي والمرسي أبو العباس والعديد من أولياء الله، تصوروا الإسكندرية محطة في طريقهم إلى البيت الحرام، لكن الخصائص المميزة للمدينة وأهلها، دفعتهم إلى الإقامة فيها بعد أداء فريضة الحج. ثمة من أخلص للدعوة الدينية؛ ومن أنشأ طريقة صوفية، تضخمت أعداد مريديها ـ كما هو الحال في الطريقة الشاذلية ذات القطب الأكبر والأحزاب والأوراد وعشرات الألوف من المريدين ـ وتوزعت في أماكن متقاربة: مقامات وأضرحة يقصدها الناس، يلتمسون البركة والشفاعة والمدد.

المظاهر الدينية ملمح يضاف إلى الروحانية التي اكتسبها بحري بتعدد مساجده وأوليائه. الموالد والجلوات وحلقات الذكر وسرادقات الإنشاد الديني وغيرها مما يشكل تكويناً في ثقافة أبناء الحي، بصرف النظر عن المستويات المعرفية والاجتماعية..

موكب العروسين لابد أن يستأذن أبو العباس ـ أو السلطان كما يسميه السكندريون ـ بالمرور من أمام مسجده،

عادة شحبت، أو ألغيت، بعد أن تقلص الميدان بفعل فاعل، والموالد يشارك فيها، ويسعى إليها الألوف من الإسكندرية وخارجها، تشغى بالخيام والأعلام الملونة والبيارق والأغنيات وأكشاك الختان والنذور وهتافات المجاذيب، ومآذن الحى ترفع الأذان - فى الأوقات الخمسة - والتواشيح والأدعية، وثبتت ذاكرة الطفولة ما كانت تزخر به الجلوات من مظاهر، بعضها يميل إلى الغرابة والشذوذ، كابتلاع النار، ووخز الوجنات، وانبجاس الدم من الجسد بتأثير ضربات المطاوى والسيوف، والنوم على المسامير، وتلقى الأفواه رءوس الثعابين، إلخ .. لكن اليقين الدينى يستقر فى النفس، يتخلص من التأثيرات السلبية، بعد أن ينفض الوعى مظاهر الخرافة!

أفرز ذلك كله بيئة ثقافية، لها أسلوبها ومفرداتها، سواء فى الطرق التى تنتسب إلى أقطاب الصوفية، أو فى الأذكار التى تنشدها حلقات الذكر، أو فى الإنشاد الدينى، والأغنيات التى تعكس الصلات المتداخلة بين الروحية والبحث عن لقمة العيش، البحر واليابسة، الصحو الذكى والاستغراق فى الغيبوبة، حتى رقصات «سيد حلال عليه» وأغنيات «السدا» والأجيال التالية من فنانى الحى، تعكس الحوار الدائم بين

صـيـاد السـمك ومـورد رزقـه، الاتفـاق مع أحـيـاء المدينة في المظهر، والاختلاف في الجوهر، بما يهب بحرى خصوصيته وتفرده!

●●●

الإسكندرية هي باب المغرب، فلا فاصل بينها وبين المغرب سوى الصحراء التي تتناثر فيها بلدان المغرب العربي. هي - في التسميات الحالية -: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا. وثمة روايات تاريخية تؤكد أن العنصر الوطني في الإسكندرية يعتمد - في أصوله القديمة - على الوافدين من المغرب، ربما من قبل أن يقود جوهر الصقلي حملة الفاطميين إلى الأرض المصرية.

كان العالم الإسلامي متصلاً. من يخلّف قطر إلى آخر لا يسأله أحد عن أوراقه الثبوتية، ولا من أين أتى، ولا إلى أين يتجه.

وكما قلت فإن بحرى تحول - في توالي السنين - إلى مركز استقطاب للباحثين عن اليقين الديني ، بداية من أداء الفرائض والسنن ، وانتهاء بتلمس البركة والشفاعة والنصفة من الأولياء الذين تشغي بهم جوامع الحي وزواياه وأضرحته ومقاماته .

ربما البداية فى تلك الأعوام القديمة ، توالى قدوم المئات ، وربما الآلاف من متصوفة المغرب العربى ، يسعون إلى الحج، تطول الرحلة على الأقدام ، أو بواسطة الركوبة المجهدة ، يحاولون التقاط الأنفاس فى الإسكندرية ، نية الإقامة أياماً تمتد إلى نهاية العمر . يشيدون - أو يشيد له المصريون الطيبون (أليسوا أولياء الله ؟) مساجد وزوايا ، يضاف إليها - بعد الرحيل - أضرحة ومقامات. حتى مسجد تربانة بشارع فرنسا، أنشأه المغربى إبراهيم عبده المغربى، الشهير بتربانة.

عرضت لتلك الرحلة الجميلة ، القاسية ، فى العديد مما كتبت . ثمة أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وياقوت العرش والطرطوشى وأبو حامد الغزالى وابن خلدون وابن أبى الدنيا وابن عربى وابن عطاء الله وعبد الرحمن بن هرمز وعلى تمراز وعبد الرحيم القنائى ومحمد العطار (ينسب إليه جامع العطارين) وغيرهم ، منهم من اتخذها معبراً إلى مدن مصر الأخرى - والقاهرة بخاصة - ومنهم من فضل الإقامة فيها ، امتثالاً لإلحاح أبنائها الذين عبّروا عن اعتقادهم فيه .

رحلات علماء الأندلس ومتصوفتها إلى الإسكندرية، ومنها إلى مدن مصر وقراها، أعطت تأثيراً دينياً مهماً فى البيئة

المصرية. ثمة عشرات الجوامع والمساجد والزوايا والمزارات، تتناثر في امتداد الأرض المصرية، تنتسب إلى علماء المغرب، وعلماء الأندلس بخاصة، تعمق اليقين الديني، وتسم معتقدات المصريين وعاداتهم وسلوكيات حياتهم بما قد لا نجده في مجتمع آخر. نحن شعب مذهبه السنة، ونحب آل البيت بما لا يقل عما يعلنه الشيعة، ساعد على ذلك الامتزاج الجميل ما أتى به، وألفه، علماء الأندلس من طرق صوفية، تتجه بطقوسها إلى الذات الإلهية ابتداء، ثم إلى رسول الله، فآل بيته وصحابته والتابعين، ونؤمن بمكاشفات الصالحين وبركاتهم.

هذه هي شخصية الإنسان المصرى بعامة، منذ تداخلت ديانات الفراعنة بمراحل تاريخه المتوالية، حتى الفتح الإسلامي، ثم وجدت المعنى الذى يمارس فى ضوئه - حتى الآن - معتقداته الدينية.

اخترعت مخيلتى أولياء آخرين: الأنفوشى ، على الراكشى فى «أبو العباس» (رباعية بحرى)، الشيخ المغربى فى قصة «الإبانة عن واقعة كنز الشيخ المغربى» الشيخ جابر برغوت فى «ياقوت العرش»، الجزء الثانى من «رباعية بحرى»، الإمام

الحفناوى فى «إمام آخر الزمان»، أولياء الله فى روايتى «أهل البحر» : إبراهيم سيد أحمد ، صبيحة النخاخنى ، رافع عبيد، وغيرهم .

●●●

تحدثت فى كتابى «مصر فى قصص كتابها المعاصرين» عن اليقين الدينى فى حياة المصريين ، وما يتصل به من معتقدات وطقوس وتيارات وطرق صوفية ومساجد ومزارات . لعلى أشير إلى عصا موسى وخاتم سليمان ودورهما فى مقاتلة على بن أبى طالب للشيطان ، يظل احتدام المعركة حتى ينزل المهدى المنتظر من السماء على غمامة ، ومعه الملائكة ، فيفر الشيطان ، ويتبعه المهدى ، ويصرعه برمحه .

اخترت لأجزاء رباعيتى عن بحرى أسماء أولياء الله : أبو العباس ، ياقوت العرش ، البوصيرى ، على تمراز . لم تقتصر الرباعية على هؤلاء المتصوفة الكبار ، اكتملت بانورامية اللوحة بشخصيات مهمة أخرى فى دنيا التصوف : الخضر وكظمان ونصر الدين وعبد الرحمن ومنصور وعلى تمراز ، وغيرهم .

وفى روايتى «أهل البحر» أوردت ما لم يسبق لى تناوله فى الرباعية ، كرامات ومكاشفات لأولياء الله ، بعضها من اختراعى ، وإن اتصل السياق . أضفت ـ على سبيل المثال ـ شخصية سيدى الأنفوشى . استمعت إلى أكثر من رواية حول الاسم ، وما إذا كان لشخصية أجنبية ، إيطالية على وجه التحديد ، أم أنه لشخصية دينية غابت عنها الشهرة التى تحققت لأولياء الحى الآخرين ؟

التقطت أذناى ـ فى رحلتى بالقطار من الإسكندرية إلى القاهرة ـ قول شاب لأفراد أسرته :

ـ رافقت أصدقاء إلى سيدى الأنفوشى .

ولأنه ـ فيما يبدو ـ واجه استغراباً فى أعين أفراد الأسرة، فقد استطرد :

ـ الضريح أسفل قلعة قايتباى ، أكد لى أصدقائى أنه لولى الله الأنفوشى !

أعرف أن صديقى الشاعر والمفكر الكبير مهدى بندق يضع زيارة أضرحة أولياء الله ومقاماتهم فى موضع الخرافة، لكنه فاجأنى بموافقته على أن يصحبنى ـ بسيارته الصغيرة ـ إلى قلعة قايتباى : أنت تحتاجه لأحداث روايتك ، لكنك لن تجد شيئاً !

لم أجد إجابة من أى نوع عند المسئولين عن القلعة . استغربوا السؤال ، فالضريح أسفل القلعة لا يضم إلا الفراغ، ما لديهم من معلومات ينفى وجود موتى داخل القلعة .

أنقذنى عسكرى يقف على باب الحجرة الخالية إلا من ضريح يتوسط أرضيتها الترابية . روى لى حكاية الجندى الذى أعدمه السلطان قايتباى بتهمة الخيانة ، فلما عرف براءته أمر أن يدفن فى ضريح داخل القلعة . هذا هو ساكن الضريح ، تصور فيه نسوة الحى ولياً يشفى من العقم (لماذا العقم بالتحديد ؟). يأتين فى موعد صلاة الجمعة ، يتمرغن على الأرضية الترابية ، توسلاً بالخلفة .

أفردت لسيدى الأنفوشى ـ صار ولياً ! ـ فصلاً فى روايتى «أهل البحر». أفدت من حكى العسكرى ، وإن بدلت وحورت بالقدر الذى تتطلبه الحكاية الفنية .

●●●

كيف صار أولياء الله فى بحرى جزءاً فى حياتى ؟

أبو العباس المرسى هو ـ فى تسمية السكندريين ـ سلطان الإسكندرية ، نحن نقسم به : والمرسى ، ونغنى له : اقروا

الفاتحة لابو العباس .. يا اسكندرية يا أجدع ناس ، وحول مقامه نطلب النصفة والمدد ، ونروى عن مكاشفاته وكراماته ما قد يخطئه الحصر .

أول صورة فى ذاكرتى عمال بناء يحملون قطع الحجارة ، ويخلطون الخرسانة المسلحة . كانت تلك ـ كما عرفت فيما بعد ـ إعادة بناء الجامع فى أوائل الأربعينيات . الصورة شاحبة . جذبنى أبى ونحن نسير بالقرب منها ، فلم يتح لى أن أستكمل أسئلتى . اتسعت الصورة ـ فيما بعد ـ وتوضحت ، ألفت المئذنة والقباب والميدان الفسيح الممتد إلى البحر ، والميدان الآخر المفضى إلى السيالة ، والصحن الهائل الذى يسع مذاكرتنا ، ومصلى السيدات تدل عليه المشربية أعلى المكان ، والمقام بدائرة الزوار من حوله ، يستغيث أصحابها ، ويلتمسون ، ويتذللون ، يطلبون الشفاعة والنصفة والمدد .

أما ذلك الضريح ـ ولعله مقام ـ الذى يتوسط الحجرة المستطيلة ، الملاصقة لردهة الطابق الأول فى مدرسة البوصيرى الأولية . فقد أثار انتباهى طيلة العامين ، أو الثلاثة ، التى أمضيتها تلميذاً فى المدرسة ، قبل أن أنتقل إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية ، ثم ـ بفرمان أبوى صارم ـ إلى

المدرسة الفرنسية الأميرية .. ذلك الضريح شغلنى فى سنى البوصيرى الأولية وبعدها ، وتناثر هذا الانشغال فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية ، فضلاً عن الكتابات التى تنتسب إلى السيرة الذاتية .

وثمة ميدان الأئمة الذى اختفى بفعل فاعل، شيدت - فى الساحة ما بين مقامات الأولياء وبين جامع المرسى - بناية خرسانية هائلة ، شغلتها مطاعم ودكاكين حلاقة وملابس ومناديل رأس وإيشاربات وأقمشة وأحذية وأدوات تجميل وعطور ومشغولات عاج ، تبرير ما حدث هو توسعة الميدان ، (توسعته بإلغائه) .

قبل أن ترتكب الجريمة ، كنت أتنقل - متباطئاً - بين الشبابيك المعدنية التى تطل على مقام أولياء الله، أنظر منها إلى مقامات الأولياء الاثنى عشر. ينفصل الهدوء والسكينة فى الداخل عن الصخب من حولى ، كأن المقامات جزر منعزلة ، لا صلة لها بالحياة الهادرة فى الميدان ، الصمت السادر يعزل المبنى الصغير ذى الشبابيك المعدنية عن كل ما حوله .

ذلك ما كان يفعله عبد الله الكاشف فى روايتى «البوصيرى» ، الجزء الثالث من رباعية بحرى ، يمضى فى

جولة بين مساجد أولياء الله ومقاماتهم وأضرحتهم ، منذ يغادر بيته أول شارع الأباصيرى من ناحية ميدان أبوالعباس، يطيل التوقف أمام مقامات الأولياء الإثنى عشر ، ويقرأ ما تسعفه به ذاكرته من آيات القرآن والأدعية .

أما سيدى على الموازينى ، فمدفون فى ضريح بداخل المسجد هو وابنه . ولعل فى تأخر اكتشافى لمقام سيدى محمد شرف الدين ، أول شارع رأس التين ، مبعثه ازدحام ذاكرتى البصرية بالعشرات من المقامات والأضرحة ، فى داخل بحرى أو خارجه . تعددت المزارات ، فلم أفطن إلى المقام الذى احتل ركناً فى جانب الشارع ، إلا بعد سنوات من رحيلى عن الإسكندرية .

●●●

مثلت الإسكندرية حلقة اتصال بين علماء الأندلس وطريق الحج إلى بيت الله الحرام . ربما مضوا إلى دول القارة الإفريقية التى بلغتها الفتوحات الإسلامية..

كانت «رباعية بحرى» ، ثم اللوحة التى تناولت فيها الشاذلى فى «أهل البحر» دافعاً لا لأقرأ ترجمة حياته فحسب، وإنما قرأت أقواله وأحزابه وأدعيته ، وهى كثيرة ،

مع ملاحظة أنه لم يقدم مؤلفاً كالشعرانى أو ابن عطاء الله على سبيل المثال .

ولعل أهم ما يحرص عليه مريدو الشاذلية، حفظ أحزاب الشاذلى بكل ما تضمه من حكم ومواعظ وابتهالات وصلوات ودعوات. وأهم ما يعتزون بأدائه حزب النصر الذى ألفه الشاذلى تقرباً إلى الله، وهداية لمريديه.

وقرأت أن بردة البوصيرى هى أفضل المدائح النبوية ، بعد قصيدة كعب بن زهير الشهيرة «بانت سعاد» . كنت أحاول تهجيتها - وأنا صبى - على جدران جامعه ، ثم أقبلت على قراءتها بعينى الرضا ، وجدت أنها تستحق الرضا فعلاً ، تستحق الثناء والتقدير على المستويين الإيمانى والفنى. وقرأت للبوصيرى قصائد أخرى تتجه إلى مدح الرسول .

من روايات المتصوفة أن أولياء الله يتولون بأنفسهم - بعد وفاتهم - خدمة مريديهم ، وأن السيد البدوى - فى رواية الشعرانى - كان يدعو لمولده مريدين من العرب والعجم ، وأن إعادته للأسرى كانت بعض كراماته .

ولكل أولياء الله ـ كما يقول النقشبندى ـ خصوصية وهمة فى الحياة والممات .

●●●

اللافت ـ فى حى الحسين القاهرى ـ كثرة اللوكاندات ، يتردد عليها زوار سيد شباب أهل الجنة من أبناء الريف ، أسعارها الزهيدة تجعلها مضرب الأمثال ، فأنت تعاير صديقاً بأنه لاينزل إلا فى لوكاندة المشهد الحسينى ، بمعنى قلة «دخول» المترددين عليها .

وفى المقابل ، فإن بحرى يكاد يخلو من اللوكاندات . ففيما عدا فنادق شارع النصر ، وأول شارع فرنسا ، والشوارع القريبة ، فإن أهل المدن والقرى القادمين إلى الإسكندرية ، طلباً لزيارة السلطان ، أو صاحب البردة ، أو ياقوت العرش ، وغيرهم ، يجدون فى الخيام والأكواخ والسرادقات شبه الثابتة في الشوارع الصغيرة المتفرعة من ميدان أبو العباس ـ قبل أن ينقلب حاله ـ ملاذاً يريحون فيه أبدانهم ، ويتناولون طعامهم وشرابهم على نفقة شيوخ الطرق الصوفية .

ترام السكة الجديدة

أذكر أنى كنت أسأل أبى عن مشوار إلى شارع السكة الجديدة ، مجرد أن أذهب إلى الشارع . أعرف المقصد الوحيد الذى سيطلبه أبى ، هو شوكت أفندى الحلاق ، يريد أبى موعداً كى يحلق عنده . ليس فى الأمر استظرافاً ولا مبالغة ، فلم يكن الرجل يستقبل زبائنه إلا بموعد يحدد من قبل . ولأن التليفون المحمول لم يكن - ربما - قد طرأ فى ذهن مخترعه ، وكانت التليفونات الأرضية مظهراً للوجاهة ، لا يقوى عليه إلا القلة ، فقد كان أبى يبعث بى إلى الصالون ، كى أحدد موعد زيارة أبى ليسلم له رأسه !

كان الرجل يسكن فيلا أنيقة بالقرب من مدرستى الفرنسية الأميرية بمحرم بك ، على الباب لافتتان : الأولى

باسم صاحب الفيلا، والثانية تحذر من خطر الكلاب. كان - في ذاكرتي - يخطو إلى السبعين ، ممتلئ الجسد ، بشرته البيضاء أميل إلى الحمرة ، وصلعته - التي شملت كل رأسه - تغنيه عن اللجوء إلى مهنته . لعله من بقايا العنصر التركي الذي شهد نهايته في الحياة المصرية ، منذ بدايات الحرب العالمية الأولى .

العرض الذي أقدمه لأبي ، بعيد عن غواية التعريفة التي كنت أتقاضاها مقابلاً للمشاوير إلى شارع الميدان . كان هدفي الذي أحبه ، ولا أعلنه ، هو ركوب الترام ذي العربة الواحدة من أول الشارع إلى نهايته . هي عربة ترام تختلف عن غيرها من العربات التي تقطع شوارع الإسكندرية بصغر الحجم ، وأنها تكتفي بنفسها . ما كان يجذبني إليها كراسيها المتقابلة ، وقلة عدد الركاب ، والمناقشات التلقائية ، كأنها تدور بين أفراد أسرة واحدة ، أشارك بالإنصات ، وأخلي التصور لعشرات الحكايات التي تدخلني عوالم لا أعرفها ، مغايرة لتلك التي أعيشها في شوارع بحري ، حتى زحام شارع الميدان بعمليته وصخبه ، يختلف عن الضبابية الحالمة التي تحيط بالترام الصغير ، وبي ، ما بين أول شارع

السكة الجديدة إلى قرب نهايته . تذكرني بحكايات جدي ، وبما كنت أقرأه في مكتبة أبي من كتب التراث الحافلة بالسحر والخيال والأسطورة ..

أحببت الصعود إلى العربة العلوية في ترام الرمل . يلفني انبساط وأنا أجلس في المقعد المواجه للنافذة الزجاجية المستطيلة ، أرقب الميادين والشوارع الواسعة والبيوت والدكاكين والمقاهي والإعلانات والأسوار ، وقضبان الترام - في استقامتها وانحناءاتها - تندفع إلى الخلف ، على جانبيها الخضرة والأعشاب البرية المتناثرة ونبات عباد الشمس بصفرته الوهاجة .

كان ذلك ما يفعله الراوي في روايتي «غواية الإسكندر» ..

وكان الترام وسيلة تنقلي بين بحري وأحياء الإسكندرية الأخرى . لم أستقل الأوتوبيس إلا لأماكن يغيب عنها الترام . يقلني الترام من المحطة أمام قهوة فاروق إلى محرم بك ، حيث مدرستي الفرنسية الأميرية والإسكندرية الثانوية ، مشوار يومي ألفته إلى حد الإحساس بالرتابة ، وربما الملل . الطريق هو هو ، شوارعه وميادينه وانحناءاته والدكاكين على الجانبين ، كل شيء يتكرر كأنه مشهد يعاد عرضه . أنشغل

بالعادة التى لا أذكر متى صارت جزءاً فى تكوينى ، فأنا أجعل المواصلات مكاناً للقراءة . أعزل نفسى عما حولى ، وأنغمس فى قراءة كتاب ، لا أرفع رأسى إلا لمتابعة مناقشة حادة بين الكمسارى وأحد الركاب ، أو ما يستدعى الالتفات فى الطريق . حتى لو أغمضت عينى، بتأثير سهر الليلة الفائتة، فإنى أطمئن إلى محطة الوصول . وحين استضافنى البرنامج التليفزيونى «رائحة المكان» الذى أبدعه الفنان سيد شلبى ، فقد حرصت أن أبدو كأنى أهم بركوب الترام .. عشرة قديمة لم أنسها !

أخترق شارع الميدان إلى تقاطعه مع شارع السكة الجديدة . عربة الترام الوحيدة فى وقفتها - غالباً - كأنها تنتظرنى .

الشعور بالنشوة يتملكنى ، ونظرتى تجول بين الركاب (لم يزيدوا مرة عن عدد أصابع اليدين) والمحال على جانبى الشارع حافلة بالبضائع : البقالة وأجولة العطارة وصناديق الفاكهة ومشغولات النحاس وقطع الغيار وورش الحدادة والمطاعم والمقاهى الصغيرة ، وثمة مزيج لروائح البخور والفلافل والكباب والكفتة والمكرونة (لم تفتح محال الكشرى

فى الإسكندرية إلا متأخراً) وقلى الأسماك . يبدو لى كل شيء - ربما للترام ، ولضيق الشارع - مغايراً لشارع الميدان. يضيف إلى ضبابية الصورة - أحياناً - مشيعو جنازة ، أسرعت خطواتهم وراء النعش لإكرام الميت بدفنه قبل أن يحل المساء ، يتداخل المشهد الطارئ ، الصامت ، فى عمومية المشهد ، كأنه حلم .

اختفى الترام - فيما بعد - ورفعت القضبان ، تحول إلى ذكرى ، أستعيدها حين يعرض التليفزيون عربات مماثلة فى مدن العالم .

لم يغب الترام الصغير - وحده - من حياة السكندريين . اختفت مظاهر أخرى كثيرة ، كانت تضيف - بالنسبة لى فى الأقل - مغايرة جميلة ، مثل الجولة الصباحية لخيل الملك ، وجلوات المولد ، وموسيقا الشرطة فى عروضها بشوارع المدينة ، والصواريخ الملونة فوق السلسلة .

الزحام الذى تعانيه الإسكندرية الآن ، جعل أهلها يأملون فحسب أن تسعهم الشوارع - مشاة وراكبين - بما يعينهم على قضاء أعمالهم .



لا أذكر المرة الأولى التى ركبت فيها الترام بمفردى . اعتدت رفقة أبى فى زيارات لأماكن وأصدقاء ، وحدى أو مع أخى الأكبر . زرنا بيت عمتى فى شارع ابن طريف بمحرم بك ، وبيت عمى فى شارع أمير البحر بالحى نفسه ، وبيت عمتى (ماتت وأنا طفل ، فلا أذكرها) نلتقى وديدة وعدولة ابنتى عمتى الراحلة ، وأباهم عم كمال ، وابنتيه من زوجته الأولى ، الراحلة .

صحبنى أبى كذلك إلى الشركات التى كان يعمل بها : الجراية للورق، كورى للأقطان، شركة التأمين الأهلية. تعرفت إلى عدد من مسئولى الشركات الثلاث ، ورافقته إلى سراى الحقانية ، عرفنى بالشاعر عبد اللطيف النشار ، وبالمحامى والسياسى أحمد مرسى بدر، زرناه فى مكتبه بشارع شريف باشا، وعرفنى بأصدقاء آخرين، يقيمون فى مواضع مختلفة بالإسكندرية ، وكان الترام وسيلة بلوغى أماكن تلك الشخصيات. وأظن أنى أفدت من ذلك كله فى العديد مما كتبت، مثلاً : رواية «حكايات الفصول الأربعة»، وقصة «نبوءة عراف مجنون» .

لكن ركوبى الترام ـ بمفردى ـ للمرة الأولى ، عندما توجهت إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية فى شارع متفرع

من شارع الإسكندراني بمحرم بك . أمضيت فيها أياماً قليلة، قبل أن يصدر أبي فرماناً بنقلي إلى المدرسة الفرنسية الأميرية بشارع المأمون، المتفرع من الرصافة. وجد في الفرنسية لغة المستقبل، وهو ما ثبت خطؤه فيما بعد - كما نرى - فقد أوشكت الإنجليزية أن تبتلع لغات العالم ، حتى الفرنسية تعاني أزمة معلنة.

ولأني كنت اعتدت ركوب الترام مع أبي، فقد ظل الشعور بالاعتيادية في داخلي، حين ركبت الترام للمرة الأولى، وأنا أحفظ الطريق إلى مدرستي الجديدة - آنذاك - الفرنسية الأميرية في نهاية شارع المأمون بمحرم بك. ثم أصبح ركوب الترام بتذكرة القرش - ذهاب وإياب - تصرفاً يومياً في ذهابي إلى المدرسة ، وعودتي منها ، أشاهد ، وأستمع، وأتأمل، وأكتسب معارف وخبرات .

كان الحدث الأهم في علاقتي بالترام ، عندما واجهت الموت ، بعد أن قفزت على السلم في أثناء سير الترام، لكن قدمي أخطأت الموضع، وسقطت في الفراغ، ولولا أني تمددت في المساحة بين الرصيف والقضبان، ربما كنت في خبر كان وهو ما سأرويه في أسطر تالية.

عرفت ـ فيما بعد ـ أنى نجوت ـ ذلك اليوم ـ من المصير الذى لقيه زميل لي بالمدرسة ، حاول ـ مثلى ـ أن يقفز على سلم الترام، فأخطأ القفزة ، وشطرت عجلات الترام ساقه . ظل ينزف في موضعه ، وحين وصلت سيارة الإسعاف كان قد مات.

●●●

لماذا اختفى الترام من شوارع القاهرة أو كاد ، بينما الترام ملمح رئيس في وجه الإسكندرية ؟

ظنى أن زحام القاهرة كان له تأثيره ، ليس في اختفاء الترام فحسب ، وإنما في اختفاء وسائل نقل أخرى ، مثل عربات الحنطور وعربات الكارو إلخ .. والسبب ـ في تقديرى ـ هو الزحام الذى شهدته القاهرة خلال العقود الأخيرة ، حتى مترو مصر الجديدة ، اختصرت مسافة النهاية ، فلم يعد يشق شارع الجلاء إلى كورنيش النيل . اقتصرت محطة النهاية ـ أو البداية ـ على ميدان رمسيس . أما ترام الإسكندرية فهو ملمح مهم في الحياة السكندرية ، قد تمتلك سيارة خاصة ، أو تستقل الأوتوبيس ، أو تفضل السير ماشياً ، لكنك تلجأ ـ في أوقات ما ـ إلى الترام ، سواء في داخل المدينة ، أو في منطقة الرمل ، يقلك من ناحية إلى أخرى.

الشوارع التى يخترقها ترام الرمل ، تأذن له بالسير إلى جانب وسائل المواصلات الأخرى ، بينما معظم شوارع المدينة واسعة نسبياً ، فهى تسمح بمد قضبان الترام دون خشية على حركة المرور ، وثمة شوارع يهمل السكندريون ضيقها ، لأنهم يحتاجون إلى الترام فى معظم تنقلاتهم .

●●●

للترام وجوده فى العديد من أعمالى. أذكر - على سبيل المثال - عندما تملكنى التردد - لثوان - والترام يزيد من سرعته، بعد أن غادر محطة الصينية بمحرم بك إلى محطة الرصافة . كنت قد اخترقت شوارع جانبية من مدرستى - الفرنسية الأميرية - لأركب الترام من أوله . أغرانى قيام الترام قبل أن أصعد إليه بأن أقفز داخله . جاوزت سرعته ترددى . اندفعت أقبض - بيد - على القائم الحديدى ، بينما اليد الأخرى تحمل حقيبة الكتب ، لكن قدمى أخطأت السلم . انحشرت بطولى فى الفجوة التى تخلفت من عمليات صب خرسانة بين قضيب الترام وأسفلت الطريق . حلت لحظة سكون ، لا صلة لها بانطلاق عجلات الترام الحديدية بجوار جسدى المكوم داخل الحفرة الطولية ، ولا بالكتب التى تناثرت

من الحقيبة . غاب التذكر والرؤية والإحساس باللحظة والخوف والأمل، حتى الصراخ خنقته قوة في داخلي لا عهد لي بها. تنبهت - بعد زمن - إلى أن الترام مضى بعيداً ، فعدت إلى نفسي.

أذكر المرأة التي لمحتها في انحناءة الترام من شارع النبي دانيال إلى شارع السلطان حسين . كانت تضع على صدرها أكياساً من الورق ، يطل منها خضار وفاكهة. اجتذبني الوجه الأبيض المشرب بحمرة ، والشعر المسدل في إهمال ، والجبهة المنداة بعرق خفيف ، والعينان الواسعتان الصافيتان ، تظللهما رموش واضحة ، والأنف الدقيق ، والشفتان الرقيقتان . وكانت ترتدي فستاناً واسعاً ، وحذاء بدون كعب . ظلت الملامح في ذهني حين عدت إلى البيت . استعدت الوقفة والأكياس المحتضنة ، وظللت أستعيدها . تنبثق في رأسي كالومضة ، ثم تختفي ، وتظهر بعد فترة تطول وتقصر ، ثم تختفي. مضت أعوام كثيرة ، ومازلت أستعيد صورة المرأة في انحناءة الترام ، كأني رأيتها أمس .

وفي روايتي «غواية الإسكندر» لم يعد نزول الأستاذ الجامعي وليد شكري إلى الطريق للذهاب إلى مكتبه وحده ،

ولا إلى مواقع التنقيبات . يحرص ، فيغيب عن البيت، يمضى الوقت فى تأمل الأماكن ، والسير بلا هدف . تتفرع أمامه الميادين والشوارع. تختلط المعالم والرؤى والتوقعات. أصعد إلى الدور الثانى من ترام الرمل، أجلس فى المقعد الأمامى، تبين الشوارع باتساعها، البيوت والدكاكين والمقاهى وقضبان الترام فى استقامتها وانحناءاتها. على جانبيها الخضرة ونبات عباد الشمس بصفرته الوهاجة. يستقل ترام الخط الدائرى، والأوتوبيس من بدايته فى ميدان المنشية إلى نهاية الخط، ويعود. لا يشغله المسار الذى يمضى فيه، ولا المحطة النهائية. يظل فى جلسته حتى يعود إلى بداية الخط . يمضى فى الشوارع الضيقة، المنحدرة ، ناحية البحر. ولما أحيل الأب رجب كيرة إلى المعاش، من وظيفته فى شركة الترام (رواية «صخرة فى الأنفوشى ») كان قد خلفه ابنه الأكبر مدحت فى الوظيفة نفسها. وظل الرجل سعيداً بالأبونيه المجانى للترام، حتى أنه كان يستقله فى المسافة القصيرة ما بين قهوة فاروق وجامع أبو العباس.

أودة القعاد

كنا نسميها أودة (حجرة) القعاد . تطل ـ من الواجهة ـ على امتداد شارع إسماعيل صبرى إلى الكورنيش وأفق البحر ، وإلى اليمين امتداد الشارع إلى شارع الميدان وسيدى العدوى والترسانة البحرية . ومن اليسار شارع رأس التين إلى الموازيني وأبو العباس وأبو وردة وباب الجمرك رقم واحد وميدان إبراهيم باشا ومقابر البطالمة وسراى رأس التين .

لم تكن أوسع حجرات الشقة ، لكنها استحقت تسميتها بجلوسنا الدائم فيها ، ننام ، ونأكل ، ونلعب ، ونقرأ . أثاثها كنبة عريضة لصق الجدار المواجه للبحر ، وفى المدخل بوفيه ضخم يمتد إلى نهاية الجدار ، تعلوه رخامة يتداخل فيها الأبيض والبنى ، وله ستة أدراج مستطيلة ، تتجاور فى

صفين . على رخامة البوفيه كتب أبى برقية من كلمتين «خديجة توفيت» . وطالبني أن أحمل الورقة إلى مكتب التلغراف فى شارع فرنسا . كان موظف المكتب صديقاً لأبي، فأبدى تأثره .

فى مساء اليوم نفسه ، سبق الصوات جدتي وهي تقترب من باب البيت ، عرفت أنها تسلمت البرقية . بعد ظهر اليوم التالي ، بدت الحجرة خالية من الأثاث ، عدا سجادة افترشت الأرضية .

قال أبى فى ضيق :

- ماذا أفعل لجدتك ؟!.. أصرت على المعددة !

روت لى شقيقتي ما جرى فى الحجرة من طقوس العديد .. كلمات منغمة ، حزينة ، تنعى الراحلة - أمي - وإن لم تحسن شقيقتي التقاط عبارة واحدة من كلمات العديد !

كان للحجرة شرفتان ، الأولى تطل - يميناً - على شارع فرنسا ، ويساراً على شارع رأس التين ، وفى المواجهة امتداد إسماعيل صبرى إلى تقاطعه مع التتويج ، فطريق الكورنيش . تحد مساحة البحر المتاحة للرؤية آخر بنايتين فى أول إسماعيل صبرى ..

الشرفة الثانية تطل - من الوسط واليمين - على شارع إسماعيل صبرى ، ومن الوسط واليسار على شارع فرنسا . معظم الأيام مغلقة ، لا نفتحها إلا استجلاباً لتيارات الهواء أوقات الصيف ، أو لمتابعة الفرجة على المواكب القادمة من شارعى الأباصيرى ورأس التين : المظاهرات والجلوات والموالد والعربات المحملة بأثاث العرائس . قد يختار نافخ النار أو الحاوى أن يقف أسفلها لعرض ألعابه . نتلاصق خلف سور الشرفة الحجرى ، نتابع اتساع الدائرة حتى ينتهى العرض .

بعد رحيل أبوى صرت - بالطبع - أكثر حرية ، أقف وراء كل شرفة بالقدر الذى يتاح لى مشاهدته من صور الحياة حول البيت .

فى الركن - ما بين الشرفة المطلة على الميناء الشرقية ، والثانية المطلة على شارع إسماعيل صبرى - مكتبة تمتلئ بالكتب ، كانت - كما رويت لك - هى مدخلى الحقيقى إلى دنيا القراءة .

يعود أبى من عمله ، فيقل ترددنا على الحجرة . ربما لا ندخلها . يجلس أبى على كرسى بالقرب من المكتبة ، يوسد

ساعديه على كرسى آخر ، وإلى جانبه طاولة صغيرة ، فوقها سبرتاية وكنكة وأكواب صغيرة . يصنع لنفسه - بين فترة قصيرة وأخرى - كوباً من القهوة ، ثم يستأنف النوم . ربما تسللت إلى الشرفة ، أطل على حركة الطريق ، وإلى أفق البحر . قد أقلب فى المكتبة ، وأعود بكتاب لأقرأه .

قيمة القراءة أنها تنقلك - دون أن تترك مكانك - بين بلاد ومدن وقرى وصحارى وجبال وسهول ووديان وغابات وبحار ومحيطات ، مالا تعرفه من الأمكنة . أداتك فى التنقل - إلى جانب القراءة - حصيلتك المعرفية ، وخيالك .

كانت أيام طه حسين أول ما قرأت من كتب أدبية . كنت فى حوالى الثامنة . أمكننى الفهم فى القراءة الثالثة ، وكانت الرواية / السيرة الذاتية هى الدافع - كما أشرت من قبل - كى أكتب محاولتى الأولى «الملاك» . ثانى كتاب قرأته عن الحياة الجنسية ، مؤلفه فائق الجوهرى المحامى . التقيت بالاسم فى أعمال كثيرة سابقة وتالية . لم أكن أدركت البلوغ ، لكن العنوان اجتذبنى . سحبت الكتاب ، وحاولت أن أركز لأفهمه ، وأن أعاود القراءة . نسيت كل ما قرأته ، لكننى أتذكر معلومة وحيدة أشار إليها الكاتب فى سياق السرد .

لأن الرجل في الغابة لا يرتدى ثياباً من أى نوع ، فإن عضوه الذكرى لا يطول - في لحظات الإثارة - إلا قليلاً ، هو طويل حتى في أوقات الاسترخاء والبعد عما يثير !

تعددت قراءاتى فى الحجرة وتنوعت ، بقدر تعدد الكتب فى مكتبة أبى وتنوعها . كانت اقتصادية باعتبار مهنة أبى كمترجم في الاقتصاد ، وإن ضمت كتباً في التراث والأدب والسياسة والتاريخ والجنس ، وخلت تماماً من كتب الأطفال التي كنت سأسعد لو أنى عثرت على أى كتاب منها .

منذ تلك الأيام البعيدة ، صارت المكتبة تكويناً مهماً فى شخصيتي . أحب التردد على المكتبات ، والوقوف داخلها ، وتقليب الكتب ، وقضاء الساعات في القراءة وتسجيل الملاحظات . مجرد أن أكون فى داخل مكتبة ، يشعرنى بالأسرية ، بالحميمية ، أنى فى مكان يخصنى .

أذكر قول محمود الشنيطى وأنا أبحث عن قراءات فى مكتبه بهيئة الكتاب : أثق أنك أحببت القراءة قبل المراهقة ، المراهقة تثبت ما نحبه ، الرياضة ، القراءة ، العادات اليومية، إلخ ، هذه الفترة ما بين الرابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين تشكل الشخصية بما يصعب تغييره .

أحببت القراءة بالفعل منذ الطفولة : فى مكتبة أبى المطلة على الميناء الشرقية ، وفى بيوت الأصدقاء والجيران ، وفى دكان حمادة الن بائع الصحف بشارع إسماعيل صبرى ، ومكتبة فارس بالقرب من فرن حبيب وانحناءة الترام فى تقاطع صفر باشا ورأس التين . أقسو على نفسى لكى أواصل القراءة . يغلبنى النوم ، وقد يسقط الكتاب من يدى . ألتقطه ، وأنفض رأسى ، وأفتح عينى على اتساعهما ، وأقرأ . لا أقرأ وفق خطة محددة ، ما تصادفه يداى ، كتب فى الدين والسياسة والتاريخ والاقتصاد والطب والتجارة والأدب والفن .

فى أثناء القراءة ، أضع خطوطاً تحت العبارات التى تستوقفنى ـ وهو ما أفعله حتى الآن ـ أو أضع الخطوط إلى جانب الأسطر إن طال التعبير الذى اجتذبنى . ربما سجلت ملاحظات تعيننى ـ فى قراءة تالية ـ على فهم المعنى الذى توصلت إليه . ربما اكتفيت بالقراءة السريعة أو بالتصفح ، لكن دواوين الشعر والروايات والمجموعات القصصية تشدنى ، فأطيل القراءة ، أستعيد الفقرات والتعبيرات والمواقف ، أشعر أنها دنياى المفضلة .

مع أن أبى كان قارئاً جيداً ، فإنه كان يرفض أن أقرأ ما لا يتصل بالمواد الدراسية . يخشى أن تشغلنى عنها كتب أجدها في مكتبته للمنفلوطي وطه حسين والعقاد والمازنى وفائق الجوهرى وغيرهم .

صدر أول أعداد الرسالة فى ١٩٣٣ ، وصدر عددها الأخير يوم الاثنين ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . رغم صغر سنى - نسبياً - آنذاك ، فإنى أذكر مقال طه حسين ذى العنوان المفعم بالدلالات ، عقب إغلاق الرسالة أبوابها نهائياً . وأذكر مقال الزيات الذى يفيض شجناً وحسرة «وأى بأس»؟. وقد نشر المقالان فى الأهرام ، أهم ما كان أبى يحرص على اقتنائه - بالإضافة إلى " المصرى " - من الصحف اليومية .

وعلى الرغم من أن سلسلة روايات الهلال قصرت إصداراتها من الروايات العالمية على الملخصات، فإنها أتاحت لى آفاقاً غير محدودة من الوعى، وملامسة الخيال الجميل . كانت هى المدخل الحقيقى لقراءة الروايات الكاملة، أدت الدور نفسه الذى قامت به مسامرات عمر عبد العزيز أمين وكتاب حلمى مراد.

كنت أقف ـ أحياناً ـ على باب الحجرة ، أو أجلس على الأرض بين أصحاب أبى ، يتناثرون على الكنبة وكراسى المائدة المنقولة من الصالة ، يخوضون في مناقشات عن الجو ومواعيد النوات وغلاء الأسعار ومباريات كرة القدم وحزب الأغلبية وأحزاب الأقلية والملك وأفعال اليهود فى فلسطين . ألتقط ما يسهل فهمه ، وأحاول ـ بيني وبين نفسى فهم ما قد يكون غامضاً .

أذكر ـ على سبيل المثال ـ أنى لم أكن أعرف الفرق بين روسيا وسوريا ، وأنطق القدس بفتحة على القاف ، والحمل بسكون على الميم ، لكنني ـ على نحو ما ـ كنت أعى الأسماء والأحداث والتطورات ، والصلات بينها ، ولماذا يؤيد أبى وأصدقاؤه هذا التصرف من هذا الزعيم السياسى ، وينتقدون التصرف نفسه من زعيم آخر ، والمأساة التى تهدد بابتلاع أرض فلسطين ، وهجمات البدو على قوافل الحجاج المتجهة إلى الحجاز ، والفرق بين أداء الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت ، ومعنى فوز فريق كرة السلة المصرى ببطولة أوروبا ، ويجيبون عن السؤال : ما صحة الشائعة التى تذهب إلى أن محمود شكوكو يتقاضى مبلغاً شهرياً من

إسماعيل يس حتى يتيح الأول للثانى فرصة العمل فى ظل انتشار شكوكو المفاجئ ، الكاسح ، حتى بيعت تماثيل حلوى فى هيئته على عربات اليد ، شكوكو بتعريفة !

كنت أتجاسر ، فلا أكتفى بالسؤال ، وإنما أحاول التعبير عن رأى فى المناقشات المحتدمة . يكتفى أبى بدلائل إعجاب صامتة ، ويثنى أصدقاء له على وجهة نظرى ، ويرى آخرون أن المشاركة بالسماع هى الدور الذى يجب ألا أجاوزه .

إذا كان أبى خارج البيت فإن جلساتنا فى الحجرة تطول، نتشغل بالكلام والمذاكرة والقراءة وتناول الطعام ، وننام ـ أحياناً ـ متجاورين على المكتبة العريضة .

أجمل المشاهد حركة القوارب فى الميناء الشرقية لصيد المياس ، صيد العصارى . ظنى أن التسمية لأن الصيد فى ذلك الوقت من النهار . وسيلة الصيد الوحيدة ـ كما كنت أراها ـ هى الطراحة ، يقذف بها الصياد من فوق قاربه الصغير ، فى دائرة صغيرة ، ثم يسحبها بما يكون داخلها من سمك المياس . بالمناسبة ، فإن السمك ليس من أكلاتى المفضلة . أستبدل بالسمك المشوى أو المقلى الذى تعده أمى ، طبق فول بالزيت ـ بمليمين ـ من الطنطاوى فى شارع التتويج

.. لكننى أحببت المياس ، منذ أوقات صيده حتى تحوله إلى طبق شهى بين طبقات من شرائح البطاطس .

أذكر أني كنت أتساءل : كيف يعيش أبناء المدن الداخلية في مصر دون أن يشاهدوا البحر ، بل كيف يعيش سكان أحياء الإسكندرية البعيدة عن البحر (وهي - في الحقيقة - أحياء قليلة) دون أن يكون البحر في مرمى أنظارهم .

البحر ، الأفق ، البرتقالة الهائلة التى تغوص فى البحر ، دائرة من الألوان المتداخلة ، وإن غلبت الحمرة ، تشحب وتتقلص ، وتغيب ، فتحل الظلمة ، يأتى الليل ، وتتجه عيناك إلى حيث القمر ، يواصل رحلة النهار والليل .

●●●

.. رحلت أمى ، ثم لحق بها أبى . اختزلنا الشقة فى حجرة القعاد ، لا نكاد نتركها . ظل كل شيء فى مكانه ، وإن وضعت مكتباً صغيراً إلى جوار الكنبة ، ووضعت فوقه ما يهمنى من مكتبة أبى ، وقصرت أوقات القراءة والكتابة فوقه . صار تنقلي فى حرية بين الشرفتين . وحين تناوشتنى رغبات المراهقة ، أكثرت من التطلع إلى ما بداخل الشقق المواجهة ، وإلى عابرات الطريق ، ربما تمازج الخيال واليد الصاخبة فى صنع النشوة .

لم أكن أعرف أن الفعلة التى ألتذ بها هي العادة السرية ، لم أحاول حتى أن أربط بينها وبين ما قرأته لفائق الجوهرى في مكتبة أبى عن العادة السرية . ثم قرأت ـ في صحيفة الحائط بمدرسة الإسكندرية الثانوية ـ حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) يحذر فيه من يمارس الاستمناء بأنه سيدخل النار ويده حبلى .

سألت ، ففطنت إلى أني ـ إن لم أتب حالاً ـ فسأكون أحد هؤلاء الذين يدخلون النار بأيديهم الحبلى !..

كنت أطل من شرفة حجرة القعاد ، البحر يمتد بلا أفق ، وخيالاتي تمتد في الأفق اللا محدود كذلك ، يساعدني على الاختلاء بنفسي أني كنت أدّعي التفرغ للمذاكرة ، وأغلق باب الحجرة من الداخل ، وأواجه البحر ، وخيالاتي، لحظات . تختلف عن كل ما عشته من قبل.

بدت لي عالماً غريباً، حافلاً بالرؤى والأخيلة والأسرار المتجددة.

كانت وقفتنا تطول وراء الشرفة في متابعتنا للمناسبات الدينية : صلاة الجمعة التى تجتذب خطب الشيخ عبد الحفيظ

ناسبها ، يمتلئ بهم ميدان الخمس فوانيس أسفل البيت ، ويمتد الحصير إلى عمق الشوارع الجانبية ، صلاة العيد ، سوق العيد ، الجلوات القادمة من مولد أبو العباس ، مواكب الطرق الصوفية بالبيارق والأعلام والدفوف والطبول والرفاعية والحواة والمنشدين ، استقبالات الزعماء والرجال المهمين من باب رقم واحد عبر شارع أبو وردة ، وشارعى رأس التين وفرنسا وميدان المنشية وشارع شريف ، إلى ميدان محطة الإسكندرية .

أدركت ـ فى لحظة لا أذكرها ـ أن الحجرة هى صلتى الحقيقية بالعالم الخارجى . أطل منها على الجيران فى البيوت المقابلة والجانبية ، وعلى أحوال البحر فى تقلباتها المختلفة ، والباعة أمام الدكاكين ، وعلى الأرصفة ، وحركة الطريق . اختزلت العالم فى مساحة الحجرة المحددة ، والمحدودة . أشاهد ، وأستمع ، وأتأمل ، وأقرأ ، وأكتب ، وأمنى النفس بمصادقة المستحيل .

حجرة القعاد شخصية رئيسة فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية . رواية " صيد العصارى " ـ على سبيل المثال ـ التى استعدت فيها الصلة بين البحر وبينى . أطل من

الشرفة ـ في أوقات العصر ـ على قوارب الصيد الصغيرة ، وهي تصيد المياس .

لماذا وقت العصر ؟ ولماذا سمي المياس صيد العصارى ؟

لم يشغلني المعنى ، وإن خلّفت في وجداني تلك العلاقة المحددة بوقت محدد ، تأثيرات يصعب إهمالها ، وانعكست ـ في كتاباتي ـ على العديد من الشخصيات والمواقف والأحداث .

●●●

بعد أن تركت البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى ، تبينت ـ آسفاً ـ غياب صورة واحدة لي في أودة القعاد ، وفي الشقة جميعاً . ليس إلا صورة واحدة التقطها مصور أتى به أبي . وقفت إلى جانب سميرة وعلى في جانب الطريق ، أمام البيت ، من حولنا جيران ومارة

تمنيت لو أني صحبت معي إلى القاهرة صورة لي في داخل الشقة ، أعود إليها فأتذكر أجمل سني العمر .

رباعية بحرى:
.. تجربة شخصية

إذا الإنسان طاف حول الإسكندرية في الصباح
فإن الله سوف يصنع له تاجا ذهبيا
مرصعا باللآلئ
ومعطرا بالمسك والكافور
يشع الضوء شرقا وغربا
«ابن دقماق»

بداية ، أنا لم أكتب عن البحر ، ولا عن الصلة بين البحر واليابسة ، وهو ما يبين فى الكثير من إبداعاتى الروائية والقصصية . لم أكتب لطرافة الموضوع ، وإنما لأنه لم يكن بمقدورى سوى الكتابة عن البحر . لم يكن فى صلتى بالبحر أول مرة ، لأنى ولدت ، ونشأت ، على شاطئه . البحر يحتضن

الإسكندرية من معظم جوانبها ، ويحيط بحى بحرى من ثلاث جهات ، كان هو المكان الذى تطل عليه شرفة بيتنا ، ويطل السطح على امتداد آفاقه . كنت أسير على شاطئه ، وأتابع التعامل اليومى معه فى صيد السنارة والطراحة والجرافة ، وعمليات الشحن فى الميناء الغربية ، وركوب البحر نفسه فى قوارب صغيرة تعبر المسافة من باب واحد إلى باب رقم ستة، أو فى لنشات تمضى إلى قرب البوغاز . حتى فى الظلام ، كنت أستمع إلى البحر ، وإن كنت لا أراه . أتذكر قول رامبو: إنه البحر وقد رحل مع الشمس .

البحر ليس موضعاً طارئاً فى حياتى . إنه الحياة نفسها - والموت أيضاً ، كما سأحدثك حالاً - وعلى الرغم من انقضاء عشرات الأعوام على ابتعادى - بصورة عملية - عن الإسكندرية ، فإنى أفضل - حتى الآن - أن تدور أحداث أعمالى فى بحرى ، لأنى أشعر أن الحى تحت تصرفى . أعرف تاريخه وأسواقه وشوارعه ومساجده وبناياته وسلوكيات حياته اليومية . أعرف المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد . حتى مسميات الأشياء واللهجة هى وسيلة التعبير

عندى . حتى مستطيلات البازلت التى تتفق فيها مع المدن الساحلية الأخرى ..

البحر عند الشخصيات الأدبية بعامة ، مبعث للتأمل الرومانسى ، ولقضاء إجازة الصيف . البحر عند شخصياتى مصدر للرزق . يحصلون على قوت أيامهم بالعمل فيه ، والإفادة من تنوع خيراته ، وتشقيهم أحواله من نوات وعواصف ورياح ، حتى أنه يختطف البحارة والصيادين - أحياناً - من فوق بلانساتهم (البلانس هو سفينة الصيد الكبيرة) ويغيبهم فى أعماقه ، ويعطى الموروث الشعبى تأثيراته التى تدين - غالباً - للخرافة . البحر مرادف للحياة بعامة فى الأعمال الإبداعية ، فهو يتسربل بالسحر والخرافة والأسطورة . أما البحر فى أعمالى ، فهو مرادف للحياة والموت فى آن . قد يكون حصيرة - بلغة أهل الإسكندرية ، فيتاح ركوبه ، والحصول على الرزق من أعماقه . وقد يعانى النوات والعواصف والرياح ، فتنعكس معاناته على من يركبونه ، أو يقفون على شاطئه ، بحثاً عن الرزق . ولعلى أذكر قول سان جون بيرس : «ليكن مشهد البحر دافعاً لوعود بأعمال جديدة ، أعمال حية وجميلة ، لا تكون إلا جميلة وحية،

أعمال متمردة مندفعة ، تخلق لنا - من جديد - طموح الحياة الإنسانية» .

●●●

كنت أتحدث فى المركز الثقافى الإيطالى عن الإسكندرية ، وحى بحرى بخاصة . لاحظت - بدا لى الأمر كأنى أكتشفه للمرة الأولى ! - أن أبناء بحرى ينتمون إلى الطبقات ما بين الدنيا ، وما فوق المتوسطة ، فهم يعملون فى صناعة المراكب والصيد وبيع السمك وأعمال البحر وشركات التصدير والاستيراد ، وهم حرفيون وتجار ومهنيون .. لكن أصحاب رءوس الأموال الكبرى - وكبار الاقتصاديين بعامة - يفضلون السكنى فى منطقة الرمل . لذلك فإن بحرى يخلو إلا من قصرين متقابلين ، أحدهما سراى رأس التين الذى بناه الخديو إسماعيل فى أواسط القرن التاسع عشر ، وهو الآن أحد قصور الدولة . وفى مواجهته قصر آخر ، صغير ، للسيدة عصمت محسن حفيدة حسن باشا الإسكندرانى ، والتى كان يطلق عليها - لا أدرى من كان وراء التسمية - لقب أم البحرية . فيما عدا قصرى رأس التين وأم البحرية (أزيل القصر الثانى - فيما بعد - وشيدت فى موضعه بناية سكنية)

فإن ملامح بحرى المعمارية قوامها بيوت قصيرة ، متآكلة ، متلاصقة ، وبنايات متوسطة ، وما فوق المتوسطة . ثمة الأقل من البنايات الفاخرة ، لكن النسق المعمارى لحى بحرى ينتمى - فى معظمه - إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا ..

●●●

أحب كامى البحر ، ولا أعتقد أن أحداً من الأدباء الفرنسيين عبر عن مشاهد طبيعة البحر المتوسط مثل كامى . وثمة ملفيل فى عمله الضخم «موبى ديك» ، وجوزيف كونراد الذى اتخذ البحر موضوعاً للعديد من رواياته ، وأشهرها رائعته «قلب الظلام» .. وثمة من الأدباء العرب صالح مرسى وحنا مينا وغيرهم ..

وحى بحرى بالإسكندرية هو الأرضية لمعظم ما كتبت من إبداعات . وقد أردت فى رباعية بحرى بأجزائها : أبو العباس - ياقوت العرش - البوصيرى - على تمراز ، أن أكتب فصولاً مستقلة ، تتكامل فى تصوير حى بحرى الذى أحببته ، وامتداده الطبيعى إلى المكس ، أو إلى الرمل ..

قوام الرباعية هو الحنين إلى الماضى، إلى الزمان الماضى،

والمكان الماضى . الجو حافل بالأسطورة والصوفية والرموز والخوارق والتأملات الميتافيزيقية والتطلع والخنوع وطلب المدد..

أقدمت على الكتابة ، وفى داخلى أصداء من جسر على نهر درينا لإيفو أندريتش ، ذلك الجسر هو البطل فى رواية أندريتش . أزمعت أن يكون حى بحرى بالإسكندرية هو البطل فى الرباعية ، أن أكتب فصولاً مستقلة ، لوحات ، تصور الحياة فى الحى عقب الحرب العالمية الثانية . لا صلة بين الكثير من اللوحات ، فلا يكاد القارئ يتبين ما يربط بينها . عنيت بالوحدة الداخلية ، سواء على مستوى المكان ، أو الشخصيات ، أو الجو العام ، بحيث تتكامل الفصول ـ أو اللوحات ـ فى بناء روائى يهبنا لوحة متسعة الأبعاد والتفصيلات لهذا الحى الذى عشت فيه طفولتى وصباى وشبابى الباكر . ومازلت أحيا فيه ـ رغم البعد ـ ويحيا فىّ ، حتى الآن .

حين بدأت فى كتابة أجزاء رباعية بحرى ، كان همى أن أصف الأشخاص القريبين منى ، والذين ألفت رؤيتهم فى جوامع بحرى وميادينه وشوارعه وأزقته ، وصيادى الجرافة

بين الكورنيش وشاطئ البحر ، والأماكن المرتبطة فى وجدانى بذكريات باقية . ولعلى أعترف أنى حاولت أن أضمّن الرواية - فى سياق السرد - الكثير من المعارف البحرية (اكتشفت - وأنا أراجع البوصيرى - أنى كررت اسمى لوحتين كتبتهما فى ياقوت العرش . فكرت فى استبدالهما ، لكننى شعرت أنه من الصعب أن أختار غيرهما للوحتى البوصيرى).

الرباعية فصول مستقلة ، فى أجزاء منفصلة ، لكن الفصول ، والأجزاء ، متصلة بشكل وثيق . إنها تمثل - فى مشهدها الكلى - صورة للحياة فى بحرى ، فى الفترة ما بين نهايات الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة يوليو . ولأن بعض الفصول جاء ت أقرب إلى القصة القصيرة ، فقد نشرها «الأهرام» باعتبارها كذلك .

أضيف أنه لم يكن وارداً حتى مجرد الإفادة من التجربة المحفوظية فى ثلاثية بين القصرين . قرأت أجزاء الثلاثية ، فأحببتها ، وهى - حتى الآن - من أهم الإبداعات " العالمية " التى تمثل امتداداً أشد تفوقاً لإبداعات بلزاك وزولا وستندال وغيرهم من روائيى الواقعية الطبيعية . بحرى فى روايتى هو البطل ، السيد . أما ثلاثية محفوظ فإن المكان يظل فى خلفية

المشهد الذى يمثل تكويناته أفراد أسرة أحمد عبد الجواد ، بداية بالأبوين ، وانتهاء بالحفدة ، مروراً بالأسر التى ارتبطت بها بالقرابة والمصاهرة .

●●●

ما كدت أستعيد بعض الشخصيات التى تصورتها سدى روايتى ، حتى تبدى أمامى الحى بأكمله : الميادين ، الشوارع، الحوارى ، الأزقة ، المقاهى ، البنايات ، الأسواق ، الجوامع ، المقامات ، الأضرحة ، الزوايا . استعدت بحرى الذى فارقته ، وإن لم يفارقنى ، الجزئيات والمنمنمات والتفصيلات ، ما غاب عن الذاكرة فتصورت أنى نسيته ، تشوش ـ للأسف ـ بزياراتى المتقاربة أو المتباعدة إلى الحى ، عمليات الهدم والبناء والمحو والتعديل . حين بدأت الكتابة ، وتركت العمل يكتب نفسه ـ عادة ألفتها ـ قوضت الملامح القديمة ما طرأ على الحياة ، كأنها لم تتأثر بما لحقها من تبديل . حتى الشخصيات التى رحلت منذ سنوات بعيدة ، نفضت عنها غبار النسيان ، وعادت إلى الأوراق تتحرك ، وتتكلم ، وتفعل الخير والشر ، وتقدم على الخطر ، وتؤثر السلامة ، تشكل مشهداً بانورامياً ، فرضت ظروف النشر

تقسيمه إلى أربعة أجزاء .

أنسية ليست مومساً على أى نحو ، ليست حتى مومساً فاضلة ، وليست - بلغة علم الاجتماع - ضحية بريئة ، لكنها فتاة من الطبقة الأدنى ، واجهت مأزقاً صعباً ، بذلت أعواماً من حياتها للتغلب عليه . وعندما تصورت أن ذلك ما حدث ، واجهت مأزقاً أشد قسوة ، وهو أنها قد تعود إلى ما كانت فيه لو لم تنجب ، لو لم تهب الرجل مطلبه فى الولد والامتداد والخلود . وقد تطلع سيد الفران إلى الولد والامتداد لأنه - على حد تعبيره - كان مقطوعاً من شجرة . وربما لامس المرء الوهم للخلاص من الواقع ، كما فعل حمدى رخا . وحين يعجز المرء عن مواجهة الخطر أو الظالم ، فإنه قد يلجأ إلى قوة عليا يجد فيها الحماية والأمان ، وهى الصوفية . وهو ما فعله على الراكشى عندما أجاد الحاج قنديل حصاره ، فوجد الملاذ فى كلمات يوسف بدوى ، وفى قراءة كتب الصوفية وممارسة طقوسها . وحين ضاقت السبل بجابر برغوت ، فإنه لجأ للسفر إلى القاهرة ، يضع بين أيدى سادة الديوان الذى ترأسه السيدة زينب مشكلات الناس وما يعانون . وكما يقول ايفانز ريتشارد فإن «مواجهة الإنسان للأزمات والكوارث

يؤدى إلى شعوره بالخوف والقلق ، وأنه لا يستطيع أن يسيطر على مشاعره ، ويقضى على يأسه ، إلاّ عن طريق تكوين الشعائر الدينية» . واللافت أن عدد أعضاء الطرق الصوفية فى مصر قد تزايد بعد نكسة ١٩٦٧ بنسبة ٢٥٪ (البناء الاجتماعى للطريقة الشاذلية فى مصر ـ فاروق أحمد مصطفى ـ ١٩٨٠) . ولاشك أن الصوفية والأولياء والموالد والأذكار وغيرها من المظاهر الدينية أبعاد ثابتة فى حى بحرى . ثمة أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش وكظمان ونصر الدين وعشرات من الأولياء الذين يحظى بحرى بوجود أضرحتهم ومقاماتهم ، وبملايين المريدين والزوار من طالبى البركة والمكاشفة والنصفة والمدد . ويربط حسن الساعاتى بين وجود عدد كبير من المساجد فى بحرى وبين استقرار الحياة فى الحى ، وزيادة كثافته السكانية ، لأن أضرحة الأولياء تكون مراكز جذب للسكان ، باعتبار أن الأهالى ينزلونهم من أنفسهم منزلة عظيمة ، لأنهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكان ذلك ما حدث فى رائعة يحيى حقى قنديل أم هاشم ، حين حرص الجد ـ محسوب السيدة زينب ـ على الإقامة بجوار مسجدها . سيدى

الأنفوشي له - في قلعة قايتباي ، في الطرف الشمالي لمدخل الميناء الشرقية - مسجد وضريح ومقام ، لكنه - دوناً عن جميع الأولياء - بلا أتباع ولا مريدين ، بلا دعوات وابتهالات وتهدجات واحتفالات مولد ونذور وأذكار . حياته لا يذكرها أحد : من هو ؟ أصله ؟ فصله ؟ كراماته ؟ سيرته ؟ . الرواية - أصلاً - غير مؤكدة . ربما الأنفوشي حقيقة ، وربما رفاته في الضريح الذي يتوسط فناء مدرسة البوصيري الإلزامية بالموازيني . لكن مسجد قايتباي الصغير بلا اسم - معلن - لولي . ثمة رأى أن اسم الأنفوشي هو «الكهنفوشي» ، وهو اسم فارسي لشيخ عجمي . والاسم موجود في كتاب «الضوء اللامع» للسخاوي . الهوية المجهولة حياة سيدي الأنفوشي . البداية منبعها الغموض ، مصبها الغموض كذلك ، وربما لم يكن في حياة الإسكندرية ولي بهذا الاسم . أبو العباس المرسي ، حارس الإسكندرية ، وسلطانها ، وكبير أوليائها ، وحبيب الغلابة والمنكسرين والمظلومين والتائبين ، والباحثين عن الذرية الصالحة والبرء من العلة والسقم . نسيج القصة رائق ، متماسك ، لا ينقص خيطاً : رحلة الزهد والتصوف من مرسيه إلى الإسكندرية : «فو الله ما رأيت العز إلا رفع الهمة

عن الخلق ، ولا السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين» . انتشار الدعوة ، تكاثر المريدين والأتباع . القسم بياقوت العرش لا يمتد إلى خواء ، وإنما يمتد إلى حياة طيبة، متكاملة . صديق المرسى ونديمه وصفيه وتلميذه . لم يكن يؤذن لأية صلاة إلا إذا تناهى الأذان من العرش الإلهى . بردة البوصيرى الشهيرة تحيط بصحن جامعه . على تمراز مجذوب ، وله كرامات ، لا يدرى أحد من أين جاء ، ولا كيف سارت حياته إلى الموت . حتى سيدى جابر الذى ترقد رفاته فى الجانب الآخر من المدينة ، له أصل ، وإن كان يصعب تحديده . اجتهادات تؤكد أنه الرحالة ابن جبير . اجتهادات مقابلة ، واثقة ، ترى أنه سيدى جابر الأنصارى . بل إن بعض هؤلاء الأولياء ترتبط مكاشفاته بالبحر . كان الشيخ على الصياد - على سبيل المثال - صياداً موفقاً . وكان يحب أن يخلو إلى نفسه بعيداً عن الناس حتى ألفته طيور البحر ، فكان يخاطبها بلسانها . وذات يوم أدركه المرض ، فتبارت الطيور فى إحضار الأعشاب الشافية من الجزر البعيدة عبر الأفق ، وراحت تنثرها بين يديه متوسلة إليه أن يجرب علاجه بها ، فقال لها : إذا كان قد حان أوان الشفاء ، فسأشفى

بدونها ، وإن لم يكن قد حان ، فما الفائدة ؟. وظل على مرضه حتى لفظ آخر أنفاسه عند الشاطئ . وبكته الطيور البحرية ، ودعت الله أن يجعل مثواه فى مملكتها ، فاحتضنته مياه البحر ، وصار الولى الوحيد الذى تغمر المياه ضريحه . ويحرم الصيادون على أنفسهم محاولة صيد آلاف الطيور التى تحج إلى حرم الضريح ..

●●●

ما أوجه الاتفاق - والاختلاف - بين رباعية الإسكندرية ورباعية بحرى ؟..

صدمنى السؤال فى البداية ، وربما تضايقت منه ، ثم ألفته بالمعاودة . أصارحك أنى تعمدت ألاّ أقرأ رباعية الإسكندرية حتى لا أقع فى شبهة تأثر - قرارى بكتابة رباعية بحرى يعود إلى مطالع حياتى الأدبية - وبالذات فى ضوء الحفاوة النقدية الواضحة ،التى اعتبرت رباعية داريل من أعظم إبداعات القرن العشرين .

ثم حاولت - بعد أن صدرت رباعية بحرى - أن أفتش عن جوانب الاتفاق والاختلاف ، لا كناقد ، فقد مللت التأكيد أنه

حتى فوزى بجائزة الدولة فى النقد لا يلغى تفهمى لقدراتى النقدية ، وأنى سأظل دوماً خارج أسوار النقد !

يقول جون قويلز: «إن المدن المنفتحة هى أمهات للمجتمعات المستنيرة ، ووجود مثل هذه المدن هام بشكل خاص للأدب . ولهذا فإننى أعتقد أننا نتعشق أوهامنا عنها ، ونغفر لها الكثير من خطاياها». يضيف فورستر: نحن حين نفعل ذلك مع الإسكندرية، فإننا لا نلام، لأنها النموذج الأصلى للكوزموبوليس وانصهار المتناقضات (الإسكندرية تاريخ ودليل ـ ١١)

واللافت أن كل المقيمين فى بنسيون ميرامار : ماريانا ، وعامر وجدى ، وطلبة مرزوق ، ومنصور باهى ، وحسنى علام، أقاموا فى البنسيون لهدف شخصى ، لا صلة له بالجماعة ولا مشكلاتها ، لا صلة له بما يجرى خارج البنسيون. دعك من زهرة، فهى قد جاء ت إلى البنسيون لتؤدى الدور الذى رسمه لها الفنان، أو رسمته لها تطورات الأحداث. إنها ضحية فى كل الأحوال. حتى بائع الصحف محمود أبو العباس ، اتخذ من الإسكندرية موضعاً للحصول

على مكاسب شخصية بطرق غير شريفة .

وإذا كانت صلة شخصيات ميرامار نجيب محفوظ بالإسكندرية هي صلة هامشية، حيث اختاروا الإقامة في الإسكندرية كمنفى ، لا تشغلهم حياة ناسها اليومية ، ولا مشكلاتهم . فالبنسيون بالنسبة لمن يقيمون فيه - على حد تعبير سيزا قاسم - مكان سلبي أقرب إلى محطة السكة الحديد ، حيث يتقابل - للحظات معدودات - المسافرون ، كل يلهث في طريقه (روايات عربية - روايات مقارنة - ١٦١) . إذا كان ذلك كذلك ، فإنه من الصعب إهمال التأثيرات الأجنبية في حياة الإسكندرية . وعلى سبيل المثال ، فإن يوم الأحد في الإسكندرية يختلف عن اليوم نفسه في بقية المدن المصرية . الشوارع خالية نسبياً ، والكثير من المتاجر يغلق أبوابه ، ذلك لأن التأثيرات الأجنبية التي تحققت من خلال «مواطنة» أعداد هائلة من الجاليات الأوروبية لم تندثر من المدينة بصورة كاملة بعد . لكن الصورة التي رسمها داريل في رباعية الإسكندرية - على حد تعبير صلاح عبد الصبور - تنتمي إلى داريل أكثر مما تنتمي إلى الإسكندرية «فالإسكندرية ليست هي مدينة هذه الحفنة من الأجانب

والمتمصرين ، وليس هي مخادع اللذة وأندية الشواذ والمغامرين ، بل هي مدينة ممتدة مليئة بالرجال والنساء الذين يصنعون الحياة ، ويأكلون العيش بعرق الجبين» (عالم القصة ـ العدد الرابع) ـ ويقول صديقي الكاتب المسرحي الكبير الفريد فرج ، إن انتباه داريل ـ قبل أن يكتب رباعية الإسكندرية كان متجها إلى مجتمع الأجانب والمتمصرين دون المصريين. المعنى نفسه يورده إدوار الخراط ، فإسكندرية داريل هي أسطورته الشخصية أولاً وأخيراً ، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية ، ومشاهد وأخيلة تخلقت في نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها ، بانحيازات رازحة وراسخة . داريل لم يعرف من الإسكندرية إلاّ سطحها الخارجي ، قشرتها السطحية : بيوت ومكاتب الديبلوماسيين والموظفين والملاك ، الفئة الفوقية من المتمصرين الذين لم يعرفوا من مصر سوى أنها البقرة الحلوب ، يطفون على عباب مدينة تمور بالحياة ، كالزبد أو الرغوة ، الشوارع والبيوت ـ والأحياء أحياناً ـ التي كانت محرّمة على أولاد البلد. ما كتبه عن الإسكندرية هو موقع أو حالات نفسية للأجانب ولأشباه المصريين ، أو مجرد استعارات وأقنعة

مصنوعة وزائفة للمصريين أو المتمصرين ، الذين لم يعرفوا من مصر إلاّ كيف يستغلونها . أما الوطنيون، فهم الخدم والبقايا وغيرهم ممن يحيون فى الهامش ، وينظر إليهم الكاتب بنفور ، وبعدم مبالاة فى الوقت نفسه (الأهرام ١٩٩٦/٧/١٦). ويضيف إبراهيم فتحى أن رباعية داريل «تموج بأنماط عجيبة من البشر لا تجد بينها وجهاً واحداً نتعاطف معه ، أو يعكس صورتنا الحقيقية . لقد كان داريل يصور الإسكندرية المستلقية فى حلمها الأزرق كأنها إحدى الزواحف القديمة ، يغمرها الضوء البرونزى الذى تلقيه البحيرة» (العالم الروائى عند نجيب محفوظ -) . لقد اختار داريل شخصياته كلها من جو الأقليات الوافدة إلى الإسكندرية : اليهود واليونان والإيطاليين والفرنسيين والأرمن والإنجليز وغيرهم ، ومع ذلك فإن اختياره اقتصر على فئة من الوافدين انغلقت على نفسها تماماً ، فهى تجد فى الإسكندرية مكاناً ، محل إقامة ، دون أن تحاول التفاعل معها كشعب أو كمدينة (أحمد بها الدين :أفكار معاصرة ـ ٢٤٢، ٢٤٣) . ولعل التعبير «ما قل ودل» يصدق على ما كتبه الكاتب الصحفى عمرو عبد السميع بأن معظم شخصيات رباعية

داريل من الأرمن والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من أبناء الجاليات ، وأن الرواية قد امتلأت بإساءات بالغة للمصرين ، وبدت مترعة بنظرة شديدة السوداوية للبلد ، ولقاطنيه ، واخترعت أحداثاً عجيبة عن معاونة الأقباط للعصابات الصهيونية فى فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨م (الأهرام ٢٠٠٦/٢/٢١).

وعموماً ، فإن داريل كتب عن الإسكندرية ، مستمداً من ثقافته لا من تجاربه ، ومن ثم فقد جعل الإسكندرية مدينة إغريقية أو متأغرقة !. إنها ـ على لسان كليا ـ تتراوح بين الوهم والحقيقة ، بين الواقع والصور الشعرية التى يثيرها اسمها بذاته فى الأعماق (كليا -١١).

ولعلنا نجد تعبيراً عن شخصية لورنس داريل، فى حديثه عن نفسه بأنه إنما يكتب «من أجل الشيكات التى تسد متطلبات الغاز والنور والتدفئة، إننى أكتب لأعيش».

●●●

والحق أنه من الصعب أن أجرى – شخصياً– مقارنة بين ما كتبته وما كتبه مبدعون آخرون ، لكن الذى أستطيع تأكيده أن الكتابة عن الإسكندرية ـ وبحرى تحديداً ـ حلمى القديم ،

الجميل ، الذى يرافق محاولاتى الإبداعية منذ بداياتها .
السؤال : لماذا ، لم أناقشه - بينى وبين نفسى - على الإطلاق ،
فقد كانت الكتابة عن حى الطفولة والنشأة والسمات المميزة
والبيئة التى تختلف عن مثيلاتها فى أحياء الإسكندرية
الاخرى .. كانت شيئاً أشبه بالقدر .. لكننى أملك - فيما أقدر
- طرح بعض الآراء التى تناولت رباعية داريل ، ثم أترك
للقارئ - قارئ أجزاء الرباعية وقارئ هذا المقال - أن يتعرف
إلى ما ينشده من أوجه الاتفاق والاختلاف ..

يقول الناقد الإنجليزى جلبرت فيلبس : " إن داريل يبذل
قدراً كبيراً من الطاقة فى رباعية الإسكندرية ، لكنها أقرب
تماماً إلى أن تكون طاقة ذهنية ، ناشئة من الذهن ، وموجهة
إليه ، ولا يمكن مقارنتها بذلك التعاطف الخيالى العميق
الواسع المدى الذى يميز القصة العظيمة فى أى عصر ،
والقيم الإنسانية فى رواياته هزيلة ومهتزة ، فالروايات توهم
بأنها تحلل الحب ، ولكن أين هذه الأمثلة للعلاقات الإنسانية
التى يمكن وحدها أن تدعم الدعوى وتؤيدها ؟.. إن المهارة
هنا مهارة ذهنية ، أو متعلقة بالسلوك الجنسى المطلق فى
الحب . إنه جنس فى الرأس إن صح التعبير (مجلة " نادى

القصة " ـ نوفمبر ١٩٧٠) .

في تقديم داريل لكتاب أ.م . فورستر " الإسكندرية تاريخ ودليل " يؤكد أن المدينة العريقة هوت إلى قاع النسيان بقدوم العرب " مع وصول عمرو بن العاص وفرسانه " . قدم داريل الإسكندرية المدينة ، التي لا هي باليونانية ولا السورية ولا المصرية ، لكنها خليط ، شيء مشترك من كل هؤلاء ، بل إن بعض شخصياته الأجنبية ـ ومعظم شخصيات الرواية من الأجانب ! ـ كانوا يجدون في فلسطين ملاذاً مرتقباً لليهود ، وللجاليات الأجنبية في مصر " لو استطاع اليهود أن يكسبوا حريتهم ، فإننا جميعاً سنكون في يسر وهناء . إنها أملنا الوحيد " (ماونت أوليف ـ ٢٥١) . لكن مدينتي هي الإسكندرية السكندرية ، الإسكندرية المصرية التي ينتمي أهلها إليها بتعاقب الأجداد ، وبالميلاد والطفولة والنشأة وأفق المستقبل .

نحن نجد الإسكندرية السكندرية ، الحقيقية ، في أعمال إدوار الخراط ومصطفى نصر ومحمد الصاوي ومحمد حافظ رجب وصالح مرسي وأحمد حميدة وإبراهيم عبد المجيد ورجب سعد السيد ومحمود عوض عبد العال وعبد الفتاح

مرسى ومنير عتيبة وحنان سعيد وعبد الفتاح رزق ومحمد عباس على وغيرهم . أنت تتعرف - فى أعمال هؤلاء الأدباء - إلى الإسكندرية الموظفين والصيادين وباعة السمك والتجار والحرفيين وفرق الصوفية والباعة السريحة وعمال الميناء وكتبة المحاكم ورواد المقاهى إلخ ..

وبالنسبة لى ، فقد وهبنى البحر رحابة الأفق . أرفض أن تقييد حركتى ولا آرائى ، ولا أن تحد انطلاق مخيلتى محظورات من أى نوع . أنا أكتب حتى ما قد يرفضه الرقيب في داخلي ، انعكاساً لمطالب الرقيب المجتمعى . لا يشغلنى إن وجد سبيله إلى النشر ، أم أودعته أدراج مكتبى . وما أكثر ما تحتفظ به هذه الأدراج من أوراق .

●●●

ينقل جبرا إبراهيم جبرا عن دبلوماسى من أوروبا الشرقية قوله : " كلما اقترب الإنسان من البحر المتوسط ، ازداد تشبثه بالحياة ، وكلما ابتعد عنه ، هان عليه الموت " . والحق أنه إذا كان البحر المتوسط صغيراً للغاية ، فإن عظمته وامتداد تاريخه - والقول للورانس داريل - يجعلاننا نتخيله أكبر مما هو عليه حقاً «بلثازار» . وقد تحققت العظمة وامتداد

التاريخ على أيدى هؤلاء الذين يحيون على سواحل المتوسط ، والسكندريون - كما تعلم - يحيون على سواحل المتوسط . أنا أحب البحر المتوسط لأنه البحر الذى تطل عليه الإسكندرية . أحب أفقه اللامتناهى . أقرأ عن مدنه وجزره وأسماكه . أقرأ حتى عن النفايات التى تقذف بها ناقلات البترول فى مياهه ، وعن التلوث البيئى ، والمستقبل المحفوف بالخطر ، وهو ما استفز الفنان - حسب اجتهادى الشخصى - فى روايتى «غواية الإسكندر».

يتحدث داريل عن الإسكندرية فى «جوستين» بأنها مدينة تم بناؤها كقلعة حصينة تصد طوفان السود الأفارقة ، لكن هؤلاء السود - بأقدامهم الناعمة - بدءوا فى التسرب إلى الأحياء الأوروبية . ولأن «المسلمين» تمكنوا من مقاليد الأمور، عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد صارت المدينة أقل شأناً عن ذى قبل . أعاد داريل النغمة التى عزفها - قبل عشرات الأعوام - مفكرون وكتاب أوروبيون ، وأنهم شعب من العبيد «لا توجد لديهم ذمة أو حياء بشرى» ، وأنهم «جنس بائس» (بيير سولية : مصر ولع فرنسى - ٢٢٠) . بل لقد وجد هؤلاء الكتاب فى البنية الهيكلية للمصريين ، تماثلاً مع البنية

الهيكلية للحيوانات التى تعيش معهم ! (المرجع السابق - ٢٢١) . وفى الصفحات الأولى من «جوستين» يصف داريل الإسكندرية بأنها قد أصبحت معذبة بالتراب ، وأنها صارت ملكاً للمتسولين ، وأنها «بركة من المياه الآسنة» و «مجرد مرحاض عمومى كبير» . مقولة رجل مخابرات استعمارى ، تحزنه الرؤية التى تستند إلى شواهد كثيرة ، بقرب غروب شمس الاحتلال الأجنبى ، لتصبح الإسكندرية - ومصر كلها - ملكاً لأبنائها ، وهو ما تحقق على المستويين العسكرى والمدنى، عقب العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ .

الإسكندرية البعيدة عن الأحياء الوطنية - فى رواية داريل - ليست مدينة مصرية ، لكنها مدينة متأغرقة ، هى ليست إسكندرية القرن العشرين ، ولكنها إسكندرية القرون الوسطى . فحين انهارت دولة الإسكندر المقدونى ، واقتسمها أتباعه ، ازدهرت عواصمهم الصغرى ، مثل انطاكية وإسكندرية وغيرهما من مدن الشرق الأوسط القديم . وكانت هذه المدن تحاول أن تتمسك بطابع سادتها الإغريقى ، وتحاول أن تتمثل الثقافة الإغريقية وتعيد بعثها فى أثواب جديدة ومظهر جديد . وحين انتشرت المسيحية فى هذه المدن

تصالحت المسيحية مع النزعة الإغريقية ، ومن ذلك كله ولدت نزعتان دافقتان قويتان ، كانت أولاهما عطاء مسيحياً في أصله ، مختلطاً بالوثنية القديمة ، وذلك هو فلسفة الأفلاطونية الجديدة التي ابتدعها إغريقي سكندري هو أفلوطين . وكانت ثانيتهما عطاء وثنياً في جوهره ، محتكاً بالمسيحية الناشئة ، وهي النزعة الحسية المسرفة ، حين تتوزع بين صبوات الجسد ، ثم تتلذذ بعد ذلك بالندم على الخطيئة . ومن استشراف الأفلاطونية الجديدة وتصوفها وإيمانها بالروح ، ومن إيمان الوثنية القديمة بالحس والشهوة والخطيئة ولدت الروح الهلنستية أو المحاكاة للهيلينية ، والمتأغرقة أو المحاكية للإغريقية . ولأن داريل كان يكتب عن الإسكندرية مستمداً من ثقافته لا من تجاربه ، فقد جعلها مدينة هلنسنية أو متأغرقة .. الإسكندرية - في تقدير لورنس - عاصمة أوروبا الآسيوية ، حيث تهيمن الفرنسية والإيطالية واليونانية على المشهد كله ، وكل شيء مصبوب في قالب أوروبي (مانت أوليف - ١٨١) . بل إن جوستين تتشابه مع الإسكندرية في أن لكل منهما نكهة قوية ، دون أن يكون لها شخصية حقيقية (جوستين - ١٥٤). يصف داريل إسكندرية الحرب العالمية الثانية بأنها عاصمة

أوروبا الآسيوية . إذا كانت القاهرة تصب حياتها كلها فى قالب مصرى ، حيث العربية هى لغة الجميع ، فإن الأحاديث فى الإسكندرية يهيمن عليها الفرنسية والإيطالية واليونانية «الجو المحيط هنا ، والسلوك الاجتماعى ، وكل شيء مختلف. إنه مصبوب فى قالب أوروبى ، حيث تعيش الإبل وأشجار النخيل وأهل البلد المتلفعون بالعباءات ، يعيشون فقط ، وعلى نحو ما ، كحاشية وضاءة ملونة . كخلفية وضاءة ملونة ، كخلفية قماشية لحياة مقسّمة إلى أصولها المختلفة» (مانت أوليف ـ ١٨١) . إنها «خمسة أجناس ، وخمس لغات ، ودستة من المذاهب : خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء . إلاّ أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليونانى الشعبى متميزاً فيما بينها» (جوستين ـ ١٢) . ويقول : «إن عقل مصر هو مجتمعها الأجنبى» (مانت أوليف ـ ١٣٠) . ويتحدث الراوى فى «كليا» عن نسيم الذى بدأ «المصريون» فى تجريده من ممتلكاته ، فانشغلت الإسكندرية كلها فى الدفاع عن عزيزها (كليا ـ ١٤٢) ، ومن الواضح أنه عنى بكل الإسكندرية ،الوافدين إليها من أبناء الجاليات الأجنبية . وإذا كان اليهود ـ فى ثنايا الرواية ـ

يتطلعون إلى أرض الميعاد ، فإن الأقباط يمثلون أقلية مستضعفة ومقهورة . الرواية تحفل بعبارات التكريس للعداء المختلق بين المسلمين والمسيحيين . والكاتب يرى أن الإسكندرية التي تبدو مسالمة في ظاهرها ، لم تكن ـ في الحقيقة ـ مكاناً مأموناً للمسيحيين» (جوستين ـ ١٦٩) . يقول على لسان قبطي مصري: «إننا الأخوة المسيحيين طابوركم ـ الأجانب ـ الخامس في مصر» (مانت أوليف ـ ١٤٣). ويتحدث عن حركة سرية ينظمها الأقباط للاستيلاء على الحكم، وتحرير البلاد من المسلمين ، تستعين في ذلك بتسليح البدو (مانت أوليف ـ ٢٧٥) .

عاش داريل في الإسكندرية فعلاً لوقت قليل خلال الحرب العالمية الثانية حين كان يعمل في المخابرات البريطانية، ولكن هذه الحياة المعزولة بطبيعتها، الضائعة في صمت التكتم والتآمر لم تتح له الفرصة لمعرفة الإسكندرية بناسها الخلص، ونبضها الصادق، فقد كان كل من يراهم فلولاً من المتمصرين والأجانب والمغامرين والجواسيس المزدوجين، وكل أولئك البشر حين ينتظم خيط فني لا يصنعون إلاّ عملاً وثنياً مليئاً بالخطيئة والندم مثل رباعية الإسكندرية» (مجلة «عالم القصة»

- العدد الرابع). يضيف أحمد بهاء الدين - وأعتذر لأني سأنقل نصاً مطولاً، لكنه مهم للغاية - أن داريل يرسم للإسكندرية صورة بنفسجية بديعة ، بكل ما فيها من تفصيلات وضواح وأسماء : محطة الرمل وشوارع سعد زغلول وصفية زغلول والسبع بنات والنبى دانيال وفندق سيسل ومطاعم المكس المطلة على البحر ورمال العجمى البيضاء ، ولكنه يرسم للمجتمع الوطنى صورة تنزف بالصديد ،لا يكاد المرء يعثر فى رواية على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف . كل البشر عنده تقريباً مشوهون من الداخل ، مستسلمون تماماً للضعف والنقائص بدون أية مقاومة أو صراع ، واستكمالاً لهذا الإحساس حشد الكاتب فى قصته عدداً لا مثيل له من ذوى العاهات : ليزا الجميلة الفاتنة عمياء ، وسميرة عذراء الإسكندرية بدون أنف ، نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين ، نسيم نفسه يفقد إحدى عينيه خلال الغارات ، وتنتهى القصة وهو بعين واحدة ، و «كليا» الرسامة تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة (أفكار معاصرة - ٢٤٨ : ٢٤٩) . وانطلاقاً من ذلك كله ، فإن أحمد بهاء الدين يعلن ثقته فى أن التاريخ الأدبى لن يضع داريل

فى مصاف الأدباء العظام ، لأن كاتب القصة العظيم ـ فى تقدير بهاء ـ لابد أن تكون فيه صفة مهمة جداً، وهى الإحساس بأنه يتعاطف مع الإنسانية الممثلة فى أبطال قصصه، كلهم، أو بعضهم. داريل لا يروى قصة الحياة، لكنه يروى فضيحتها ، وهو يحاول أن يدس فى نفس القارئ إحساساً بالشماتة لا بالعطف (المرجع السابق).

من ناحيتى ، فقد أدهشنى أن داريل جعل السيالة حياً للبغاء، وهو حى له عاداته وتقاليده ومعتقداته الدينية. برر داريل ذلك الخطأ المعيب فى حوار مع صديقى فتحى الإبيارى بأنه اقتبس «الصورة» من حى كلوت بك القاهرى!.. وكانت ميليسا فى رباعية داريل مومساً محترفة، فاضلة، ولم تكن أنسية ـ كما تعرف ـ كذلك. لم تكن أنسية مومساً، إنما هى فتاة مصرية عانت مأزقاً، وأمضت الكثير من سنى عمرها فى محاولة اجتيازه.

تبقى ملاحظة مهمة يجدر بى أن أشير إليها: إن رباعية بحرى تختلف عن رباعية داريل وميرامار نجيب محفوظ ورجل فتحى غانم الذى فقد ظله ، فى أن الفصول / اللوحات منفصلة ، متصلة ، وأن الرواية لا تتكرر عبر تعدد الأصوات ،

فالصوت واحد سواء أكان الراوى العليم ، أو الراوى المشارك، أو من خلال التداعي ، والمونولوج الداخلى . روايتى بوح الأسرار هي ما ينتسب - بالفعل - إلى تعدد الأصوات . الحادثة الواحدة يتعدد رواتها ، كل من وجهة نظره . لذلك فإنى أسمح لنفسى بأن أختلف مع صديقى الناقد شوقى بدر يوسف في أن رباعية بحرى تحتقي بالشكل نفسه الذى سبق أن ظهرت عليه رباعية داريل (الرافد - ديسمبر ٢٠٠١).

●●●

أصارحك أنى لم أفهم قول ا . م . فورستر إن السكندريين لم يكونوا أبداً مصريين حقيقيين (الإسكندرية تاريخ ودليل - ٤٨) . دعك من حكاية الموقع الفريد ، وغيرها من التعبيرات التى تحاول أن تنزع عن الإسكندرية صفتها الوطنية لا يخلو من دلالة وصف ا . م . فورستر الرياح الشمالية الباردة بأنها القديس - الولي - الحقيقي الحارس للإسكندرية . وبالتأكيد فإن أهل الإسكندرية - أو غالبيتهم - ليسوا امتداداً خالصاً لأبناء الإسكندرية القديمة . ثمة القادمون من الصعيد ومدن الدلتا . ومع اعتزازى بسكندريتى، وأنها كانت هى بداية تعرفى إلى كلمة وطن ،

فإنه من الصعب أن أهمل انتماء أبي إلى عائلة من بركة غطاس بأبو حمص ، ومولد أمي في دمنهور.

كم حزنت عندما قرأت في الصحف عن بركة غطاس، باعتبارها من القرى المنسية في جغرافيا مصر. لم يشفع لها تصديها لقوات الفرنسيين، بحيث أقدموا على محوها من الخريطة، لتبني من جديد، ولا زكتها عمليات التطوير التي شملت مدينة دمنهور بخاصة، ومدن وقرى البحيرة بعامة. ظلت - فيما يبدو - على حال التخلف، حتى تذكرها مسئولو الميديا، والباحثون عن إنجازات تنسب إليهم، نظمت المواكب السياسية إليها. وجرى تطوير ما بها من منشآت البنية التحتية: المدارس ومكتب البريد والمساكن وغيرها، مما تباهى المسئولون بافتقاده قبل أن تمتد إليه أيديهم - أيدي الخير! - بالإصلاح والتعمير وإعادة البناء!

والحق أني - قبل نشر هذه الأنباء - لم أكن أعرف شيئاً عن أحوال بركة غطاس، صورتها الجميلة كونتها من أحاديث أبي التي تعود إلى أكثر من نصف قرن وانسقت وراء الصورة الجميلة، فجعلت عبدالله أفندي الكاشف بطل روايتي «البوصيري» رباعية بحري يحن للعودة إلى بركة غطاس،

وقضاء أيامه الأخيرة بين خضرتها وناسها الطيبين وهنائها!

●●●

أذكر قول صياد حلقة السمك في ثقة ، إن السكندرى الحقيقى أصله من رشيد. لا يخلو التعبير - بالطبع - من مبالغة، لكن المعنى الذى يهمنى إظهاره أن الكوزموباليتينية التى كانت لإسكندرية ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما إلى حرب ١٩٥٦، قد انتهت إلى أهلها الوطنيين أذكرك بروايتى الشاطئ الآخر . وأعداد كبيرة منهم ليست من مواليد المدينة، أو أن آباءهم ليسوا كذلك. الإسكندرية تكوين فى الجغرافية المصرية ، قطعة من الزمكانية المصرية. المواطن السكندرى هو ابن راقودة وفاروس والصعيد والدلتا والبحر والبادية. هو تلاقى ذلك كله، واختلاط ذلك كله. قال داريل إن الإسكندرية لن تتغير أبداً طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر فى دن من الدنان (كليا - ٧٧). وقد تغيرت الإسكندرية. نزحت الأجناس التى كانت تموج فيها، ولم يعد إلا أهلها.

بالتأكيد فإنى أنتمى إلى موطنى الإسكندرية ، وإلى وطنى مصر ، وإلى قوميتى فى امتداد الأقطار العربية بهمومها

ومشكلاتها وتطلعاتها ، وإلى انتمائي إلى المجتمع الإنساني في إطلاقه . ولعل فورستر يدحض رأيه الغريب في تأكيده - هو نفسه - بأن الأجانب لم يختلطوا بأبناء الإسكندرية الأصليين إلا نادراً ! (الإسكندرية تاريخ ودليل - ت . حسن بيومي - المجلس الأعلى للثقافة).

●●●

الصورة لي وأنا أضع ابنتي أمل على صدري ، ومياه حمام السباحة تصل إلى ما فوق ركبتي . أعتز بأني فزت بجائزة «السير» في الحمام . الحمام ليس جزءاً من قصر أو فندق أو فيلا ، لكنه جزء من شاطئ سان استيفانو ، شيدته إدارة الفندق المقام على الناحية المقابلة من الشاطئ ، يسبح فيه الأطفال ، فلا يواجهون خطر الغرق . هو حمام سباحة عادي ، لكنه أقيم داخل مساحة البحر ، على الرمال الموصلة بينه وبين اليابسة .

كانت تلك آخر قدراتي للسباحة في البحر ، وكانت ابنتي هي الحجة التي استندت إليها ، حتى أنزل حوض السباحة المخصص للصغار . نزعت ثياب الوقار ، وارتديت لباس الشاطئ ، وتكفل من لا أذكره بالتقاط هذه الصورة التي

تعكس فوزى بجائزة عبور ما بين ضفتى حمام السباحة !

أنا لم أسبح فى البحر أبداً . البحر الذى أعنيه هو الميناء الشرقية ، أو الأنفوشى ، أو أحد الشواطئ الممتدة حتى المنتزة ، معلومة أذكرها وأنا أعانى ارتباكاً حقيقياً . فليس من المتصور أن الكاتب الذى جعل من البحر شخصية رئيسة فى العديد من أعماله ، تقتصر صلته بالبحر على تأمل أحواله من الشاطئ .

عدم تعلم السباحة ، وعدم النزول إلى البحر أصلاً ، نتيجة من نتائج . قدت السيارة دون أن أقود الدراجة . لم أركب الدراجة يوماً ، ولم أمارس رياضات كثيرة مما يمارسه الأطفال رضوخاً لأوامر أمى . كانت تخشى علينا نسمة الهواء ، تجد فى لعبنا مع الأولاد فى الشارع الخلفى ما يكفى وزيادة ، تطل علينا من نافذة المطبخ على فترات متقاربة ، ثم تطمئن إلى أننا لم نخترق الأسوار غير المرئية ، المتمثلة فى تقاطعات الشارع الخلفى مع الشوارع الأخرى . هذه هى المساحة المتاحة للعب ، وقائمة الألعاب الخطرة تبدأ بركوب الدراجة " تقع على جدور رقبتك» ، وتنتهى بلعب الكرة «تيجى الكورة فى وشك تضيع لك عينيك» !. وكانت طفولتى الشقية

تتمرد - فى معظم الأحيان - على أوامر أمى الصارمة، وأخرج على النص ، بل إنى خضت - فى المساحة المحددة ، والمحدودة - مغامرات خطيرة ، منها - كما أشرت فى كتابى حكايات عن جزيرة فاروس - لعبة شكل للبيع التى أقفز فيها على عابر سبيل ، يسقط بالمفاجأة ، يواجه - فى اللحظة التالية - ضربات الأولاد بالعصى التى يحملونها !

لأن القراءة صارت تكويناً فى حياتى فى سن باكرة، فقد غابت عنى أهمية تعلم السباحة، واقتصرت صلتى بالبحر - فيما بعد - على مشاهدته فى وقفتى على الكورنيش الحجرى للمينا الشرقية وخليج الأنفوشى، أو فلوكة صغيرة داخل المينا الغربية.

لا أذكر أنى ارتديت لباس البحر، فضلاً عن السباحة فى مياهه. غاية اقترابى منه حيث أجلس على الشاطئ، أقرأ، وأحتفظ بثياب أخى وأصدقائه أثناء نزولهم المياه. إذا كان فى شخصية محمد قاضى البهار بضعة منى، فقد كان نزول الشاب البحر فعلاً روائياً، وليس حقيقة. أكتفى - هذا ما أفعله حتى الآن - بالجلوس على الشاطئ - تحت شمسية فى الأغلب

- لا أبدل القميص والبنطلون، أرقب البحر والحياة من حولى، وأتأمل، وأقرأ، ربما سجلت ملاحظات صغيرة فى الغلاف الذى أودع فيه الكتاب، فهو يغنى عن نوتة أو أوراق زائدة، ويحول دون اتساخ غلاف الكتاب من عرق اليدين.

لكن البحر ظل صديقاً مهماً، صيادوه وصناع سفنه وأمواجه وأفقه وقواربه وطيوره وأنواؤه، وما تشغى به أعماقه من حكايات مثيرة.

أحببت البحر مطلقاً، وحاولت أن أعبر عن هذا الحب فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية.

●●●

الإسكندرية - مثل كل مدن الساحل التى أتيح لى زيارتها - تنحدر فى اتجاه البحر. كانت تلك صورة الخرائط الأولى التى وضعها علماء البطالمة، ولم تتغير كثيراً عما كانت عليه. ثمة انحناءات والتواءات، لكن الصورة الكلية لقطع الشطرنج تظل قائمة، وانفراجات نهاياتها تفضى إلى البحر.

فى أى موضع فى بحرى تستطيع أن ترى البحر .

أقرأ تعبيراً مجازياً عن المدينة التى تستحم فى البحر. بحرى يستحم فى البحر فعلاً، شواطؤه تتداخل مع البحر،

تستحم، من جهات ثلاث، فهو شبه جزيرة تستحم فى البحر.
البحر عندى امتداد لليابسة، وبالتحديد هو امتداد لبحرى "الصيادين والحلقة والبحارة وعمال الميناء والجوامع وأضرحة الأولياء والمقاهى وحكايات الموروث الشعبى. البحر امتداد للبيئة الساحلية ، للأنشطة التى تعتمد على ركوب البحر والصيد. فضلاً عن رائحة الملح واليود والطحالب والأعشاب. الرائحة التى لا تخطئها أنفى حين أقترب من بحرى. تبدو كأصوات هامسة فى الميناء الشرقية، ثم تعلو الأصوات، وتتضوع الرائحة فى الاقتراب من امتداد الطريق إلى معهد الأحياء المائية وقلعة قايتباى، وانحناءة الطريق إلى الأنفوشى.

مفردات البحر هى: الأمواج، الرمال، الأسماك، الطيور، الصخور، الطحالب، الأعشاب، السماء، الشمس، القمر، النجوم، الأفق، السفن، الصيادون، البحارة، عمال الميناء، الموانى، البواغيز، الفنارات، الحاويات، الأوناش..

البحر مكان وزمان وأحداث وموروث وواقع يومى ودلالات. إنه الرزق والمغامرة والحرية والآفاق اللامتناهية والجمال والخوف والجو المتمايز، المعتدل، والنافذة التى تطل على العالم، تناقضاته هى تناقضات الحياة نفسها.

البحر في أعمالي كيان، شخصية، محور، مكان، سيد، يهب تأثيراته في البيئة من حوله، ويحرك الأحداث.

تحضرني ملاحظة ذكية أبداها أستاذنا علي الراعي حول مسرحية «مهاجر بريسبان» للكاتب اللبناني جورج شحادة. تقدير الراعي أن " الأدب العالمي كان يكسب كثيراً لو أن شحادة استخدم قدراته الكبيرة في ترجمة لبنان إلى العالم (الهلال ـ فبراير ١٩٦٩). تقدير الراعي كذلك أن «العالم محتاج إلى أن يتعرف على أجزائه الكثيرة المترامية. وهذه الحاجة ثقافية وفنية قبل أن تكون سياسية. فإذا جاء الممتازون من كتاب البلاد الصغيرة ـ أبادر فأنفي انتسابي إليهم ! ـ وكتبوا بلغة غير مميزة تسلكهم في أي عداد شئنا، فالخسارة خسارة الأدب العالمي مثلما هي خسارة الأدب المحلي» (المرجع السابق).

البحر عندي هو الموطن، هو بحري، والطفولة، والنشأة، والذكريات الملتصقة بلحم جسدي..

أتذكر قول فورستر ـ ثاني ! ـ «إن الطريقة المثلى لرؤية الإسكندرية هي أن تتجول فيها في هدوء، وبلا هدف». أواصل السير ـ الآن ـ في شوارع بحري وميادينه وحواريه

وأزقته . أتأمل البيوت والدكاكين والجوامع والزوايا والمقامات والأضرحة والمقاهي والأسواق والساحات . كل ما انطبع في ذاكرتي وألفت رؤيته ، تغير . اختلط بما لم يكن موجوداً ، أو اختفى .

●●●

أتمنى أن أظل أكتب ، وأكتب ، بينما نظراتي تتجه إلى البحر .

الموروث الشعبى
فى كتاباتى الروائية

نشأت فى بيئة تحض على عشق الموروث الشعبى . حى بحرى شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية . إلى اليمين الميناء الشرقى ، أو الميناء الشرقية فى تسمية السكندريين . وإلى اليسار الميناء الغربى ، أو الميناء الغربية ، وفى المواجهة خليج الأنفوشى ، ما بين انحناءة الطريق من نقطة الأنفوشى إلى سراى رأس التين ..

هذه البيئة تتميز بخصوصية مؤكدة ، فالبنية السكانية تتألف من العاملين فى مهنة الصيد وما يتصل بها ، ومن العاملين فى الميناء وصغار الموظفين وأعداد من الحرفيين والمترددين على الجوامع والزوايا والأضرحة ، فضلاً عن الآلاف من طلبة المعهد الدينى بالمسافرخانة ..

وإذا كان لبيئة البحر وما يتصل بها ، انعكاسها فى العديد من أعمالى الإبداعية ، فإن البيئة الروحية لها انعكاسها كذلك في تلك الأعمال ..

ثمة جوامع أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى ونصر الدين وعبد الرحمن بن هرمز وعلي تمراز ، وثمة أضرحة كظمان والسيدة رقية وكشك وعشرات غيرها من جوامع أولياء الله الصالحين ومساجدهم وزواياهم وأضرحتهم . وثمة الموالد وليالى الذكر والأهازيج والأسحار والتواشيح ، وليالى رمضان وتياترو فوزى منيب وسرادق أحمد المسيرى وتلاوة القرآن عقب صلاة التراويح في سراى رأس التين والتواحيش، واحتفالات الأعياد : سوق العيد وما يشتمل عليه من المراجيح وصندوق الدنيا والأراجوز والساحر والمرآة الكهربائية وألعاب النشان والقوة وركوب البنز والحنطور من ميدان المنشية إلى مدرسة إبراهيم الأول ، وتلاقى الأذان من المآذن المتقاربة ، والبخور والمجاذيب والمساليب ، والباحثين عن النصفة والبرء من العلل والمدد ، بالإضافة إلى المعتقدات والعادات والتقاليد التي تمثل - في مجموعها - موروثاً يحفل بالخصوصية والتميز ..

حين أراجع أعمالى الإبداعية بدءاً من قصتى القصيرة الأولى إلى الآن فإن تأثير ذلك كله يبين فى العديد من المواقف والشخصيات ، وفى تنامى الأحداث ..

بل إن مراجعتى لكتاباتى التى وظفت - أو استلهمت - الموروث الشعبى ، أجد أنها وليدة العفوية ومحاولة التعبير عن الواقع . هذا هو ما أفرزته تجربة الحياة والمشاهدة والقراءة والتعرف إلى الخبرات . لم أتعمد الإفادة من الموروث الشعبى، بل هو الذى فرض معطياته فى مجموع ما كتبت .

لقد وعيت على جلسات السمر ، أو الثرثرة ، فى بيتنا ، قوامها أفراد عائلة أمى أو أبى ، وأصدقاء أبى ، يتحدثون عن وقائع يوقنون بحدوثها ، عاشوها أو رواها آخرون ، لقاءات فى المقابر ، وفى الطرق الخالية والخرائب ، وربما على شاطئ البحر ، بأرواح وأطياف وأشباح ، وعفاريت تظهر فى هيئة إنسية ، وتتحول بعد صحبة خطوات فى الخلاء ، وأولياء خاطبوا قاصديهم من داخل مقاماتهم ، أو أضرحتهم .

بالطبع ، فإن ما وعيت عليه ، واستمر فى حياتى إلى الآن، ليس استثناء ، إنما هو يقين غالبية المصريين ، بصرف النظر عن مستوياتهم الاجتماعية والمعرفية .إنهم يؤمنون

بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم ، ومخاطبة الموتى ، والسحر ، ومعرفة الغيب ، والتنجيم ، والفأل ، والطيرة ، ووجود الجن والعفاريت والأشباح والأطياف .

ظنى أن ذلك كله قد انعكس فى العديد من أعمالى الروائية والقصصية ، تعبيراً عن الواقع ، وليس مجرد تقديم العجائبية والغرائبية . هذه هى حياة الشعب المصرى ، يخالط تدينه نزوع إلى الخرافة ، والإيمان بقوى خيِّرة وشريرة ، قد لا نراها ، لكنها تعيش فى صميم وجودنا .

الحكايات والحواديت ليست تزجية فراغ ، ولا هى لمجرد التسلية ، أو الرغبة فى الإدهاش ، لكنها تعبر عن معان حاضرة ، وتحاول التعبير عن معان غائبة . ما قد ينتسب إلى الخيال يتلقاه الوجدان الشعبى باعتباره حقيقة ، سواء من حيث الحكاية ، أو الدلالة التى نحاول - فى إطار من الفنية - تقديمها . إنه الخيال نفسه الذى أطال فى عمر عنترة ، فعاش مئات الأعوام ، حتى تظهر الدعوة المحمدية ، فيدرأ عنها خطر الأعداء . وثمة الظاهر بيبرس الذى غفر له الوجدان الشعبى إقدامه على فعل الخيانة ، فقتل قائده المنتصر ، وجد الناس فى إنجازاته العسكرية والسياسية والاجتماعية ما ينسيهم

فعل الخيانة التى يكرهها المصريون ! وجعلوا من بيبرس بطلاً قومياً . ومع أن عروس البحر تبدو - فى مدخل متحف الأحياء المائية - دميمة إطلاقاً ، مجرد كتلة غير متناسقة من اللحم ، فإن الوجدان الشعبى أقرب إلى تلقى حكايات الجسد الفارع، والشعر الذهبى المنسدل ، والعينين الزرقاوين ، والأغنيات التى تجتذب راكبى البحر ، تغوص بهم فى عوالمها السحرية .

●●●

الغريب أن بعض نقادنا ينكر أن تكون لإبداعاتنا صلة بالواقعية السحرية ، رغم أن معظم مبدعى الواقعية السحرية فى أمريكا اللاتينية أكدوا تأثرهم بحكايات ألف ليلة وليلة ، حتى أن الأرجنتينى بورخيس كان يضع كتاب الليالى فى الحقيبة التى ترافقه فى رحلاته .

وبالنسبة لى ، فأنا أبدأ الكتابة الإبداعية ، وأتمها ، فى ما يشبه الكتابة الآلية ، وإن كان من الصعب أن أنسب هذه الأعمال إلى السوريالية .

لعل الواقعية الروحية ، هى التسمية التى تصح على إبداعاتنا التى تنطلق من تمازج الواقعى واللاواقعى ،

الحقيقى وما يجنح إلى الخرافة ، ما نعيشه وأحلامنا . المكاشفات والكرامات ومخاطبة الموتى ، وغيرها مما قد لا يرتبط بالواقع ، أو حتى يرفضه العقل ، إنما هو عند الغالبية العظمى من المصريين جزء من حياتهم العادية . نجده فى حواديت الجدات ، وطقوس الموت ، والإيمان بالأرواح ، وبخوارق أولياء الله ، وهو ما تناولته بخاصة في رباعية بحرى وأهل البحر ، وتناولته بعامة فى الكثير من أعمالى الروائية والقصصية .

قد تعكس طقوس الموروث الشعبي ما يرفضه العقل ، لكنها تتحرك على أرضية من المعتقدات التي تبلغ - بدرجة كبيرة - حد اليقين . نحن نلجأ - على سبيل المثال - إلى أضرحة الأولياء ومقاماتهم ، سعياً لحل مشكلاتنا ، ولطلب النصفة والمدد . بل إننا ننسب إلى كل ولى كرامات محددة ، يختص بها لا أدرى من أوجد ذلك التقسيم ؟ فثمة من يعيد الأولاد التائهين ، ومن يبرئ المرضى ، ومن يعالج عقم المرأة . وثمة الديوان الذى يعقد ظهر كل خميس لتدارس المشكلات التى توضع في نذور أولياء الله ، ترأسه السيدة زينب ،

ويضم إلى عضويته السيد البدوى ، والرفاعى ، والدسوقى ، والشافعى الجيلانى فى روايات أخرى .

الوجدان الشعبى ، أو الضمير الجمعى ، هو الذى يهب الواقعية الروحية أبعادها . إنها موروث وتراث ، ننشأ على فهمه وتفهمه وممارسته : السير والتراجم والحكايات وقصص التاريخ والحواديت . الواقعية السحرية فعل الفنان . أما الواقعية الروحية فهى فعل الجماعة . إنها لا تستند إلى الخيال ، ولا تنطلق منه ، فهى المعنى الذى نؤمن به ، ونعيشه، ونمارسه ، باعتبار أن تلك هى حياتنا . الغرائبية - أو العجائبية - هى الإطار الذى تتحرك الواقعية السحرية فى إطاره ، إنها مضاهاة الواقع ، التوازى - أو لنقل التماهى - معه ، لكن تظل الواقعية السحرية تعبيراً عن مخيلة الفنان ، بعكس الواقعية الروحية التى تقارب اليقين الدينى ، والممارسات المجتمعية .

العالم الآخر ليس تخميناً ولا خيالاً ، إنه حقيقة ، يقين ، نؤمن بوجوده ، وبكل ما يحويه من تجليات . نحن نعيش اليقين الدينى ، والحياة الآخرة ، شفاعات أولياء الله ومكاشفاتهم وبركاتهم ، والصراط والحساب والعقاب والجنة

والنار . نثق أن أعزاءنا فارقونا بأجسادهم ، لكن أرواحهم تظل في حياتنا ، إن لم يكن أثناء الصحو ، ففي أثناء النوم .

وفي قصص القصار ، تتناثر لمحات من الموروث الشعبي، متمثلة في العديد من سلوكيات الحياة ، والمفردات ، والتعبيرات ، وغيرها مما يعبّر عن التميز الذى تتسم به منطقة بحرى في حدودها الجغرافية ، المحددة ، والمحدودة : الزى الوطنى ، الطب الشعبى ، ألعاب الأطفال وأغنياتهم ، نداءات الباعة ، الكناية ، النكتة ، المعايرة ، القَسَم ، الطرفة ، المثل ، الحلم ، وغيرها ..

●●●

رباعية بحرى ، عمل روائى من أربعة أجزاء : أبو العباس، ياقوت العرش ، البوصيرى ، على تمراز . تعرض للحياة في بحرى ، منذ أواخر الحرب العالمية الثانية إلى مطالع ثورة يوليو ١٩٥٢ . لوحات منفصلة من حيث تكامل اللحظة القصصية ، ومتصلة من حيث اتصال الأحداث ، وتناغم المواقف ، وتكرار الشخصيات ..

أنسية التى طالعتنا في بداية الجزء الأول من الرباعية ، هى أنسية التى انتهت بها أحداث الجزء الرابع والأخير . وما

بين البداية والنهاية نتعرف إلى دورة الحياة من ميلاد وطفولة وختان وخطبة وزواج وإنجاب وشيخوخة ووفاة ، فضلاً عن الحياة في المعهد الديني بالمسافرخانة ، وحلقة السمك ، وحياة الفتوات ، والعوالم ، وما يتسم به ذلك كله من اختلاف وتميز ، بقدر اختلاف البيئة وتميزها ..

على سبيل المثال ، فإن الحياة في البحر ، وصلة البحر واليابسة ، والمؤمنين بطهارة الماء ، وقدرة البحر على أعمال السحر ، والحكايات والمعتقدات عن عرائس البحر والعوالم الغريبة وكنوز الأعماق ، والخرافة ، والأسطورة ، والزى التقليدى ، والمواويل ، والأغنيات ، والأمثال ، والحكايات ، وخاتم سليمان ، والمهن المتصلة بمهنة الصيد كالصيد بالسنارة والطراحة والجرافة ، وأسرار الغوص في أعماق البحر ، وغزل الشباك ، وصناعة البلانسات والفلايك والدناجل وغيرها ، وركوب البحر ، وبيع الجملة في حلقة السمك ، وبائعي الشروات .. ذلك كله يتوضح في الشخصيات التي كانت الحياة في البحر مورد الرزق الأهم - أو الوحيد - لها ..

أما الروحية التي تمثل بعداً مهما في حي بحرى ، فهي تبين عن ملامحها في كثرة الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة ، ورفع أولياء الله عن الغلابة والمنكسرين ما يحيق بهم من ظلم ، وكرامات الأولياء من اطلاع على الكائنات ، وطي الأرض ، والسير على الماء ، والطيران في الهواء ، وإتيان بالثمار في غير أوانها ، وتحويل ماء البحر إلى ماء عذب ، وتواصل الكرامات حتى بعد أن يرحل الولي ، والمكاشفة التي تحققت على يد أبى الدرداء حين أنقذ الإسكندرية من طوربيد ألماني في غارات الحرب العالمية الثانية ، والخضر الذى يظهر للمراكب حين يهددها خطر النوات ، فينقذها ، وتجليات الصوفية في الإشارات والأسرار والرموز ، وارتقاء الدرجات من المريد إلى المقدم فالنقيب فالخليفة خاتمة الدرجات الروحية ، ودروس المغرب ، وتصورات مشاهد الجنة والنار ، والخوف من الجن والمردة والعفاريت ، وإيقاد الشموع على أضرحة الأولياء ، وتقديم النذور ، وكنس النساء للأرض بالملاءات ، أو التمرغ عليها ، يطلبن الخلفة والمصلحة والشفاعة والمدد ، والوصفات الشعبية، وأعمال السحر ، والتربيط ، والأعمال السفلية ،

والوسائل التى بلا حصر لعلاج الإجهاض ، أى سقوط الجنين قبل أن يكتمل نموه : وَصْفات غريبة ، وقاسية ، وتجارب لابد أن تخوضها المرأة الحامل لتحتفظ بالجنين ، ودلالات ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب ورياح وعواصف ونوات ومناطق وفرة - وجدب - السمك . الشمس تجاوز صفتها الظاهرة ، فتتحول إلى صديق للجد السخاوى ، يعرض عليها مشكلاته ، ويأخذ منها ويعطى ، وحين يحس بدنو الأجل فإنه يتطلع إليها ويخاطبها بما لم يتبينه أحد ..

وتطالعنا رواية «أهل البحر» بالكثير من الأخبار والوقائع والحكايات الأسطورية والخرافية ، والكثير من الموروث الشعبى . وكما أشرت فى مقدمة الرواية ، فإن بحرى يحتضن العشرات من الأضرحة والمقامات والمساجد والزوايا ، أسماؤها بأسماء أولياء الله الصالحين وأقطاب الصوفية .. مارس أبناؤه الحياة بصورها الرتيبة والمغايرة .. عرفوا الواقع والخيال والسحر ، وبركات أولياء الله ومكاشفاتهم .

وفى روايتى القصيرة «الصهبة» تناول لطقس شعبى ، تغلب عليه الأسطورة . المرأة المنقبة التى تخضع لمزاد وهمى ، من يرسو عليه ، يرفع عن وجهها النقاب ، فيتجدد أملها فى

الإنجاب . ويختلط الواقع بالحلم في أحداث الرواية ، فتغيب الملامح . لا يدرى إن زارته في الصحو أو في المنام ، ولا يبين ناس الصهبة عن هويتهم حتى يهمس صوت الأم وهي ترى ابنها ينزل درجات البيت إلى حيث يتجمعون : هل انجذب ؟!

أما روايتي زهرة الصباح فهي محاولة لتوظيف حكايات ألف ليلة وليلة في عمل أدبي حديث . زهرة الصباح هي الفتاة التي تلي شهرزاد في قائمة الفتيات اللائي ينتظرهن سيف «مسرور» . كانت تحيا في ظل الخوف من أن يمل شهريار ، أو تخفق شهرزاد في الحكي ، فيحل دورها . وحاول أبوها - وهو من المقربين إلى شهريار - أن يفيد من تلك الفترة في رواية الكثير من الحكايات والطرائف والنوادر والأخبار والعبر والنوادر والسير والمواويل ، تنصت إليها زهرة الصباح ، وتحفظها . تحيلها مخزوناً حكائياً ليعينها على مواصلة الحكي ..

كانت قدرة شهرزاد على استدعاء الحكايات ، أو اختراعها ، وروايتها ، هي وسيلتها للإبقاء على حياتها ، فهي إما أن تصل الحكايات ، كل حكاية بأخرى ، أو تموت . فإذا

نفـد مـا بحـوزتهـا من الحكايات ، أو فـقـدت القـدرة على الإدهاش، وفقد شـهريار بالتـالى فـعل المتـابعـة والدهشـة ، واصل السياف مسرور حلقات سلسلة الإعدام .. ذلك كله كان يعلمه عبد النبى المتبولى ، فشغل معظم وقته بتحويل ذاكرة زهرة الصباح إلى خزانة تستوعب كل ما استطاع حفظه فيها من الحكايات والحواديت والعظات والعبر ..

تضمن السرد الروائى الكثير من جوانب الموروث الإبداعى العربى . ضفّر فى نسيج العمل الروائى ، لا لانتساب الرواية إلى عـالم ألف ليلة وليلة باعتبـارها تراثاً إبداعياً فـحسب ، وإنما لأن أحداث الرواية تدور فى أجواء شعبية ، ففيما عدا الشخصيات الرئيسة القليلة ، فإن غالبية الشخصيات من الطبقات الأدنى والمهمشين ..

●●

نحن نسـتطيع التـعـرف إلى البـدايات الأولى للمـوروث الشـعـبى فى حـيـاتنا الآنيـة ، من خـلال توالى الإجـابة عن الأسـئلة الاثنين والأربعين التى أعـادت تقديم سـيـرة حـيـاة المواطن زاو مـخـو فى صـورتهـا الصـحـيـحـة ، فى روايتى اعـتـرافـات سـيـد القـرية . الإيمان بالخلود ، تقديم النذور

والقرابين ، الأدعية والرقى والتعاويذ ، العلاقات الأسرية ، السيرة ، الأسطورة ، الخرافة ، الحكاية الشعبية ، الخطابة ، الطرفة ، الطب التقليدى ، التيقن من القدرات العلاجية لشجرة الجميز ، الصفات الشعبية التى تشعل الشبق فى جسد الرجل ، وتسرى بالخصوبة فى جسد المرأة ، الموسيقا الوطنية ، إلخ ..

●●●

فى منطقة ما، يتداخل الموروث والتراث، المعتقدات والعادات والتقاليد والقراءات والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين، يتداخل ذلك كله، فيصنع ما يصعب تصنيفه بصورة محددة. وقد مثل صندوق الدنيا هذا التداخل فى مخيلتى، ولعله كان دافعاً - على نحو ما - لتوزع محاولاتى ما بين توظيف الموروث، كما فى «الصهبة»، وتوظيف التراث كما فى «زهرة الصباح»، فضلاً عن توظيف التاريخ كما فى «قلعة الجبل» و«اعترافات سيد القرية» و «الجودرية» و«من أوراق أبى الطيب المتنبى» و «ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» وغيرها.

كنت أجلس إلى جوار شقيقتى على الدكة الخشبية الصغيرة، نتلاصق بما يأذن لأعيننا كى تنظر - من وراء الستارة المهترئة - إلى توالى الصور الثابتة، يرافقها صوت الرجل، يذكر الأسماء: السفيرة عزيزة، أبو زيد الهلالى، الزناتى خليفة، ست الحسن، الشاطر حسن، إلخ.

لم تغادر الصور ذاكرتى، وكانت قصتى "سوق العيد" استدعاء لما كنت أشاهده فى صندوق الدنيا. تحركت الصور الثابتة، وصنعت حياة لها دلالاتها، وأفدت كذلك من الصندوق العجيب فى العديد من المحاولات الروائية والقصصية.

●●●

روايتى بوح الأسرار تحاول - من خلال معالجة فنية - أن تجيب عن السؤال: لماذا اختار الوجدان الشعبى هذه الشخصية أو تلك، ليضفى عليها من هالات القداسة والعظمة ما يجعل منها أحد أبطاله الشعبيين؟

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال - بصورة مطولة، تقترب من العلمية ما أمكن - فى كتاب لى هو "البطل فى الوجدان الشعبى المصرى" ناقشت فيه جوانب البطولة فى عدد من الشخصيات التى وضعها الوجدان الشعبى فى ذلك الإطار:

لماذا اختار عنترة من بين مئات الشعراء فى الجاهلية ؟ ولماذا اختار الظاهر بيبرس من بين حكام المماليك ؟ ولماذا اختار السيد البدوى من بين الكثير من أولياء الصوفية الذين نسبت إليهم مساجد وأضرحة ؟ ولماذا اختار على الزيبق وابن عروس وياسين ومتولى وأدهم الشرقاوى وغيرهم ؟..

التقيت المجرم محمد أبو عبده ، أو ابن بمبة فى قرية السمارة الواقعة على حدود الشرقية والدقهلية . بدا فى أحاديث الجميع شخصية أسطورية . كان أبناء القرية يتحدثون عنه بتوقير وحب ، فى حين حذرنى مأمور مركز السنبلاوين وعمدة القرية من محاولة التعرف إلى الرجل ، وأظهروا خشيتهم من أن يرفض لقائى ، أو لا يحسن استقبالى . لكن الرجل استقبلنى بحميمية مصرية ، ودعانى إلى تناول الغداء . وتأملت توسطه لحل مشكلات أبناء القرية ، ومساعدته لهم فى كل ما يطرأ على حياتهم . حتى الحريق الذى أشعلته شرارة حطب ظهر يوم الصيف الذى تصادف أنى زرته فيه ، أذهلنى تصدّيه لإطفائه رغم أعوام عمره المتقدمة ..

بدا لى الرجل وأنا أغادر القرية ، تجسيداً للبطل فى

الوجدان الشعبى - فى بالى الكثير مما استمعت إليه من الحكايات فى أعوام النشأة - : كيف يكتسب صفاته ، فيصبح - فى توالى الروايات والحكايات والمواويل والسير - ذلك البطل الذى تنسب إليه الأفعال الخارقة والمعجزات. روى الصديق رفعت السعيد فى ذكرياته - فيما بعد - عن تعرفه إلى ابن بمبة فى رحلة الاعتقال والسجن . بدا معجباً بالرجل ، وأشار إلى أنه - الرجل - قتل تسعة أشخاص ، لكن الرجل أكد لى أنه لم يجاوز التخويف ، ولم يقتل أحداً . تصورت ابن بمبة ذلك البطل فى عملية التحول داخل الوجدان الشعبى . ولجأت إلى تقنية تعدد الأصوات التى اختلفت رواياتها فى تصاعد درامى ، تتحول فيه شخصية فرج عبده زهران ، أو ابن شفيقة ، من شاب يحترف الإجرام إلى ولى له بركاته وكراماته ومكاشفاته، وضريحه الذى يقصده الناس لالتماس المدد ، والمولد السنوى ، وحفلات الذكر .. ما بواعث التحول ؟ وكيف؟ وما نتائجه ؟..

تباينت الروايات فى طفولة ابن شفيقة ، ونشأته ، والظروف التى أفضت إلى تحوله إلى بطل شعبى . بالتحديد إلى ولى صوفى . لكن الروايات لم تختلف فى أن فرج خليل

قد أصبح له ضريح ومقام وخليفة وتلامذة ومريدون ، يؤمنون بكراماته ، ويذكرون الله تعالى ..

وكما يقول الصديق الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي في دراسته لبوح الأسرار ، إنه إذا كانت أسطورة فرج قد مرت بمراحل ثلاث : مرحلة المظلوم ، ومرحلة الدافع للظلم الواقع على الناس ، إلى مرحلة المقدس ، فإنه ـ في المراحل الثلاث ـ كان مطارداً . مطارداً من عمدة ظالم ، ثم من قوة الإدارة المتحكمة في الجماعة ، ثم محاولة هذه القوة مطاردة أسطورته ، وحتى بعد موته ، فإن استخدام تعدد الأصوات جعل الأصوات المطاردة خافتة ، لترتفع الأصوات الواقفة مع فرج ساعة تكوّن أسطورته . إن الأسطورة هنا تمثل الواقع الاجتماعي للجماعة " .

أشير إلى العلاقة بين الموروث الصوفي والموروث الشعبي، المعتقدات والسلوكيات وأساليب العبادة . فالأتباع والمريدون ينسبون إلى من آمنوا بولايتهم ، كرامات ومكاشفات وخوارق، معظمها ينطلق من الخيال وليس من الواقع .

إنها حكايات متخيلة!

بانت سعاد

وعيت على البحر فى مواجهة بيتنا ، وفى إحاطته بالبيت - والحى كله - من ثلاث جهات . لا أذكر متى استمعت إلى الحكايات الأولى ، لكنها كانت فى سن باكرة للغاية ، أهمها ما كان يروى عن عروس - جنية - البحر ، واعتدت طيران النورس على امتداد الساحل ، والبلانسات ، والفلايك ، وعمليات الصيد بالسنارة والطراحة والجرافة ، وعسكرى السواحل ، وإيقاع جياد الملك فى جولتها الصباحية ، والمظاهرات ما بين سراى رأس التين وميدان المنشية ، وأهازيج السحر من مئذنة أبو العباس ، والموالد ، ومواكب الزفاف ، وشوارع السيالة المتشابكة ، الضيقة ، والحديقة الصغيرة أمام مستشفى الملكة نازلى ، ومرسى القوارب بالمينا الشرقية ، والرائحة التى لا تخطئها الأنف فى حلقة

السمك ، وزحام شارع الميدان ، وخطب الشيخ عبد الحفيظ في صلاة الجمعة ، ومواكب الصوفية ، والجلوات ، وسوق العيد .

كان ترامى صخب الجلوات يجذبنى إليها ، نقف - وإخوتى - وراء الشرفات باستدارة الشقة ، نتطلع إلى الجلوة القادمة من شارع الأباصيرى حتى ميدان الخمس فوانيس ، ندور معها فى شارع إسماعيل صبرى ، تلاحقها نظراتنا قبل أن تميل فى شارع الميدان .

حين بدأت ملامح الأمكنة في التغير ، حاولت أن أحتفظ في ذاكرتي بكل ما أخشى أن يلحقه التلاشى . كنت أخشى أن تبدد الأيام ما ألفت رؤيته ، والحياة فيه ، من مظاهر الحياة . ثمة ما لا تستطيع أن ترفضه ، وإن كنت تشعر أمامه بالفقد ، العمران الذى يزحف على البنايات القديمة والأزقة والساحات الخالية ، وعلى الذاكرة الإنسانية أيضاً .

أشعر - أحياناً - فى رحلاتى المتقاربة إلى بحرى ، أنه يبتعد عن معنى الحى الذى ولدت فيه ، وأمضيت أعوام الصبا والشباب الباكر . العالم الذى تركته كما أتذكره ، لكنه ليس هو على وجه التحديد ، المرئيات لم تعد هى نفسها . حدث ما

يصعب أن أدركه ، لكننى أشعر به . مع ذلك ، فإن التغير يبين فى ملامح كثيرة ، فى البنايات والشوارع والميادين والحياة فى الميناء الشرقية وشاطئ الأنفوشى . حتى الناس ليسوا هم الذين اعتدت لقاءاتهم . ثمة الكثير من ثوابت الملامح ، ليس فى بحرى وحده ، وإنما فى الإسكندرية جميعاً، لحقها الشحوب ، أو التلاشى ، فلا تربطنى بالملامح الآنية أية ذكريات .

فى قصتى القصيرة «حلاوة الوقت» يعود الراوى إلى بحرى ، إلى الأماكن التى شهدت طفولته ، ونشأته ، يروعه أن ما كان يعرفه واسعاً ، أو ضخماً ، قد ضاق أو صغر ، الشوارع ، مداخل البيوت ، الحجرات ، أضاف إلى التبدّل ما تهدم من بنايات قديمة ، وطلوع بنايات أخرى ، جديدة ، لها قسماتها المغايرة . ثمة مواضع كان لى فيها ذكريات شخصية ، زالت كأنها لم تكن .

حدثتك فى حكايات عن جزيرة فاروس عن فاطمة فتاة البيت المقابل ، هدمته وزارة الأوقاف التى يتبعها ، شيدت مكانه بناية أخرى حديثة ، رحلت فاطمة إلى حيث لا أدرى ، وحل فى البناية سكان آخرون إذا كانت السن قد تقدمت بى،

فلابد أنها فعلت الأمر نفسه - الآن - في الجميلة فاطمة . هل ما تزال تحمل بقية جمال ، أم أن الله تداركها برحمته ؟! .

هذا هو بحري ، لكن ما عشته يختلف عما أراه الآن ، أشعر به ، وإن لم أستطع تحديده تماماً .

مع ذلك ، فقد تغير الكثير : الشوارع والميادين والساحات والبنايات وسلوكيات الحياة اليومية ، بدأت البيوت القديمة ، الصغيرة، المتساندة، في الذوبان ، في التلاشي ، بيوت قديمة توشك على التهاوي ، وبيوت متهدمة ، أو تحولت إلى خرائب ، تداخلت بنايات الأسمنت المسلح في البنايات ذات الأسقف الخشبية ، شيدت عمارات عالية، ستة طوابق وأكثر، وإن ظلت غالبية الشوارع على ضيقها ، فعانت الزحام بما أملته الزيادة السكانية ، وتنامي أعداد الوافدين إلى الحي بالتالي . لم تعد الصورة على حالها في مساحات كثيرة ، وفي الشوارع الرئيسة والميادين بخاصة ، تعرض كل شيء للهدم وإعادة البناء والتحوير والتبدل ، وإن كنت لا أبرئ ذاكرتي . تتوالى الصور ، تتعاقب ، واضحة وشاحبة ، تتسع آفاقها وتضيق ، تبين الملامح والتفاصيل ، وتختفي تماماً .

أذكر ـ على سبيل المثال ـ ذلك الرجل الذى كان يجول الشوارع وهو ينادى : أبيّض النحاس !. أوعية الألمنيوم هى البديل الأرخص للأوعية المصنوعة من النحاس . وغاب الحاوى وصندوق الدنيا والأراجوز وسباق البنز وسباق القوارب وصيد السنارة والطراحة والجرافة ، والأبوحمدات ، والفتوات ، ولابسات الملاءة اللف والقبقاب ، وعسكرى السواحل ، وعفريت الليل ، والغازية حاملة الغلق ، ونافخ النار ، ومن يبتلعون النار فى الجلوة ، ويصلون أسياخ الحديد فى وجناتهم ، ويقرقشون قطع الزجاج ، ويتلهون بالحيات والثعابين ، والقرداتى الذى كان يدفع حيوانه الصغير إلى حركات وشقلباظات ، كأن يقلد نوم الأعزب ، أو يصنع العجين كما الفلاحة ، وربما حرضه على السرقة فى زحمة البلاهة المتفرجة . ومضت سنوات بعيدة على رؤيتى للغجرية ، تخترق الشوارع ، وترفع رأسها إلى النوافذ والشرفات ، وصوتها يعلو بالقول : أدق وأطاهر !. لم أعد ألتقى كذلك بالرجل المفتول العضلات ، يدعو الملتفين حوله لتقييده بحبل ، ويفك القيد لقاء وضع قروش فى طبق تحت قدميه . وكان أميز ما فى أوقات الربيع سباق البنز من رأس

التين إلى السلسلة . ألغته ظروف الزحام ، وربما الظروف الأمنية ، وهي الظروف نفسها التي ألغت العربات الصغيرة ، على نواصي الطرق الجانبية ، تتيح لمن يحتسي الشاي أن يرفع - بالثمن نفسه - ثقل الحديد ، أو يلعب تنس الطاولة . ظني أن تلك الأشياء لو ظلت قائمة ، فإنها كانت ستزيد فرص تقديم المتفوقين في الألعاب الأولمبية ، وغيرها .

●●●

دنيا الفتوات في أعمالي، استعادة لذكريات أبي عن فتوات الإسكندرية. شكلوا معلماً مهماً في حياة المدينة، أزعج الناس بما كانوا يفرضون من إتاوات وعمليات ابتزاز ومعارك شبه يومية بين فتوة حي ما ، وفتوة حي آخر، وتسيل الدماء ، وتدمر الممتلكات، ويدفع الثمن بعامة تجار المدينة وناسها العاديون، ويحيا الجميع في قلق دائم.

أثار الفتوات الذعر في بحري بمشاجراتهم التي لم تكن تنتهي بالسيوف والأسلحة البيضاء، وتتحطم بالتالي محال المنطقة والسيارات الواقفة على جوانب الطرق، فضلاً عن الخطر الذي يتهدد السكان والمارة.

لكن أفعال فتوات الإسكندرية امتدت - في أحيان كثيرة - إلى سلطة الاحتلال الإنجليزي، يترصدون لجنوده في شوارع المدينة، ويسرقون معسكراته. أذكر كالطيف - من طفولتي الباكرة - مجموعة من الفتوات قفز أحدهم في سيارة نقل لجنود الإنجليز تحمل كميات من الملابس، وقذف بها إلى زملائه الذين انطلقوا وراء السيارة، حتى نفد ما كان بها من ثياب.

كانت شرفة بيتنا ونوافذه الخلفية تطل على ميدان الخمس فوانيس وجامع سيدي علي تمراز . شهدت في الميدان آخر معارك فتوات بحري ، تطايرت فيها كراسي ، وتناطحت شوم ونبابيت ، وسالت دماء ، وسقط صرعى وجرحى ، وشال البوليس الباقين إلى حيث غابوا عن شوارع بحري . وحين بدأت في كتابة " رباعية بحري " حاولت أن أقدم عالم الفتوات، تعرفت إليه من خلال الذكريات القديمة لأبي ، والقريبة لأبناء بحري الذين عاشوا فترة مابين الحربين . وكان فتوات نجيب محفوظ دافعاً لأن أكتب عن فتوات الإسكندرية، رغم اختلاف المكان والزمان ، وطبيعة الشخصيات، ومهنهم

أيضاً!

كانت «الفتونة» هي العمل الوحيد الذى مارسه فتوات نجيب محفوظ . عاشوا على البلطجة ، وفرض الأتاوات ، وافتعال المشاجرات ، وخوضها لحساب الآخرين ، فى حين انه كان لغالبية فتوات الإسكندرية مهنهم التى تكسّبوا منها ، أما الفتونة فلم تكن سوى هواية ، وسيلة لإثبات الشهامة والنخوة والمروءة والجدعنة . وكان عمل فتوات نجيب محفوظ فى غيبة من السلطة ، شغلهم الهرب والتخفى واللواذ بالأماكن النائية. أما فتوات الإسكندرية فقد كان تحدى سلطة الاحتلال وحكومات الأقلية، حرصهم الأول. وكانت معاركهم فى الساحات والميادين وعلى القهاوى، وأعلنوا الاحتقار لمن جعل الفتونة مهنته. وكان أبلغ ما يعتز به حميدو فارس ـ مثلاً ـ ورواه الذين فوجئوا بالمشهد، أنه كبس طربوش المحافظ على رأسه ، لسبب تصور أنه يمس كرامته . وأفدت من الحادثة فى روايتى " الأسوار "، بيومى الدكر الذى كبس طربوش مدير المديرية على رأسه . وروى لى أبى كذلك، الكثير عن فتوات الإسكندرية. غالبيتهم ـ أو أكثرهم شهرة ـ من بحرى ، حيث قضيت طفولتى وصباى : حميدو فارس وأبو

خطوة والسكران ، وغيرهم ممن تغيرت - بغيابهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - صورة الحياة فى الإسكندرية ، وبالذات فى أحيائها الوطنية.

●●●

كان الخواجة ميخاليدس - البقال بشارع الميدان - يعيش الحنين نفسه الذى يعيشه كل الأجانب المقيمين فى الإسكندرية، كل يحن إلى موطنه الذى ولد - أو نشأ - فيه ، أو نشأ فيه أبواه قبل أن يهاجرا إلى مصر ، أو أن أصوله تنتسب إلى ذلك الموطن / الوطن . الوطنى من أبناء المدينة يحن إليها إن ابتعد عنها ، سواء ركب البحر ، أم أخذته الهجرة إلى بلد بعيد . أما الأجنبى فإنه يعانى حنيناً فى الاتجاه المقابل ، الحنين إلى موضع ما ، بلد ما ، فى الناحية الأخرى من البحر.

يحدثنى عن أيام تردده على شارع اللبان . يتردد على المقاهى والبارات ، يشرب الخمر ، يبحث عن النساء . يكتفى بأطراف كوم بكير - حى البغاء آنذاك - لا يحاول اختراق شوارعه وحواريه وأزقته . تضايقه العبارات الداعية والمحرضة ، من النسوة الواقفات على الأبواب ، وابتزازات البلطجية ، وتمازج روائح النوم والمخدرات والقيء والعرق

والعطن .

يحدثني عن الصيد ، السمان والبط وغيرها ، ما يذكره يتباين مع مظهره . تأتي أسراب الطيور من الشمال فراراً من البرد والصقيع ، تتجه إلى الجنوب ، إلى إفريقيا حتى أوغندة . تظل هناك إلى يونيو . يبدأ ما تبقى منها رحلة العودة . السمان طائر يكره الضوء والحرارة ، عصبى المزاج، يحب الحرية ، غبى التصرف ، فمن السهل صيده .

تعدد الميكروفونات في مساجد الحى ، لم يعد يقصر الأذان على أبو العباس ، تتلاقى الأصوات فى المآذن المتقاربة، تتشابك وتختلط ، تسبق العبارات وتتأخر ، يصعب تبين إلا مفردات : الله ومحمد والصلاة والفلاح . أستكمل العبارات بما أحفظه جيداً ، الأذان فى ذهنى ووجدانى منذ بداية الوعى .

كانت الأراضى الخلاء في بحرى ، تتحول ـ تلقائياً ـ إلى ملاعب لكرة القدم . الخلاء المجاور لحلقة السمك ، الموضع الذى بنيت فوقه ـ فيما بعد ـ سينما التتويج ، الأرض المواجهة لسراى رأس التين ، ومواضع أخرى كنت أحرص على التنقل بينها . يتقابل المرميان ، وتصف الكراسى على جانبى

«الملعب» . يشارك فى المباريات لاعبون من أندية الإسكندرية : الاتحاد ، الأولمبى ، الترام ، بالإضافة إلى لاعبين من أندية القاهرة يحاولون الإنفاق على إجازة الصيف مما تدره المباريات . كل كرسي بقرشين ، يمثل مجموعها مبلغاً لا بأس به فى وقت يختلف تماماً عن وقتنا الحالى . أنذكرك بما رواه عبد الكريم صقر عن قطعة الجاتوه التي كان يظفر بها من يجيد الأداء !

أما المستوقد فى شارع سوق السمك القديم ، فقد أزيل من موضعه . حلت - بدلاً منه - محطة للبنزين . أذكر نهايات أيامه . كان أبى يحرص على شراء الفول من البائع الذى يقف أسفل بيتنا ، يضع قدوره فى المستوقد لتنضج على رماده . طعم الفول ألذ وأشهى من الفول الذى ينضج بعيداً عن المستوقد . وثمة الترام الصغير ذو العربة الواحدة فى السكة الجديدة ، والتكية أول شارع إسماعيل صبرى ، والطرق المرصوفة بالبازلت .

●●●

ونحن صغار ، كنا نترك بيوتنا ، فى أيدينا الفوانيس الملونة . ليست فوانيس هذه الأيام البلاستيكية بلمبة البطارية

الصغيرة ، وإنما فوانيس من الصفيح ، تتراقص فيها شمعة بحق وحقيق ، يرافق تراقصها غناؤنا لما كنا نستمع إليه من أغنيات رمضان ، مثل وحوى يا وحوى للمطرب الراحل أحمد عبد القادر ، أو رمضان جانا لمحمد عبد المطلب ، وغيرها من أغنيات شهر الصوم . فإذا صادفنا دكان ، تعالت أصواتنا بالقول : الدكان ده كله عمار .. وصاحبه ربنا يغنيه . يهبنا صاحب الدكان مليماً أو مليمين - مبلغ لا بأس به بعملة ذلك الزمان ! - فنكرر القول : الدكان ده كله عمار .. وصاحبه ربنا يغنيه . قد يطردنا صاحب الدكان ، أو يلعن سنسفيل آبائنا ، أو يقذفنا بما في يده . نهتف ونحن نجرى : الدكان ده كله خراب .. وصاحبه ربنا يعميه .

نزهق من حمل الفوانيس . نكومها في أى موضع ، ثم تبدأ جولتنا في شوارع بحرى وحواريه ، نتعرف إلى مظاهر الاحتفال برمضان .

بحرى - كما تعلم - هو أصل الإسكندرية . التقاء قرية راقودة بجزيرة فاروس . الحى - حتى الآن - هو التعبير عن «البلد» . يقول ابن الرمل أو محرم بك أو سيدى بشر . أنا نازل البلد . المعنى أنه في طريقه إلى بحرى . لبحرى

خصائصه التى لا تجدها فى بقية أحياء الإسكندرية . التقاء اليابسة والبحر من كل الجوانب . شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية ، مساحتها كيلو متراً مربعاً . غالبية سكان الحى من العاملين فى مهن تتصل بالبحر : صيادون وباعة سمك وغازلو شباك وبحارة وعمال ميناء وصغار موظفين . تتداخل البنية الديموغرافية مع الطبقة الوسطى من ميدان أبو العباس إلى ميدان المنشية ، حيث ينتهى حى بحرى ، أو ما يسمى - إدارياً - حى الجمرك .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الروحانية سمة لافتة فى بحرى . ثمة المرسى أبو العباس ، أو سلطان الإسكندرية كما يلقبه السكندريون . من حوله جوامع أولياء الله : البوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين وعبد الرحمن وعلى تمراز . وتتناثر - فى شوارع الحى وحواريه وأزقته - مقامات وأضرحة لأولياء آخرين ، فتتشكل صورة يصعب أن نجدها فى أى موضع آخر ، داخل الإسكندرية أو خارجها . يضيف إلى اكتمال الصورة ما يشغى به الحى - على امتداد العام - من موالد وحلقات ذكر وخيام صوفية وأكشاك ختان ، والتقاء الأذان من المآذن المتقاربة فى مواعيد الصلاة الخمس (كان

سلامة حجازى رافعاً للأذان فى البوصيرى وأبو العباس قبل أن يتجه إلى الغناء !) وأهازيج السحر ، والتواحيش ، وتذكير الدراويش للمؤمنين بقرب صلاة الفجر .

فى خان خليلى نجيب محفوظ غنى الأطفال فى استقبال رمضان : صيام صيام .. كما أمر قاضى الإسلام .

لأن قاضى الإسلام كان يقيم فى القاهرة ، فلا أذكر أن أطفال الإسكندرية - زمان - أنشدوا تلك الأغنية ، قدموا أغنيات من التراث الصوفى - وللإسكندرية بفضل أقطابها الصوفيين نصيب وافر - ورددوا - فيما بعد - أغنيات الإذاعة .

قبل أن يبدأ التليفزيون تقديم فوازيره وبرامجه المسلية ومسلسلاته ، كانت سهرات رمضان تبدأ - بالنسبة للصغار - بعد الإفطار مباشرة ، وبالنسبة للكبار بعد صلاة التراويح . ميدان المساجد منطقة استقطاب لكل أبناء الإسكندرية . يتنقلون فى سوق العيد يبدأ قبل رمضان ، وينتهى بعد العيد المراجيح وخيال الظل وصندوق الدنيا والمرأة الكهربائية والساحر والثلاث ورقات وألعاب القوة والنشان ، أو يجلسون فى خيام الصوفية ، أو فى السرادقات التى ينشد فيها الراوى الشعبى سيرة عنترة والهلالية . يظل ليل بحرى

مستيقظاً إلى ما بعد صلاة الفجر . حتى الأسر التى تفضل البقاء في البيوت تسلي سهرها بتناول المكسرات وقزقزة اللب وأبو فروة .

أذكر أن الطيبة اجتذبتني في ملامح المسحراتي . كنت أستمع إلى دقاته على الطبلة ، ودعواته ، ومناداته على أبناء الحي بالاسم . قلت له اسمي ، وظللت متيقظاً إلى ما قبل فجر اليوم التالي ، أنتظر مناداته اسمي . نطق الاسم بالفعل، وتبينت ـ حزيناً ـ أن غالبية أبناء الحي يتقاسمون اسمي : محمد .

أصارحك أن الصورة لم يطرأ عليها تغير ملموس ببدء الإرسال التليفزيوني . ظلت سهرات رمضان ـ بأبعادها الروحية والترفيهية ـ على عافيتها وتألقها . ما بدل الصورة ـ إلى حد كبير ـ ذلك البناء الخرساني الضخم الذى أقيم في قلب ميدان أبو العباس ، نتيجة صفقة ـ غابت حقيقتها ـ بين محافظ الإسكندرية الأسبق وعدد من رجال الأعمال . تحول الميدان إلى مؤسسات تجارية واقتصادية ومطاعم ودكاكين للبازار وشرائط الفيديو والكاسيت . أصبح سوق العيد ـ المظهر الأهم لسهرات رمضان ـ مجرد مواضع متناثرة فيما

تبقى من الميدان ، وتقلصت السرادقات والخيام ، وغابت الجلوات التى كانت تنطلق من باب جامع أبو العباس إلى أحياء الإسكندرية الأخرى .

رمضان زمان ذكريات جميلة فى وجدان جيل الآباء ، وعلى جيل أطفالنا الحالى أن يقنع ببرامج الإذاعة والتليفزيون، وبفوانيس البلاستيك ، يحملونها وهم يرددون الأغنية المتوارثة من زمن بعيد : حالو يا حالو .. رمضان كريم يا حالو .. فك الكيس وادينا بقشيش .. لنروح ما نجيش .. يا حالو .

يرتبط شهر رمضان فى ذاكرتى بقراءتى الأولى لكتاب طه حسين «الأيام» ..

مع أنى لا أذكر متى بدأت الاختيار ، والقراءة ، فى مكتبة أبى ـ وكانت مفعمة بالكثير من كتب اللغات والاقتصاد ، وبالأقل من كتب التراث والأدب المعاصر ـ فإنى أذكر قراءتى لكتاب «الأيام» جيداً . أذكر ظروف قراءته وتأثيراته فى نفسى . كنت أقرأ كل ما تصادفه يداى . أذكر أقله ، وأنسى معظمه . وحين قرأت " الأيام " لم يعلق فى ذاكرتى إلا السياج الذى تصور الصبى أنه نهاية العالم . لم تتح له

العاهة التى كان يعانيها أن يجيد التعرف إلى ما حوله ، غابت تفصيلات المكان والزمان ، فلم أعرف ـ وقتها ـ أن الأحداث جرت فى الصعيد ، وأن زمنها هو أواخر القرن التاسع عشر . ولم أرسم ملامح محددة للصبى ، وإن بدا ـ فى مخيلتى ـ على الهيئة التى رسمها الفنان الكبير بيكار تعبيراً عن الأحداث .

فى القراءة التالية ، أشفقت على الصبى حين أخفق فى أكل العدس ، فحاول أن يقتل نفسه بالساطور . أغنانى بيكار عن تخيل ما حدث برسمه للمشهد الدامى ، أو الذى أوشك أن يكون دامياً ، ولم تغادر الصورة ذهنى ـ منذ تلك الأيام البعيدة ـ حتى الآن . بل إنه كلما عرانى الارتباك لسبب ما فرضت معاناة صبى الأيام نفسها على ذاكرتى !..

أما القراءة الثالثة ، فقد كانت هى الدافع لأن أكتب أولى محاولاتى . كتيب صغير مطبوع سميته " الملاك " . كتبته قبل أن أجاوز مرحلة الطفولة . تأثرت للغاية بالكلمات التى توجه بها الراوى إلى طفلته الصغيرة ، يحدثها عن فضل أمها عليه، وعلى أسرته الصغيرة . أعدت قراءة الكلمات حتى حفظتها تماماً ، وأقدمت على محاولة المحاكاة فى أول ما صدر لى من

ورق مطبوع . تحدث طه حسين عن الملك الذى حنا عليه ، وعلى ولديه .. وتحدثت عن الملاك الذى فارقنا - إخوتى وأنا - ونحن صغار ، وأسرفت فى اختيار الكلمات التى تبين عن الافتقاد والحب ، مستعيناً - أعترف - بعبارات كاملة لطه حسين والحكيم والزيات والمازنى وعبد الحليم عبد الله والسحار وغيرهم من كبار الأدباء فى تلك الفترة ..

الدرس الأهم الذى خرجت به من قراءتى للأيام ، أن الإعاقة فى الذهن وليس فى الجسد . لقد تحدى طه حسين إعاقته ، واستطاع - كما روى لنا فى الأجزاء الثلاثة من الأيام - أن يصبح أحد الرموز الثقافية ، ليس على مستوى مصر فحسب ، ولا على مستوى العالم العربى وحده ، وإنما على مستوى العالم كله .

●●●

كان أهم ما يميز شهر رمضان ، السهرات الدينية التى تقام - على نفقة الملك فاروق - فى حديقة سراى رأس التين ، قوامها تلاوة من القرآن الكريم لقارئ القصر الملكى - هذا هو اللقب الذى أطلقه الملك عليه - الشيخ مصطفى إسماعيل .

لا أذكر أن أبى صحبنا إلى حديقة السراى . كنا نرافق

أمهاتنا ، ونجلس داخل الحدوة الهائلة ، يطوف علينا خدم السراى بالمشروبات ، وتحيط بنا الأضواء من كل الجوانب ، ويتناهى صوت الشيخ مصطفى إسماعيل بأدائه الجميل هو الثالث ، فى تقديرى ، من أصحاب الأصوات السماوية بعد محمد رفعت وأبو العينين شعيشع .

نعود إلى شارع إسماعيل صبرى ، أسر متجاورة من بيتنا والبيوت المتجاورة ، أمهات وأطفال ، نسير على رصيف الكورنيش إلى تقاطع إسماعيل صبرى ، فتمضى كل أسرة إلى بيتها .

كانت تلك الرحلة القصيرة - نسبياً - من رأس التين إلى إسماعيل صبرى أميز ما فى السهرة جميعاً ، نمارس ما يحلو لنا من ألعاب وسط زحام المارة والقعود ، لا نعبأ بأوامر الأمهات وشخطاتهن . أذكر أن إحدى الأمهات ثارت على شقاوة طفلها ، صاحت مستنكرة : شفتى الولد !. التقط صبية الأنفوشى التعبير ، حولوه - حالاً - إلى كلمات مغناة قوامها قول الجارة : شفتى الولد .. شفتى !

●●●

فى الأيام العشر الأخيرة من رمضان ، يعلو صوت مؤذن

جامع أبو العباس بالتواحيش ، وهي غير التواشيح . مفرداتها التأكيد على الإحساس بالوحشة في انقضاء أيام الشهر الفضيل : لا أوحش الله منك يا رمضان .. لا أوحش الله منك يا شهر الصيام .

يعد الناس أنفسهم لما قبل عيد الفطر ، وللعيد نفسه . تنشط حركتهم بين البيوت والأفران ، وكعك العيد على الرءوس ، يقبلون على شراء المكسرات من شارع اسمه "النقلية" ، يفترش ما يسمى بسوق العيد مساحات في الأرض الخلاء والساحات ، مثل ميدان المساجد ، والساحة المقابلة لجامع على تمراز ، ومواضع أخرى في الأنفوشي ورأس التين . يضيف إلى بهجة الليالي مولد المرسي أبو العباس الذي يأتي موعده في نهايات رمضان . الأعلام والبيارق واللافتات وخيام الصوفية وحلقات الذكر والتواشيح والإنشاد الديني ورواية السيرة النبوية وسير الصالحين ، والجلوة التي تطوف شوارع المدينة في آخر أيام المولد ، تسبقها الشارات والأعلام والدراويش الذين يلجأون إلى أفعال الخوارق ، تأكيداً لمعنى المحو والفناء .

أذكر - كالطيف - ليلة إعداد كعك العيد . كانت أمي

بصحبتها ، بمعنى أنى ربما كنت فى الخامسة أو السادسة من العمر . كانت تشرف بنفسها على إعداد الصوانى ، تحملها دهب إلى فرن التمرازية القريب . ثمة نداءات وملاحظات وأنوار عالية ، وباب الشقة مفتوح لتسهيل الحركة.

تظل المدينة - والأحياء الشعبية بخاصة - ساهرة ليلة العيد إلى موعد الصلاة . يدس الأطفال ثيابهم الجديدة تحت الوسادات ، أو يضعونها إلى جانبهم على الأسرّة ، حتى تعلو التكبيرات . يحرصون فى ذهابهم إلى الصلاة على ارتداء الثياب الجديدة ، والحصول على العيدية من كبار الأسرة : الجد والجدة والأب والأم والأعمال والأخوال . يحاكون الكبار فى أدائهم للصلاة ، ينتظرون - كما ينتظر الكبار - حتى ينتهى إمام الجامع من الخطبة .

تحل بداية الاحتفال بالعيد - عند الأطفال - حين يتركون آباءهم ، ويتجهون إلى ميدان سوق العيد ، على ناصيته سيارات أجرة ، مقابل ركوبها خمسة مليمات (لا يعرفها جيل الأطفال الحالى) . تستوعب السيارة ما لا سبيل إلى حصره . تتداخل الأجساد والأيدى والأقدام بما لا يكاد يتيح فرصة لالتقاط الأنفاس ، ولا رؤية أى شىء . لكن سعادة

المغامرة تلف الجميع .

تنطلق السيارة فى شوارع غير مرئية ، انعدام الرؤية لا يتيح التعرف إلى ما يمكن رؤيته . يشعر الأطفال من رائحة البحر أنهم يسيرون بالقرب منه . إذا قال السائق : وصلنا السراى .. عرفوا أنه قد وصل إلى نهاية النزهة أمام قصر رأس التين . يبدأ رحلة العودة دون أن يغادر الأطفال أماكنهم. مجرد إعادة الترتيب ستفضى إلى نتائج سلبية ، فى مقدمتها أن البعض لن يعثر على الموضع الذى كان يشغله داخل السيارة . يهمل السائق صراخ المعاناة من كتمة النفس. يواصل السير حتى يصل إلى نقطة البداية . يندلق الأطفال من السيارة (هذا هو التعبير الأدق !) إلى أرض الطريق ، لا يدرون كيف احتوتهم هذه العلبة الحديدية !

ما يكاد السائق يعلن عن بداية الرحلة التالية ، حتى ينسى الجميع معاناتهم ، يتسابقون إلى دفع المليمات الخمسة، ويندفعون داخل السيارة ، تنحشر الأجساد والأيدى والأقدام ، تأهباً لرحلة تتزاوج فيها اللذة والألم .

فرض إختفاء الساحات والأراضى الخلاء والزحام غياب

كل هذه المظاهر التى حدثتك عنها . نحن نحتفظ بها فى نفوسنا ، وإن صحبنا أبناءنا إلى المتاح من الحدائق العامة ، بالإضافة إلى الفسحة الأجمل على شاطئ الكورنيش .

●●●

زمان، كانت المسافة بين سراى رأس التين وسراى المنتزة ساحة للألعاب والمسابقات التى تستمر طيلة أشهر الصيف، تجتذب أبناء الإسكندرية، بالإضافة إلى زائريها من المصيفين.

كان سباق البنز يقام كل اثنين، عشرات من عربات البنز يقودها أصحابها من رأس التين إلى المنتزة. كالعادة يبدأ السباق بمئات العربات، تتقلص تدريجياً، فيصل إلى نقطة النهاية مالا يجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، والناس - على الجانبين - يهللون، ويشجعون.

وكانت الميناء الشرقية تشهد سباق القوارب بين صيادى رأس التين وصيادى السيالة، ما بين قلعة قايتباى ولسان السلسلة. تنزل الفلايك بالأعلام والرايات الملونة والمزامير والدفوف والطبول، تنطلق وسط عبارات التشجيع والتصفيق والكلمات التى لحنت خصيصاً لهذه المناسبة.

.. يردد أبناء السيالة: قفة ملح وقفة طين.. على دماغ رأس

التين.

ويردد أبناء رأس التين: سيالة يا سيالة.. يااللى ما فيكى رجالة!..

وعلى امتداد الشاطئ، تتعالى الصيحات والدعوات التى تنتصر لكل فريق، ويفوز أحد الفريقين، فتطوى الأعلام، وتصمت الموسيقا، ويعود الجميع - متسابقين ومشجعين - إلى بيوتهم محملين بالذكريات الجميلة، وبوعد على اللقاء فى مسابقة تالية، قريبة.

أما مسابقات السباحة، فقد كانت تجرى من آخر نقطة فى يسار الأنفوشى إلى لسان السلسلة، يشارك فيها مشهورون ومجهولون.

وفى الساحات الخالية فى شارع التتويج (محمد كريم)، وبالقرب من حلقة السمك، وأمام سراى رأس التين، كانت تقام مباريات الكرة.

رأيت - فى طفولتى - لاعبى الخمسينيات من الأهلى والزمالك والترسانة، الكراسى تحيط بالساحة، الكرسى بقرشين. عرفت أن الإيراد ينفق منه اللاعبون على مصاريفهم الشخصية أثناء الإجازة. وكما نعرف، فقد كانت كرة القدم

آنذاك هواية خالصة، حدثنا عبد الكريم صقر - فى وسائل الإعلام - عن قطعة الجاتوه بقرش صاغ التى كان يظفر بها من يحرز هدفا!

بالطبع فإن الكثير مما كان يشهده الساحل، سواء داخل البحر، أو على الشاطئ، لم يعد يسهل إقامته فى ظروف الزحام الحالية.

●●●

تحول الحنطور إلى وسيلة نقل سياحية ، يستقله المصيفون أو البحارة الأجانب ، للفرجة على معالم المدينة . أغلب سيره - كما أرى - فى طريق الكورنيش ، ما بين قصر رأس التين وقصر المنتزة ، عزيز قوم ذل ، فلا يلاحقه الأولاد بعبارات السخرية والشتم والصفات المعيبة . ذلك ما كان يغضب الحوذية زمن طفولتى ، يردون على العبارات القاسية والسخيفة بعبارات أشد ، أو يلجؤون إلى الكرباج إن أفلح فى بلوغ مصدر الصوت .

كان موقف عربات الحنطور على ناصية شارع إسماعيل صبرى من ناحية شارع التتويج - شارع محمد كريم الآن - أعرض على الحوذى طلب جدتى بأن ينقلها إلى محطة

الأوتوبيس فى ميدان محمد على ، أو محطة السكة الحديد ، تحدد لى جدتى السعر الذى أوافق عليه ، تحذرنى من قبوله إلا بعد أن أساوم بأسعار أقل ، مقابلاً للسعر المرتفع الذى سيعرضه الحوذى . سقف الموافقة هو المبلغ الذى حددته جدتى ، أو أعود إلى البيت لعرض الأمر .

وكان الحنطور وسيلة احتفال بالعيدين ، إلى جانب سيارة التاكسى التى اعتدنا ركوبها - كما رويت لك - فى زحام عشوائى . أختفى الحنطور من شوارع الإسكندرية وحاراتها، بل وأزقتها . تم الأمر فى مدى أعوام طويلة كتأثيرات الزمن ، وإن ظلت أعوام وجوده - كوسيلة نقل مهمة - ماثلة فى الذهن.

تأثيرات الزمن تفرض ملامح جديدة ، تُغَيِّب من حياتنا ما ألفنا وجوده كثوابت يصعب تصور افتقادها . اختفت الذكريات الحميمة ، حل مكانها ما بدا لى مفاجأة خالصة . لم يعد من الزمن القديم إلا الجوامع الكبرى ، والزوايا ، وما تبقى من البنايات القديمة ، أنشئت العمارات الجديدة متعددة الطوابق ، وعلت الإعلانات المضيئة ، ومحال البضائع الحديثة. حديقة سراى رأس التين فى اتساعها القديم ، لكن لم يعد فى وسع أهل بحرى أن يترددوا عليها ، أقيمت أمامها

متاريس تمنع الدخول . أفهم - وأتفهم - عملية إزالة البنايات المحيطة بالبيت الحرام ، والبنايات التى أتاحت توسيع ميدان الحسين بالقاهرة ، لكن من الصعب أن أتصور إنشاء كتلة خرسانية تحتل المساحة الأكبر من ميدان أبوالعباس بدعوى توسيع الميدان . أثق أن الإغراءات المادية كانت هى الباعث لما حدث ، وأثق - فى الوقت نفسه - أن قراراً حاسماً تصدره الجهة المسئولة ، سيكفل إعادة الميدان إلى صورته الأولى . قلت مساحات الشوارع المبلطة بالبازلت ، مقابلاً لزيادة المساحات المسفلتة . اعتدت - فى صباى - أن أتقافز فوق المكعبات البازلتية ، وأعدها ، حتى ينبهنى - فأفسح الطريق - هتاف حوذى ، أو قرقعة عجلات عربة كارو ، أو كلاكس سيارة . فى زياراتى إلى مدن ساحلية ، بدت لى الطرق البازلتية ملمحاً مهماً فى شخصيتها ، وكانت هى الملمح المهم فى شخصية الإسكندرية ، لكنها ذوت ، واقتصرت على بعض الشوارع الجانبية ، والضيقة . حتى الحديقة المواجهة لمستشفى الملكة نازلى ، عطلت نافورتها ، وغطى التراب أرضيتها التى كانت خضراء ، غاب رونقها القديم .. أما البوصة التى يتدلى منها خيط النايلون والسنارة . يجلس

الصياد على المكعبات الإسمنتية ، أو يقف فوقها . يقذف السنارة الحاملة لطعم الجمبرى الصغير ، يتشبث بالصبر حتى تحدث الجذبة ، فتعلو يده بالصيد الذى طال ترقبه . هذه الصورة شحبت ، أو تلاشت . اشتريت أدوات صيد السنارة في أحيان كثيرة ، وشاركت الصيادين وقفتهم ، وعدت إلى البيت وفي " الغلق " من أحاد المرجان والبربوني ما يحض على التباهي . السنارة القديمة اختفت . حلت ـ بدلاً منها ـ ماكينات حديثة جيدة الأداء . لم تكن الثلاجة الكهربائية قد دخلت بعد معظم بيوت بحرى . لذلك كان رواج تجارة عم أحمد في ألواح الثلج واضحة ، يتوالى قدوم عربات النقل المغلقة ، يفتح بابها الخلفى على رصات الثلج ، تستقر داخل الصندوق الخشبي الأخضر ، ما يزيد يرص فى مدخل البيت المجاور ، ساعة أو أقل ـ فى الصيف بخاصة ـ ينفد كل ما حملته العربة ، لتأتى عربة ثانية ، وهكذا . مطعم الطنطاوى مازال فى مكانه ، وإن بدّل نشاطه . لم يعد يقتصر على الفول والفلافل ، لكنه أضاف إليهما وجبات خضار ساخنة ، تغيرت نوعيات الزبائن نتيجة لتغير الطلبات . سينما التتويج ـ في المواجهة ـ تحولت إلى جراج ، ثم أزيل لتقام ـ في موضعه ـ

بناية سكنية ، ذات طوابق متعددة .

أخر من كنت أعرف بشارع إسماعيل صبرى ، الأسطى إبراهيم شعبان ، صاحب دكان الترزى أسفل بيتنا . كنت أحرص - فى زياراتى إلى الشارع - أن أسأله عن الأحوال : كيف كان الزمن القديم ، ومن بقى منه ، وماذا عن الجديد ؟. وكان يصبر على أسئلتى التى تذكره بأسماء نسيها هو نفسه.

طالعنى دكان إبراهيم شعبان - فى زيارة أخيرة - بالإغلاق. عرفت أنه قد أصيب بشلل مفاجئ ، فحمله الجيران - الجيرة لها معناها الجميل فى الأحياء القديمة - إلى المستشفى، أقام فيها أياماً ، ثم عاد إلى بيته فى وضعه المرضى ، أرقدوه على فراشه ، فلم يعد يغادره.

إبراهيم شعبان هو آخر الخيوط التى كانت تربطنى بشارع إسماعيل صبرى الذى أعرفه ، تحوطنى الغربة بالنظرات المتسائلة ، والسحن التى لم يسبق لى رؤيتها ، والمحال التى تقدم أنشطة فرضها إيقاع العصر ، كالموبايل والأجهزة الكهربائية ووجبات الطعام السريعة .

●●●

من عادتى - كما قلت لك - أن أعود إلى بحرى ، وما تزال ذاكرتى تستعيد شخصياته وأحداثه ، حتى التى مضى على

غيابها أعوام طويلة ..

أحياناً ، فإنى أنفى ما شاهدته ، أستعيد ما عشته من المواضع القديمة ، ما تعرض للإزالة والتقويض والتدمير ، لتحل - بدلاً منه - مواضع جديدة : شوارع وميادين وبنايات . تلك هى حيلتى للعيش فى زمن الطفولة والصبا ، الزمن الذى تدين له ذاكرتى بما تعرفت إليه - وحاولت التعبير عنه - من شخصيات ووقائع .

●●●

بحرى هو نبض الكثير مما كتبت ، وأثق - لو أسعفنى العمر - أنه سيكون نبضاً لأعمال أخرى تالية ..

أصارحك بأن الحزن يلفنى عندما أزور الإسكندرية ، حى بحرى بالذات ، هذه الأيام ..

تغيرت الصورة تماماً ، فأنا أفضل أن أعتمد على صور الذاكرة ..

أفلح الانفتاح فى أن ينفذ - بمظاهره السيئة - إلى الموطن الذى نشأت فيه ، وأحببته. بحرى الذى عشت فيه يختلف عن ذلك المبنى الخرساني الهائل الذى احتل ميدان أبو العباس، فذوت الروحانية وحميمية البشر، تعرضت العمارة الجميلة

لجامع أبو العباس، وفي الجانبين جامع البوصيرى وياقوت العرش، إلى عملية تشويه متعمدة، بالسطو على مساحة الميدان، وإقامة هذه الكتلة الخرسانية الهائلة موضعها، تشغلها المولات والمطاعم ودكاكين البازار. أفتقد الحديقة الهائلة أمام سراى رأس التين تتيح خضرتها للجميع، ويتلى فيها القرآن في ليالى رمضان. شاطئ الأنفوشى احتلته الكبائن وورش المراكب، فضاعت فرص أبناء الحى فى الإفادة من البحر الذى ولدوا على شاطئه.. الكثير من الصور التى أحببتها، وعبرت عنها - فنياً - في أعمالى، مقابلاً للكثير من الصور التى لا تعدو تشوهات في الجسد الجميل.

حى الجمالية بعمارته الإسلامية وشوارعه الضيقة وأقبيته ومساجده وزواياه وحرفييه، هو التعبير عن القاهرة المعزية بكل زخمها التاريخي والمعمارى والإنساني. ذلك ما يصدق - إلى حد كبير - على حى بحرى ، وإن انتسب الكثير من أبنائه إلى المهن المتصلة بركوب البحر ..

وإذا كانت وزارة الثقافة تحاول إنقاذ الجمالية من الزحف الخرسانى ، فلعل ذلك ما يحتاج إليه بحرى ، لا أقصد البيوت

القديمة المتهالكة ، فلابد أن تمتد إليها يد الإنقاذ وفق أسس معمارية محددة ، وإنما أقصد المعالم المعمارية والتاريخية المهمة ..

لتكن البداية ـ على سبيل المثال ـ بإزالة تلك الكتلة الخرسانية الهائلة من ميدان أبو العباس ، مقابلاً لما حدث فى ميدان الحسين ، فيعود إلى الميدان ما سلب منه ، وما ألفه من ملامح متفردة ، يفتقدها أهل الإسكندرية وزوارها !

●●●

غير الزمن طبيعة المكان ، الكثير من الأشياء غابت ملامحها ، أو تداخلت في ملامح أخرى جديدة . ليس هذا هو بحرى الذى عشت فيه طفولتى وصباى وسنين من شبابى ، الفضاءات التى صارت ـ فيما بعد ـ محوراً لكتاباتى ، كل الصور فى ذاكرتى ثبتت على مشاهد محددة . تغلبنى الحيرة وأنا أحاول الكتابة ، وأنا أحاول استعادة الملامح والقسمات ، ما بين المشاهد الآنية وتوصيف الذاكرة ، ما أزاله الهدم ، والجديد الذى بدّل طبيعة المكان . كما رويت لك ، فإنى أغمض العينين أحياناً (لى قصة اسمها «إغماض العين») وأحاول استعادة ما كان .

غواية الإسكندر
وتسونامى الدلتا

لم يكن بحث الراوى عن قـــبـــر الإسكندر ، فى روايتى «غـواية الإســكندر» ، بهـدف العـثور على القــبـر لقـيمتـه التاريخية أو الأثرية ، أو العثور على الكنز الذى قيل إنه أودع فى القبر، لكنه أراد أن يجد الطلســم الذى طلب الإسكندر أن يوضــــع ضمن المتعلقات المــودعة مع جثمانه ، وهو طلسم يمنع اعتــداء البـحـر على المدينة ، ويحمى الإسكندرية من الغرق . ذلك مـا توصلت إليه أبحـاث الراوى - وهو أسـتـاذ جامعى - فانشغل بالقراءة والبحث والتنقيب ، يحاول أن يمنع تهدد الإسكندرية بالمصير القاسى .

لم يفقد الأستاذ الجامعى وليد صبحى إيمانه أنه سيعثر على القـبـر ، الكنز ، الطلسم ، لينقذ الإسكندرية من الخطر الذى يتهددها .

والحق أن بحث وليد لم يكن فى الفراغ ، ولا هى شطحات عالم ، فالحقائق العلمية - تؤيدها ظواهر بيئية ومناخية - تخشى ارتفاع منسوب مياه البحر فى الأعوام القادمة حددها العلماء بما لا يزيد على ٢٠ عاماً ! بحيث تبتلع الأرض مساحات هائلة من الدلتا. بل إن بعض التقديرات تتوقع غرق ثلث الدلتا، خلال الأعوام المائة القادمة، بعد أن يرتفع منسوب مياه البحر المتوسط مترين.

●●●

ما معنى الانبعاث الحرارى ؟

إنه زيادة درجة حرارة الأرض ، نتيجة انبعاث الغازات الضارة التى استقرت فى الغلاف الجوى ، وتعمل كسطح عاكس لأشعة الشمس المرتدة من الأرض ، فتمتص جزءاً منها ، وتؤدى إلى ظاهرة التسخين ، وارتفاع درجة الحرارة .

غاز ثاني أوكسيد الكربون الناتج عن الأنشطة البشرية فى إحراق الفحم والبترول الذى نستخدمه فى المصانع والسيارات ، ومحطات توليد الطاقة ، وغيرها .. هذا الغاز هو أهم الغازات المعروفة باسم غازات الاحتباس الحرارى .

والحق أن تأثيرات التغير المناخى أخطر من مجرد ابتلاع مياه البحر لجزر وسواحل ومدن وبلاد - ربما - بأكملها . تمتد التأثيرات فتشمل فقد الكثير من دلتا الأنهار ، وكثرة الفيضانات ، والأعاصير المدمرة ، والجفاف ، والاختلاف فى توزيع أحزمة المطر إلى حد التوقع بأن تنخفض إيرادات مياه النيل ، نتيجة لتغير حزام الأمطار فوق حوض النهر . ونقص الإنتاج العالمى من الحبوب والإنتاج الحيوانى ، وانتشار الأوبئة ، وموت ما لا حصر له من الكائنات الحية فى أعماق الأنهار والبحار والمحيطات ، واختفاء العديد من الجزر ، وتآكل الشواطئ ، فضلاً عن فقدها . بل إن الآثار السلبية قد تبلغ حد تحول الشعاب المرجانية بالبحر الأحمر إلى البياض ، مما يفقدها جاذبيتها السياحية .

من الأخطار الماثلة كذلك ، ما أعلنه وزير البيئة الأندونيسى أن ارتفاع حرارة الأرض يهدد بالغرق ألفى جزيرة من جزر الأرخبيل الأندونيسى قبل عام ٢٠٣٠م . وزاد رئيس جمهورية جزر المالديف فأعلن أن الجزر التى تتكون منها بلاده ، قد تختفى تماماً خلال قرنين من الزمان بتأثير تغيرات المناخ .

التغير المناخى إذن مبعثه ظاهرة الاحتباس الحرارى ، وما يستتبعها من ذوبان طبقات الثلوج بالمناطق المتجمدة ، وارتفاع منسوب مياه البحر ، بحيث تغرق الكثير من الجزر والأراضى الساحلية ، حتى أن مساحات كبيرة من الدلتا ـ فى تقديرات العلماء ـ مهددة بالغرق خلال العقود الأولى من هذا القرن .

درجة حرارة الأرض قد ترتفع ما بين ٣ إلى ٤ درجات فى العقود القريبة القادمة ، والأخطار المتوقعة ـ نتيجة لذلك ـ هى تراجع مخزون مياه الشرب ، وزيادة الأعاصير والنوات والكوارث . أما أخطر النتائج فهى تعرض دلتا النيل للغرق ، فضلاً عن ارتفاع مستوى ملوحة المياه فى النهر ، والقحط ، ونشوء ظاهرة اللاجئين بسبب تغير المناخ .

لقد قسمت الأبحاث العلمية شواطئ الدلتا إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : شواطئ معرضة للخطر ، بتأثير انخفاض منسوبها عن سطح البحر ، ومنها ساحل بحيرة المنزلة ، ومنطقة الطرح جنوبى الإسكندرية . أما القسم الثانى ـ ويضم الشواطئ الآمنة ـ فهو الشواطئ المحمية طبيعياً بالكثبان الرملية ما بين البرلس وبلطيم وجمصة . وأما

القسم الثالث ، فيشمل الشواطئ التي ترتفع ما بين ٢ إلى ٦ أمتار فوق سطح البحر ، كما في رشيد وبلطيم ودمياط .

ولاشك أن ارتفاع مستوى البحر سيؤدى - على المدى المتوسط والبعيد - إلى تعرض مساحات متفاوتة من دلتا النيل لاحتمالات الغرق ، وما يستتبع ذلك - بالطبع - من فقد مساحات ضخمة من الأراضي الزراعية والبنايات والمنشئات الصناعية والسياحية ، وهجرة الملايين من السكان - في ظروف قاسية للغاية - إلى الجنوب .

توقعات العلماء أن البحر - حتى عام ٢١٠٠م - في مدى النظر سيلتهم ١٥٪ من أراضي الدلتا التي تضم بحيرات إدكو والبرلس والمنزلة والبردويل وجنوب الإسكندرية وشمال محافظات كفر الشيخ ودمياط والدقهلية وبور سعيد والسويس، بالإضافة إلى إهدار حوالى مليون فدان من أجود أراضي الدلتا الزراعية ، وتعرض أجزاء واسعة منها للملوحة والتصحر .

حتى أراضي الدلتا التي قد تنجو من الغرق ، مهددة بتسرب مياه البحر مما يؤدى إلى تملحها ، وعدم صلاحيتها للزراعة بالتالى . بل إن التوقعات تشير إلى احتمال أن يفقد

نهر النيل ما بين ٣٠ إلى ٦٠ ٪ من موارده المادية ، وهو ما يعني خطراً يصعب تصور نتائجه .

لكي يظل البحر على منسوبه ، أو يقل ، فثمة اقتراحات بإغلاق البحر المتوسط عن طريق جبل طارق ، وإغلاق البحر الأحمر من خلال مضيق باب المندب . وقد ظل الاقتراح بإقامة سد على مضيق جبل طارق قائماً منذ عام ١٩٢٠م حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فغاب الاقتراح فى تطورات الأحداث ، وبعد نشوء ظاهرة الاحتباس الحرارى ، أثير الاقتراح ثانية بواسطة علماء مصريين وسويديين ، لكن الاقتراح لم يجاوز - حتى الآن - إطار الأمنية !

●●●

إذا كان الدكتور وليد صبحى - فى غواية الإسكندر - قد واجه السخرية والاستخفاف ، حتى من اللصيقين به ، فإن اللامبالاة - وهى أخطر - تواجه التحذيرات المتوالية من اقتراب خطر ابتلاع البحر للإسكندرية ، ومساحات هائلة من الأرض المصرية . ولعلنا نذكر تحذير مسئولة دولية ، هى وزيرة خارجية بريطانيا (مايو ٢٠٠٧م) من غرق الدلتا ، وتشريد الملايين من سكانها ، نتيجة تغيّر المناخ ، وارتفاع

منسوب المياه : والطريف ـ والمؤسف ـ أن صحفنا نشرت التحذير المنسوب إلى الوزيرة البريطانية ، دون أن تعنى حتى بالتعليق عليه .

آلاف الأطنان من الكتل الخرسانية ، ألقيت داخل البحر ، أسفل الكورنيش الحجرى ، ما بين المنتزة ورأس التين ، بالإضافة إلى تغذية الساحل نفسه بكميات هائلة من الرمال . الهدف المعلن هو حماية الشواطئ من تأثيرات الأمواج ـ حالياً ، وفى المستقبل ـ لكن النتائج أتت بعكس المأمول . ظلت ثورة البحر ـ فى أوقات النوات ـ تهب تأثيراتها السلبية ، بحيث فرض السؤال نفسه : ماذا لو واصل المناخ تغيراته ، وفى مقدمتها زيادة منسوب مياه البحر ؟

لاحظ خبراء علوم البحار وبحوث الشواطئ ـ وهم غير مهندسى الإنشاءات الذين وجدوا فى كتل الخرسانة وحقن الرمال ما ينهى المشكلة ـ أن المصدات والرمال فشلت فى أداء دورها كحاجز يحمى المدينة من تقلبات البحر ، بالإضافة إلى أن تلك «الحواجز» قد أعدت دون دراسة ، أو استشارة علمية حقيقية ، فأدت إلى تغير بيئى سلبى ، قد ينتهى ـ إن استمر ـ باغتيال شواطئ الإسكندرية .. والكلام للخبراء !

المشكلة الأكثر خطورة - هذا هو التعبير الذى يحضرنى - هى توقعات المستقبل ، ارتفاع منسوب البحر بالقياس إلى مستوى الأرض .

وعلى الرغم من الرأى العلمى الذى يذهب إلى أن غرق الإسكندرية من قبل ، يعود إلى هبوط الأرض ، وليس إلى ارتفاع مستوى سطح البحر ، فالخطر المتوقع إذن يختلف عما واجهته المدينة من قبل .. على الرغم من ذلك الرأى ، فإن الأسئلة تظل قائمة : كيف نمنع الكارثة ؟ كيف نحول دون اندثار الإسكندرية الثالثة ، بعد أن اندثرت المدينة مرتين من قبل ؟ كيف تظل الإسكندرية الثالثة على حالها ، فلا تواجه خطر التلاشى ؟!

ثمة من يرى أن إنشاء سواتر حماية على طول شواطئ الإسكندرية ، دون دراسات بيئية ، ينطوى على أخطار تلغى المتوقع من الفوائد ، المواد الإسمنتية المستخدمة فى عمليات البناء لا تصلح . الأجدى أن ننشئ حواجز غاطسة ، أو مصنوعة من البلاستيك ، بحيث تنكسر حدة الموج تحت سطح البحر ، ويعجز القاع - عند تحركه - من اقتحام الشاطئ ، والمدينة بالتالى . أضافت الدراسة أن طابع النحر يختلف من

مكان إلى آخر ، ولابد من دراسة الأثر البيئى لها ، والظروف الطبيعية للبحر ، كى لا تهدر الإمكانات والموارد .

يذهب هذا الرأى إلى أن الكتل الخرسانية لا تحقق نتائج إيجابية مطلقة ، إنما تداخلها نتائج سلبية ، أهمها تغيير نوعية المياه ، وفى فصل الصيف بخاصة ، والأجدى إعادة تغذية الشواطئ بالرمال ، سواء باستخراجها من قاع البحر ، أو بنقلها من مكان آخر ، ولكن بمواصفات خاصة .

باختصار ، فإنه من الصعب أن تتحمل الخطر المرتقب حواجز الأمواج الحالية ، وعلى المدى البعيد - وربما القريب - فإنها لن تحدث تأثيراً إيجابياً من أى نوع .

لقد تأجلت كل مشروعات الحماية والإنقاذ لعقدة مصرية قديمة ، هى اختلاف وجهات النظر . ثمة لجان تابعة لوزارة الرى ، ووزارة الرى والموارد المائية ، ومحافظ الإسكندرية ، وهيئة حماية الشواطئ ، ومعهد علوم البحار ، وأقسام الجيولوجيا والجيوفيزياء بالجامعات المصرية ، وجمعية المهندسين ، والجمعية المصرية للتخطيط العمرانى ، والمركز القومى للبحوث ، ومعهد أبحاث البناء ، وهيئة الاستشعار عن بعد ، وهيئة الأرصاد الجوية والتغيرات المناخية ومدينة

مبارك العلمية بالإسكندرية ، ومصلحة المساحة ، وهيئة الجيولوجيا المصرية ، وغيرها . عبّرت كل منها عن وجهة نظر مخالفة للأخرى .وكان القرار السهل هو التوقف عن تنفيذ أي مشروع لحين التوصل إلى كلمة سواء . وبالطبع فإن الثمن يدفعه مستقبل الإسكندرية ، بالأخطار التي تهدده . أذكر أني ألفت ـ لأعوام طويلة ـ صرف المجارى فى الميناء الشرقية. لم تكن هناك اعتراضات ولا تحذيرات ، فاعتبرت الأمر عادياً، ولم يكن في بالي ـ أصارحك ـ تخوفات من التلوث البيئي ، فما يحدث البحر يحدث في النهر أيضاً .. وهكذا نحيا !..

تكون العديد من اللجان لدراسة سبل إنقاذ شواطئ الإسكندرية ـ والمدينة جميعاً ـ من الخطر . ووصف العلماء ما أنفق على عمليات الإنقاذ بواسطة تلك اللجان ، بأنه حلقات فى سلسلة تحويل شواطئ الإسكندرية إلى حقول تجارب ، وطالب العلماء ببدائل أكثر جدوى .

كانت التغذية بالرمال ، أو الحقن بالرمال ـ كما أشرنا ـ في مقدمة الحلول التى لجأت إليها اللجان ، لكن الرمال ذابت في أمواج البحر بعد أيام قليلة ، وذابت بالتالى بضعة ملايين

من الجنيهات أنفقت لتنفيذ ذلك الحل . وأقيمت حواجز خرسانية فى الأماكن الأكثر عرضة لاقتحام الأمواج ، لكن الأمواج علت الحواجز ، وتخطتها إلى قلب الطريق ، بما يعنيه ذلك من نذر الخطر . ثم بدأ العمل فى الحواجز الغاطسة التى وصفها الخبراء بأنها أحدث الوسائل العلمية التى استخدمتها الدول المتقدمة .

وثمة حل بإقامة سد ، ارتفاعه متران ، وبطول ٦٠٠ كيلو متر ، وهى المسافة ما بين مصبى رشيد ودمياط المتوقع أن يعلو مد البحر حوالى المتر ، وأياً تكن المبالغ التى تنفق على هذا السد ، فإنها ستظل هامشاً بالقياس إلى الخسارة الفادحة التى سيؤدى إليها غرق الدلتا . وثمة حلول أخرى ، منها عدم إقامة طوابق أرضية فى البنايات الجديدة ، وإلغاء تلك الطوابق فى البنايات القائمة بالفعل !

عموماً فإن حماية الشواطئ لا تأتى بمجرد وضع السدود، وتعلية الأرض فى مواجهة البحر . الحل يجب أن يرتبط بدراسات علمية ، تضع فى اعتبارها العوامل الساحلية من تيارات وأمواج وحركة رسوبيات ومسح الشواطئ التى كانت

قائمة قبل تنفيذ مشروعات الحماية .

وللأسف - والكلام للعلماء - فقد أدى التخبط في مشروعات لم تدرس جيداً ، إلى فقدان ٥٠٪ من شواطئ الإسكندرية ، بما تحويه من خصائص جيموفولوجية . والثابت علمياً أن منسوب المياه في الميناء الشرقي - في الأعوام الأخيرة زاد من متر واحد إلى ثلاثة أمتار . بل إن بعض الاجتهادات المتشائمة تخشى من أن يأتي يوم - قبل التسونامي المتوسطي - يرى أبناء الإسكندرية قلعة قايتباى في قلب البحر .

ما تحتاج إليه الإسكندرية - والدلتا جميعاً - فلا تواجه خطر الغرق والموت والاندثار - هو دراسة كل الشواطئ على ساحل الدلتا ، وليس شاطئاً بالذات ، أو بضعة شواطئ . ولعلنا نشير إلى إنشاء العديد من القرى السياحية في الساحل الشمالي حواجز أمواج لحمايتها ، وهو ما أدى إلى انتقال خطر التيارات البحرية إلى مناطق أخرى ، ودمر القرى الواقعة فيها ، بل إن تغذية الميناء الشرقي بالرمال أعاق الحركة في الميناء نتيجة تآكل الحجر الجيري ، وترسب الرمال.

الفهرس:

هذا الكتاب

المكان الذى يطالعنا - فى غالبية إبداعات محمد جبريل - هو حى بحرى، هذا الحى المتسم بخصوصية بالغة، مفرداتها البحر واليابسة والصيادون وعمال الميناء والبحارة والجوامع وأضرحة أولياء الله، وانعكاس ذلك كله على مظاهر الحياة اليومية. العلاقة بين البحر واليابسة بعد مهم جداً فى كل الأعمال التى كتب فيها جبريل عن بحرى ، ذلك الجزء من الإسكندرية بمساحته المحددة والمحدودة ، وبتراثه الذى يعود إلى ماقبل قول الإسكندر لدينوكراتيس: أريد أن أبنى هنا عاصمة ملكى.

وإذا كان الإسكندر المقدونى قد أطلق اسمه على المدينة القديمة، فإن ذلك لايعنى غياب الحياة عن المدينة قبل أن يصل إليها. بنى الإسكندر عاصمة ملكه فى موقع مدينة كانت قائمة بالفعل، وإن أتاح لها التخطيط أن تتسع. وتتطور، وتصبح عاصمة العالم القديم..

حى بحرى هو أصل الإسكندرية، راقودة ، وفاروس، والمساحة من الأرض التى تشكلت منها - قبل التاريخ المكتوب - مدينة الإسكندرية الحالية.

بحرى بانوراما متكاملة للعلاقة المميزة بين الحى والبحر الذى يحيط به من ثلاثة جوانب، بما يجعل منه شبه جزيرة فى شبه جزيرة الإسكندرية.

الحياة فى الأحياء الشعبية السكندرية لاتختلف كثيراً عن الحياة فى الأحياء الشعبية فى القاهرة والمدن المصرية الأخرى.. لكن السمة الأهم لصورة الحياة فى بحرى هى الصلة بين اليابسة والبحر.. البحر بكل ما يمثله من حكايات البحارة والصيادين والنوات والسفر إلى الموانئ القريبة والبعيدة.. واليابسة بكل ما تمثله من اعتماد على الحياة فى البحر ، بداية من حلقة السمك وورش السفن وعمليات الصيد، وتواصلاً مع غلبة الروحانية، والإيمان ببركات الأولياء، والحياة من رزق البحر سواء ببيع السمك ، أو العمل على السفن الصغيرة والبواخر الضخمة..

محمد جبريل فى هذا الكتاب، يستعيد، ويتأمل، ويعرض لعلاقته بالإسكندرية - وبحرى بخاصة - التى تبدأ منذ

الطفولة، أرضية تتحرك فيها أحداث أعماله وشخصياتها. لاتعمد ، إنما هو يعبر عما عاشه وعرفه . وكما يقول فإنه ربما لو أنه لو لم يرحل عن الإسكندرية فى مرحلة الشباب الباكر ، ما كان المكان السكندرى يلح فى أن يكون قواماً لأعماله الإبداعية. حتى الأعمال التى قد تنتسب شخصياتها أو فضاءاتها إلى مدن غير الإسكندرية ، تتخلق حياتها فى بيئة مدينته . ذلك ما حدث فى روايات وقصص قصيرة ، كثيرة، عكست بانورامية الحياة فى بحرى من خلال المعايشة والتقاط التفصيلات والمنمنمات ، منها – على سبيل المثال – رباعية بحرى، أهل البحر، قاضى البهار ينزل البحر، الصهبة، النظر إلى أسفل ، الشاطئ الآخر، المينا الشرقية، نجم وحيد فى الأفق، زمان الوصل، حكايات الفصول الأربعة ، صيد العصارى، غواية الإسكندر، مواسم للحنين، البحر أمامها ، صخرة فى الأنفوشى ، وغيرها.

أحدث إصـــدارات كتاب الهلال عام ٢٠١٠ - ٢٠١١م

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
عمان	عادل عبدالصمد	نوفمبر	٢٠١٠
الواقع أو الحقيقة	رجائى عطية	ديسمبر	٢٠١٠
يوميات عابر سبيل	د. مصطفى عبدالغنى	يناير	٢٠١١
شاعر الروابي الخضر	محمد رضوان	فبراير/ مارس	٢٠١١
التحرك فوق رقعة شطرنج	د. محمود سليمان	ابريل	٢٠١١
أشهر الاغتيالات السياسية	د. صلاح جودة	مايو	٢٠١١
أوراق البنفسج	خيرى شلبى	يونيه	٢٠١١
اللغة في محراب القدس	د. محمد داود	يوليه	٢٠١١
حقوق الإنسان فى السلم والحرب	د.جعفر عبدالسلام	أغسطس	٢٠١١
كتابات غربية	رجائى عطية	سبتمبر	٢٠١١
محمود درويش	عزة بدر	أكتوبر	٢٠١١

رقم الايداع
٢٠١١/١٧٦١٧
I.S.B.N
977-07-1509-3

الهلال

نوفمبر 2011 - الثمن 6 جنيهات

حكايات جوائز الدولة!

ملف خاص

